تفسير جزء عمَّ

تأليف:

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزعكري
غفر الله له في الدنيا والآخرة

تفسير جزء عمَّ

الموقع الرسمي:
http://www.alzoukory.com
قناة بذل النصائح للاستمرار بالعمل الصالح – تلجرام
– باللغة العربية: http://T.me/A_lzoukory
– باللغة الإنجليزية: http://T.me/A_lzoukoryen
صوتيات الشيخ حفظه الله تعالى – واتس: ٠٠٩٦٧-٧٧٤-٠٢٧-٨٠٢
رقم الهاتف الخاص بالشيخ حفظه الله تعالى: ٠٠٩٦٧-٧٧٧-١٦٥-٣٦١
تويتر: www.twitter/A_Alzoukory?s=08
فيس بوك:
www.facebook.com/649918028352367
يوتيوب:
www.youtube.com/channel/UCK2Lx1fToSQco2hW3tdgzOg

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن من أهم المهمات لهو فهم كتاب الله العزيز الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ على محمد ﷺ، وجعله حجة بينه وبين عباده، فهو الهدى والبيان والفرقان، وهو المحفوظ بحفظ الملك الديان، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من صفاته ما يدل على ما تقدم قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩].

ومن باب فهم القرآن درست جزء عمَّ في رَمَضَان (١٤٤٠ هـ) ثم رأيت أن أنشره للناس لعل الله أن ينفع به، والله المستعان، وجزء عمَّ فيه وسط المفصل وقصاره، وقد جاء من حديث جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: صَلَّى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ الْأَنْصَارِيُّ لِأَصْحَابِهِ الْعِشَاءَ، فَطَوَّلَ عَلَيْهِمْ، فَانْصَرَفَ رَجُلٌ مِنَّا، فَصَلَّى، فَأُخْبِرَ مُعَاذٌ عَنْهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ مَا قَالَ مُعَاذٌ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ فَتَّانًا يَا مُعَاذُ؟ إِذَا أَمَمْتَ النَّاسَ فَاقْرَأْ بِـ** ﴿ ٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ ﴾ [الشمس:١]، **وَ**﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ [الأعلى:١]، **وَ**﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق:١]، **وَ**﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ ﴾ [الليل:١]»[(١)].

وكان تقسيم القرآن إلى أحزاب، ومنه المفصل مشهورٌ على عهد الصحابة رضوان الله عليهم، فذهب جمهور أهل العلم إلى أن المفصل من سورة ق إلى آخر القرآن على القول المشهور، ووسط المفصل من سورة عم إلى سورة الضحى على القول المشهور، وقصار المفصل من سورة الضحى إلى الناس، وهناك أقوال أخرى، لكن هذا أرجحها.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥)، واللفظ له.

وأغلب سور المفصل كان نزولها في بدء الوحي حيث كان الناس لا يؤمنون بجنةٍ ولا بنارٍ، ولا ببعث ولا نشور، فقرر الله عَزَّوَجَلَّ لهم تلك الحقائق وجلاها وبينها وأوضحها، فثاب الناس من شركهم إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإسلام، ومن المعصية إلى الطاعة، فعند ذلك أنزل الله بعد ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة، لا تقربوا الزنا، ولا تقتلوا أنفسكم، إلى غير ذلك من الأحكام، ففي البخاري(١) عن عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهُ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ، فَقَالَ: أَيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ، وَمَا يَضُرُّكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَرِينِي مُصْحَفَكِ؟ قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القمر:٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ، قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ المُصْحَفَ، فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّوَرِ.

ولما كان هذا هو الحال وأغلب الناس يقرءون في صلاتهم بقصار المفصل إلا القليل ممن قد حفظ القرآن أو شيئًا منه، بل إن كثيرًا من حفاظ القرآن إن كانوا يصلون بالناس فإنهم يتوخون المفصل ووسطه وقصاره؛ رفقًا بالناس، وامتثالا لسنة رسول الله ﷺ، فإن غالب قراءات النبي ﷺ في الصلاة كانت من المفصل فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَشْبَهَ صَلَاةً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ فُلَانٍ - قَالَ سُلَيْمَانُ - «كَانَ يُطِيلُ الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ، وَيُخَفِّفُ الْأُخْرَيَيْنِ، وَيُخَفِّفُ الْعَصْرَ، وَيَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارِ الْمُفَصَّلِ، وَيَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ بِوَسَطِ الْمُفَصَّلِ، وَيَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ بِطِوَالِ الْمُفَصَّلِ»(٢)، ولا أعلم ما يثبت عن النبي ﷺ في القراءة خارج المفصل إلا ما كان من قراءة سورة الصافات كما قَالَ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُ بِالتَّخْفِيفِ، وَيَؤُمُّنَا بِالصَّافَّاتِ»(٣).

وكذلك قراءة ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ﴾ السجدة في فجر يوم الجمعة، وقراءة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون:١]، «فَلَمَّا بَلَغَ ذِكْرَ مُوسَى وهَارُونَ، أَصَابَتْهُ سَعْلَةٌ، فَرَكَعَ ﷺ»(٤).

---

(١) برقم (٤٩٩٣).
(٢) أخرجه أحمد (٧٩٩١).
(٣) أخرجه النسائي (٩٠٢).
(٤) أخرجه أحمد (١٥٣٩٣)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ السَّائِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأغلب الناس يقرءون ولا يفهمون ما يقرءون؛ ولهذا تعين على العلماء والمشايخ والدعاة أن يبينوا معاني هذه السور، القصيرة في مبناها العظيمة في معناها؛ فإن الإنسان إذا قرأ القرآن متدبرًا متفهمًا جره ذلك إلى الخشوع، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال:٢].

وسبب زيادة الإيمان أنهم علموا معاني ما يُتلى عليهم، والله الهادي إلى سواء السبيل، فأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل ما يكتب نافعًا لعباده مبلغًا إلى مرضاته.

وكتبه:

أبو محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزعكري

كان الله له في الدنيا والآخرة

٦/ من ذي الحجة/ ١٤٤٠هـ

مسجد الصحابة بالفيضة

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

مكية — آياتها ٧

الحمد لله، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ مِنْ خَلقِهِ وَخَلِيلُهُ، ﷺ تَسْلِيمًا كَثِيْرًا.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذه تعليقةٌ مختصرةٌ على سورة الفاتحة أعظم سورة في القرآن العظيم، كان أصلها كلمة في مسجد السنة بالقرن والقائم عليه الشيخ جمعان لحمر حفظه الله وجزاه خيرًا.

ثم رأيت أن تفرد في هذا المختصر وزدتُ عليها بعض النقولات تتميمًا للفائدة.

ولي بحمد الله عَزَّوَجَلَّ «فتح الكريم في تفسير السبع المثاني والقرآن العظيم»، وهو كتاب واسعٌ وسِفْرٌ كبيرٌ ذكرت فيه المهمات تفصيلًا وإجمالًا لكن اكتفيت هنا بالاختصار، وبالله التوفيق وأسأله العون.

من نعم الله عَزَّوَجَلَّ إنزال القرآن:

فإن من نعم الله عَزَّوَجَلَّ على عباده العظيمات وهباته الجليلات لهو إنزال القرآن، هذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيمٍ حميدٍ، جعله الله تعالى، موعظة وشفاءً ورحمةً ونورًا، وهو الكتاب المبين، والكتب الحكيم، وكلام رب العالمين، وهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، وفضائله مذكورة فيه ومذكورة في كثيرٍ من الأحاديث.

وقد نقل السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإتقان» عن بعضهم، أن اسماء القرآن في القرآن تزيد على خمسين، ومعلوم أن كل اسم من أسماء القرآن يتضمن صفة وربما تضمن ودل على أكثر من ذلك.

وقد اشار الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «مقدمة تفسيره» أن أبلغ الوصف للقرآن ما وصفه الله عَزَّوَجَلَّ به، ووصفه به رسوله ﷺ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو الكتاب المبارك قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص:٢٩].

فهو مبارك في تلاوته، ومبارك في معانيه ومواعظه، ومبارك في تدبره، ومبارك في العمل به،

ومبارك في الاستشفاء به، إلى غير ذلك من البركات العظيمات والهبات الجليلات التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الكتاب، فهو كلامه تعالى وصفته.

ومن عجيب شأنه أن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل كتبًا كثيرة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥]، فكل رسول له كتاب من الله عَزَّوَجَلَّ يتعبد به ويدعو إليه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وَسِرُّ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالْكُتُبِ وَالشَّرَائِعِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ انْتَهَى إِلَى هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارُ الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ، حَتَّى قِيلَ: أَنْزَلَ اللَّهُ مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، جَمَعَ مَعَانِيَهَا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ هَذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ فِي الْمُفَصَّلِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْمُفَصَّلِ فِي الْفَاتِحَةِ، وَمَعَانِيَ الْفَاتِحَةِ فِي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥][(١)]. اهـ.

وسورة الفاتحة أعظم سورة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، دلَّ على ذلك حديث أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَعَانِي، فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُهُ، فَقَالَ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ؟ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]» ثُمَّ قَالَ: «**لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ**»، فَذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَخْرُجَ فَذَكَرْتُ لَهُ، وَقَالَ: «**هِيَ**: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢] **السَّبْعُ الْمَثَانِي**»[(٢)].

وفي هذا دليل على مسألة مهمة وهي تفاضل القرآن الكريم، وتفاضل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وهذه مسألة مهمة وأدلتها كثيرة وقد أطلت في النقل عن العلماء في التفسير الموسع لهذه السورة.

فهي أعظم سورة في القرآن بنص حديث رسول الله ﷺ، ومما يدل على عظمتها وفضلها أن الله افترض علينا قراءتها في كل ركعة وأنها تغني عن غيرها ولا يغني غيرها عنها في الصلاة.

ومن فضلها أنها رقية، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَأَتَتْنَا امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ، لُدِغَ، فَهَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مِنَّا، مَا كُنَّا نَظُنُّهُ يُحْسِنُ رُقْيَةً، فَرَقَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَبَرَأَ، فَأَعْطَوْهُ غَنَمًا، وَسَقَوْنَا لَبَنًا، فَقُلْنَا: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً؟ فَقَالَ: مَا رَقَيْتُهُ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ. قَالَ: فَقُلْتُ: لَا تُحَرِّكُوهَا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ. فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ،

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤٧).

فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «مَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟ اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمِ مَعَكُمْ»(١).

ومنها أنها خاصة بالنبي ﷺ وهذه الأمة، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ(٢).

ومنها أنها جامعة بين الدعاء والثناء.

ولها اسماء عظيمات:

- فهي القرآن العظيم.
- وهي السبع المثاني.
- وهي الفاتحة.
- وهي الصلاة.
- وهي الرقية.
- وهي أم الكتاب.
- وهي أم القرآن.
- وهي الحمد.
- وزاد بعضهم الكافية.
- والشافية.

وذكروا لها غير ذلك وكثرة الاسماء الثبوتية تدل على الكمال، والقرآن العظيم صفة الله تعالى فكل اسم يتضمن صفة.

وهي سبع آيات كما هو نص القرآن قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧] ونص السنة وعليه الإجماع وما ذكر غير ذلك فهو قول شاذ لا يلتفت إليه ولا يعول عليه.

(١) متفق عليه، البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١).
(٢) أخرجه مسلم (٨٠٦).

هل البسملة آية:

إلا أن العلماء اختلفوا هل البسملة آية من آياتها أو ليست من آياتها؟

والصحيح الذي عليه المحققون أنها ليست آية من الفاتحة، بل ولا من كل سورة وهي بعض آية من سورة النمل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل:٣٠]، وأشهر حديث يستدل به على ذلك ما أخرجه الإمام مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة:٢]، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة:٣]، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة:٤]، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥] **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة:٦-٧] **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**». وفي رواية: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي**»(١).

فلم يذكر فيه البسملة فقسم الله عَزَّوَجَلَّ سورة الفاتحة بينه وبين عبده الثلاث الآيات الأُوَل، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة:٢-٤]، فهذه في حق الله عَزَّوَجَلَّ حمدًا وثناءً ومجدًا على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

والآية الرابعة، وهي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥]، هي التي بين العبد وبين الله عَزَّوَجَلَّ، فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بيان لحق الله عَزَّوَجَلَّ، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بيان لحال العبد واستعانته بالله عَزَّوَجَلَّ واعتماده عليه.

ثم القسم الآخر وهو الدعاء ثلاثة آيات وهي: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة:٦-٧].

فصارت سبع آيات بغير البسملة على الصحيح من أقوال العلماء.

ومعلوم أن إثبات البسملة آية من الفاتحة يوجب قراءتها في كل صلاة وعدم الاثبات لا يوجب القراءة وإنما تكون قراءتها من المستحبات.

---

(١) برقم (٣٩٥).

وهدي النبي ﷺ الإسرار بالبسملة في الصلاة كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقْرَأُ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»(١).

ولم يثبت عنه ﷺ الجهر مطلقًا كما ذكر ذلك الدارقطني مع أنه رَحِمَهُ اللَّهُ يرجح الجهر وألف رسالة في ذلك، وما جاء من حديث نُعَيْمٍ بنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُجْمِرِ، قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَرَأَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثُمَّ قَرَأَ بِأُمِّ الْقُرْآنِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٧] فَقَالَ: «آمِينَ». فَقَالَ النَّاسُ: آمِينَ وَيَقُولُ: كُلَّمَا سَجَدَ «اللَّهُ أَكْبَرُ»، وَإِذَا قَامَ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الِاثْنَتَيْنِ قَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ»، وَإِذَا سَلَّمَ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَشْبَهُكُمْ صَلَاةً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»(٢)، فقد أعلَّ العلماء زيادة الجهر بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وأنه شذ بها نعيم المجمر، وأطال في بيان ذلك الزيلعي في «نصب الراية».

وعند الترمذي، عَنِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، قَالَ: سَمِعَنِي أَبِي وَأَنَا فِي الصَّلاَةِ، أَقُولُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فَقَالَ لِي: أَيْ بُنَيَّ مُحْدَثٌ إِيَّاكَ وَالحَدَثَ، قَالَ: وَلَمْ أَرَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ الحَدَثُ فِي الإِسْلاَمِ، يَعْنِي مِنْهُ، قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ، وَمَعَ عُمَرَ، وَمَعَ عُثْمَانَ، فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقُولُهَا، فَلاَ تَقُلْهَا، إِذَا أَنْتَ صَلَّيْتَ فَقُلْ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]. حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَغَيْرُهُمْ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ. وَبِهِ يَقُولُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَابْنُ الْمُبَارَكِ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ لَا يَرَوْنَ أَنْ يَجْهَرَ بِـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قَالُوا: وَيَقُولُهَا فِي نَفْسِهِ(٣). اهـ.

وقراءة سور الفاتحة ركن في الصلاة لحديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**»، وفي رواية «**بِأُمِّ الْكِتَابِ**»(٤)، وفي بعضها «**بِأُمِّ الْقُرْآنِ**»، وهذا الحديث متفق عليه(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣)، ومسلم (٣٩٩)، بألفاظ كثيرة.
(٢) رواه النسائي في «سننه» (٩٠٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٩٩، ٦٨٨)، وغيرهم.
(٣) برقم (٢٤٤).
(٤) أخرجه البخاري في «القراءة خلف الإمام» (٤).
(٥) البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

وقد ألف البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى جزء في «القراءة خلف الإمام» وأثبت أن قراءة الفاتحة واجبة على المأموم والإمام والمنفرد، وبوب في «صحيحه» بَابُ وُجُوبِ الْقِرَاءَةِ لِلْإِمَامِ وَالْمَأْمُومِ فِي الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، وَمَا يُجْهَرُ فِيهَا وَمَا يُخَافَتُ.

ولا تسقط قرأتها إلا عن العاجز الذي لم يتمكن أو لم يستطع حفظها كرجل أسلم ووجبت عليه الصلاة فإذا عُلِّم الفاتحة ربما خرجت عليه الصلاة قبل أن يصلي فله أن يصلي بغير الفاتحة وأن يقول بدلًا عن الفاتحة: «**سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**»، لما روى ، من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا فَعَلِّمْنِي مَا يُجْزِئُنِي مِنْهُ، قَالَ: «**قُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَمَا لِي، قَالَ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي**»(١).

معاني البسملة:

فأما معاني البسملة فعلى ما يأتي قوله: ﴿بِسْمِ﴾ الباء للاستعانة، وقيل للمصاحبة والأول أظهر وأشهر إذ أن العبد يسمي الله تعالى متبركا بذكره مستعينا به في تيسير أمره وتفريج كربه. والاسم: مشتق من السمو الذي هو العلو وقيل من السمة والأول أظهر لأنه يجمع على أسماء ويصغر على سُمَيّ ولو كان مشتقا من السمة لجمع على سمات ويصغر على سُمَيَّة، وهل الخلاف في هذا عقدي؟ فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الخلاف عقدي من حيث أن القول باشتقاقه من السمة قول المبتدعة الذين يزعمون أن الله عَزَّوَجَلَّ كان ولا صفات له حتى وصفه عباده وسموه وهذا قول المعطلة.

وقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ اسم الجلالة علم على الذات العلية مختص بالله وعليه جميع مدار الأسماء الحسنى وهو الاسم الأعظم على الصحيح من أقوال العلماء وهو مشتق من الإله.

قال رؤبة ابن العجاج:

للهِ دَرُّ الغانِيـــــاتِ المُـــــدَّهِ ❁❁❁ سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي

أي: من تعبدي.

قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ من أسماء الله الحسنى، وهو من الاسماء المختصة بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو على

---

(١) أخرجه أحمد (١٩١١٠)، وأبو داود (٨٣٢)، والنسائي (٩٩٨)، والحديث مخرج في «إرواء الغليل».

وزن فعلان وزيادة المباني دليل على زيادة المعاني، وقد أنكره كفار قريش، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الفرقان:٦٠]، وكأن هذا والله أعلم من باب المكابرة إذ قد وُجد في أشعار العرب قول الشنفرى أو لبعض الجاهلية الجهلاء.

أَلاَ ضَرَبَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ هَجِينَهَا ❁❁❁ أَلاَ قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا

وهو متضمن لصفة الرحمة المتعلقة بالذات على ما يأتي.

قوله: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ من أسماء الله الحسنى وليس بمختص فقد سمى الله تعالى نبيه ﷺ رؤفًا رحيمًا، وهو دال على صفة الرحمة المتعدية ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣]، فالحكمة إذًا فيما أظن وأرى والله أعلم من افتتاح القرآن بالبسملة:

- أولا: للتبرك بذكر الله تعالى.
- ثانيًا: الاستعانة بالله تعالى.
- ثالثًا: تقديم اسم الله تعالى على من سواه.
- رابعًا: التحصن من الشيطان الرجيم وجنده.

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا والله أعلم السر العظيم في كون البسملة تضمنت الأسماء الثلاثة العظيمة حتى يدخل تحتها كل وصف حسن، والتنزه من كل ما يضاد ذلك وبالله التوفيق والله أعلم.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾: **الْحَمْدُ**: هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله وآلته القلب واللسان، ويكون على الصفات اللازمة كالجمال والكمال، والمتعدية كالإحسان والرحمة والكرم.

والله عَزَّوَجَلَّ قد افتتح خمس سور بالحمد: سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة:٢]، وسورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، وسورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف:١]، وسورة سبأ، وهي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ:١]، وسورة فاطر، وهي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر:١]، وقد حمد الله تعالى نفسه في مواطن كثيرة غيرها، وهكذا نبينا ﷺ أمر بحمد الله عَزَّوَجَلَّ وحث عليه ولازمه.

و(ال) في الحمد للاستغراق، أي: جميع المحامد ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. واثبات المحامد يتضمن إثبات كل كمال لله عَزَّوَجَلَّ، كمال السمع، وكمال البصر، وكمال القدرة، وكمال الإرادة، وكمال الخلق، وكمال الحكمة، وكمال القوة، وكمال المشيئة، و غير ذلك من الصفات.

ويستلزم نفي جميع النقائص، فهاتان الكلمتان (سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ) إذا تأملتهما جيدًا وجدت فيهما إثبات جميع الكمال، ونفي جميع النقص عن الله عَزَّوَجَلَّ.

كما أن كلمة (سُبْحَانَ اللَّهِ) تتضمن نفي جميع النقائص وتستلزم إثبات جميع الكمال لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن إثبات الكمال يلزم منه نفي النقيصة ونفي النقيصة يلزم منه إثبات الكمال. ولهذا جُمع بينهما في عدة مواطن في الأذكار، كأذكار الصباح والمساء، وفي أذكار الصلاة، وغير ذلك.

قوله: ﴿رَبِّ﴾ من أسماء الله تعالى الحسنى، ويُستعمَل بالألف واللَّام أو مضافًا ولا يستعمل مع غيره إلا مضافا وغير محلى بالألف واللام.

ومن معانيه السيد والمالك والمربي، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرَّبُّ هُوَ: الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى السَّيِّدِ، وَعَلَى الْمُتَصَرِّفِ لِلْإِصْلَاحِ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى[١]. اهـ.

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: رُبُوبِيَّتُهُ لِلْعَالَمِ تَتَضَمَّنُ تَصَرُّفَهُ فِيهِ وَتَدْبِيرَهُ لَهُ وَنَفَاذَ أَمْرِهِ كُلَّ وَقْتٍ فِيهِ، وَكَوْنُهُ مَعَهُ كُلَّ سَاعَةٍ فِي شَأْنٍ: يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيُصَرِّفُ الْأُمُورَ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَإِنْكَارُ ذَلِكَ إِنْكَارٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ[٢]. اهـ.

فالرب من اسماء الله الحسنى ولم يُذكر في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه الترمذي[٣]، وفيه ذكر الاسماء الحسنى. ومن الأوجه التي أعله بها العلماء أن اسم الرب الذي كان يدعوا به جميع الأنبياء ليس مذكورًا فيه، وهو من الاسماء الحسنى بدلالة القرآن والسنة وزيادة ذكر الاسماء الحسنى في الحديث مدرجة عن الوليد بن مسلم، وقيل عن غيره وقد أعلها الحفاظ. وإنما المحفوظ ما رواه الشيخان[٤]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**».

والرَبُّ: هو المربي للعالم الحافظ لهم المعين لهم لاسيما المسلم، فربوبية الله له ربوبية إعانة وحفظ وكلأه ونصر وتأييد فمن هذه الناحية فيها ترغيب إذ أن الله ربك محيطٌ بك وعالم بحالك ولن يضيعك ولن يتركك هملًا؛ بل أنعم عليك بنعم كثيرة بها تعلم ما يجب عليك ووفقك وهداك وسددك وكم من نعم لله عَزَّوَجَلَّ الرب على عباده وفيها ترغيب من حيث أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المتصرف في هذا الكون، وربوبيته على عباده عامة وخاصة، فربوبيته لجميع العباد عامة ربوبية قهر وقدرة ولا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ عالم، سواء في ذلك الجن والأنس والملائكة والأرض وما فيها.

وسموا (عالم) من العلامة، فالعلامة هي الآية التي تبين الشيء وتدل عليه فهذا الكون بما

---

(١) «تفسير القران العظيم» (١/ ١٣١).
(٢) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٢٣).
(٣) برقم(٣٥٠٧).
(٤) البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

فيه علامة على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وعلى أن لهذا الكون خالقًا ورازقًا ومالكًا ومدبرًا.

وفي هذه الآية بيان للنوع الأول من أنواع التوحيد:

❖ **وهو توحيد الربوبية:** وهو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالخلق والملك والتدبير.

❖ **والنوع الثاني، توحيد الألوهية:** هو إفراد الله بالعبادة أو بأفعال المكلفين، فالله عَزَّوَجَلَّ رب جميع العالمين مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، ويلزم من ذلك أنه الإله الحق وما سواه باطل، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج:٦].

❖ **والنوع الثالث، توحيد الأسماء والصفات:** وهو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته. والاهتمام بالتوحيد من المهمات لا سيما مع كثرة المخالفين للكتاب والسنة النبوية الصحيحة وقد تكلمت على هذا الباب بتوسع في كتابي «فتح المجيد ببيان هداية القرآن إلى التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد»، فتجد أن كثيرًا ممن يقول لا إله إلا الله قد علق قلبه بحرز أو قبة أو قبر ونحو ذلك.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

ثنَّى سبحانه وتعالى بهذين الاسمين العظيمين الجليلين، وهما اسمان عظيمان من اسماء الله الحسنى دالين على إثبات صفة الرحمة لله عَزَّوَجَلَّ؛ إلا أن اسم الرحمن أبلغ من اسم الرحيم، **والقاعدة عند اهل اللغة ان زيادة المباني تدل على زيادة المعاني كما تقدم.**

فالرحمن على وزن فعلان وهو من الاسماء المختصة بالله عَزَّوَجَلَّ، ولم يُسمَّ به إلا مسيلمة الكذاب من باب المكابرة، وقد كانت العرب تعرف الرحمن ولكن المكابرة والعناد وفي حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اكْتُبْ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا بِاسْمِ اللهِ، فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللهُمَّ[1]، وفي القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠] فهو من الاسماء المختصة ولا يجوز ان يسمى غير الله به، كاسم (الله)، والظاهر، والقاهر، والمتكبر، والجبار، والرحمن، وغير ذلك من الاسماء المختصة.

وأما اسم (الرَّحِيم) فليس من الاسماء المختصة؛ ولهذا سمى الله عَزَّوَجَلَّ محمدًا رحيمًا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

و(الرحمن) رحمن الدنيا والآخرة ورحمته للبر والفاجر، و(الرحيم) خاصة بالمومن ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣]، ورحمته للكافر بإطعامه واستصحاحه وغير ذلك مما يتعلق به في حياته الدنيا وأما في الآخرة فلا رحمة له.

وقد ذهب العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] إلى أن (الرحمن) دال على الصفة القائمة بالذات، و(الرحيم) دال على تعلقها بالمرحوم، ولهذا لم يجئ اسم الرحمن متعديا في القرآن، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣]، ولم يقل: رحمانًا، وهذا أحسن ما قيل في الفرق بينهما.

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ سماه الله تعالى حمدًا كما تقدم في الحديث القدسي. ولما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ سماه ثناءً.

والفرق بين الحمد والثناء: أن الثناء تكرار الحمد، وإلا فالأصل أن الثناء من الحمد؛ لكن إذا تكرر الحمد مرة أو مرتين أو ثلاث يسمى ثناء.

قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: ثم قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وفي بعض القراءات ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، فكلاهما من الأسماء الحسنى وقد ذكر العلماء أوجه للإتيان بمالك وملك، ولخصها ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «تفسيره» للفاتحة وذكرها أيضًا غيره من المتقدمين لاسيما فيما أولف في أوجه القراءات.

فمالك الذي له الملك، أي أنه متصرف فيما يملك، قالوا: وقد يكون مالك لا ملك، وقد يكون ملك لا مالك. ملك كحال الملوك على الأرض، على الدول يكون ملك لكن ليس مالك لكل شيء ولا متصرف لكل شيء؛ بينما جُمع في حق الله بأنه ملكٌ ومالكٌ، وهذا يدل على عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وملك الله تعالى دال على عظمته وربوبيته، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

وقوله: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، اليوم الآخر، سمي يوم الدين لأن الناس يجازون بأعمالهم، فالمؤمن يجازى على إيمانه والكافر يجازى على كفره ولا سواء ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى:٧] قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

﴿ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر:١٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَتَخْصِيصُ الْمُلْكِ بِيَوْمِ الدِّينِ لَا يَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِأَنَّهُ لَا يَدَّعِي أَحَدٌ هُنَالِكَ شَيْئًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ(١). اهـ.

وفي الحديث الذي تقدم قوله: «**مَجَّدَنِي عَبْدِي**»، **والفرق بين المجد والحمد**: أن المجد من أنواع الحمد، إلا أن الحمد أعم والمجد أخص، فإذا قلت: الحمد لله الهادي المحسن المنعم كان هذا حمدًا وليس بمجد؛ لكن إذا قلت: الحمد لله العظيم القاهر القوي الظاهر الجبار كان هذا مجدًا وهو حمد.

فالمجد يكون بصفات العظمة والجلال والكبرياء لأن كلمة (م ج د) تدل على السعة قال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١٥﴾﴾ [البروج:١٥] على قراءة الكسر أي العرش الواسع العظيم، وعلى قراءة الضم ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج:١٥] يكون المجيد من اسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي هذا الباب الفارق بين المدح وبين الحمد، فالمدح لا يشترط فيه المحبة أو التعظيم فقد يمدح الإنسان مالا يحب بينما الحمد لا يكون إلا مع المحبة والتعظيم.

ومنه الفرق بين الشكر والحمد فإن الشكر يكون بثلاث آلات: وهي اللسان، والقلب، والجوارح. والحمد يكون بآلتين: وهما القلب واللسان.

والشكر يكون على الصفا المتعدية كالإحسان، والحمد يكون على الصفات اللازمة والمتعدية.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثم يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: الْعِبَادَةُ فِي اللُّغَةِ مِنَ الذِّلَّةِ، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ، وَبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ، أَيْ: مُذَلَّلٌ، وَفِي الشَّرْعِ: عِبَارَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ وَالْخُضُوعِ وَالْخَوْفِ. وَقُدِّمَ الْمَفْعُولُ وَهُوَ ﴿إِيَّاكَ﴾، وَكُرِّرَ؛ لِلِاهْتِمَامِ وَالْحَصْرِ، أَيْ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ، وَهَذَا هُوَ كَمَالُ الطَّاعَةِ. وَالدِّينُ يَرْجِعُ كُلُّهُ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْفَاتِحَةُ سِرُّ الْقُرْآنِ، وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الْفَاتِحَةِ:٥] فَالْأَوَّلُ تَبَرُّؤٌ مِنَ الشِّرْكِ، وَالثَّانِي تَبَرُّؤٌ مِنَ الْحَوْلِ والقوة، والتفويض إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ. وَهَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هُودٍ:١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ﴾ [الْمُلْكِ:٢٩]، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الْمُزَّمِّلِ:٩](٢). اهـ.

---

(١) «تفسير القران العظيم» (١/ ١٣٤).

(٢) قاله ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «التفسير» (١/ ١٣٤).

أي نعبد إياك وقدم المفعول ليدل على اختصاص الله بالعبادة وفي هذا دليل على إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة وأنها حقه ولا يجوز أن يُشرك معه غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلا؛ ولهذا دعت جميع الرسل إلى هذا الحق، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [الأنعام:١٥١]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

فالعبادة حق الله عَزَّوَجَلَّ، وهي أنواع: قولية، وفعلية، ومالية، واعتقادية، فلا يجوز أن يصرف شيء من أنواع العبادات لغير الله لا القولية، ولا الفعلية، ولا الاعتقادية، ولا المالية، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن:١٨].

وقبول العبادة أيّ كانت متوقفة على شرطين وهما:

١- الإخلاص لله بالتوحيد، قال الله ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة:٥] وقال تعالى ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ ﴾ [الزمر:٣] وفي «الصحيحين» عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى**»(١)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»، والأحاديث في الباب كثيرة يعسر حصرها، وسنخرج عن الموضوع(٢).

ويدل عليه هنا قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة:٥] فهي دالة على الإخلاص بأوضح عبارة وأحسن بيان على ما تقدم بيانه.

٢- والشرط الثاني هو: المتابعة لرسول الله ﷺ، إذ يقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٨٩)، ومسلم (١٩٠٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»(١)، وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

ولما كان الإنسان عاجزًا عن فعل المأمور وترك المحظور إلا بعون الله، قال: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والاستعانة: طلب العون، والمعنى أننا نستعينك يا الله على عبادتنا لك.

وفي هذا كمال التوكل وصدق الاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ، والتوكل واجب وفرض وحتم، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة:٢٣].

وإذا لم يعن الله العبد فلن يستطيع أن يصلي صلاةً، ولا زكاةً، ولا حجًا، ولا ذكرًا، ولا هدايةً، ولا شيئًا من ذلك، ولهذا قال موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وكان من دعاءه ﷺ: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ»(٢)، ومن وصيته ﷺ لمن يحب، فقد قال لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(٣).

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَونٌ مِنَ اللهِ لِلفَتَى ❁❁❁ فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيهِ اجتِهَادُهُ

فالفضل لله عَزَّوَجَلَّ أن فرض علينا فرائض ثم أعاننا على الإتيان بها، ففي هذه الآية ما يجب على الإنسان من وجوب الخضوع لله عَزَّوَجَلَّ واستشعار العجز والنقص والفقر والحاجة إلى الله: ﴿ ❁ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر:١٥] فما تستطيع أن تفعل شيئًا لا أن تقوم، ولا أن تصلي، ولا أن تذكر الله، فربما يضيق صدرك إلى غير ذلك.

ولكن إذا أعان الله سهُلتْ عليك الأمور، وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا، وَأَنْتَ تَجْعَلُ الْحَزْنَ إِذَا شِئْتَ سَهْلًا»(٤).

فهذه الآية بين الله وبين العبد، أولها إخبار بما يجب على العبد من حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخاتمتها أن العبد مستعين وخاضع وفقير وراجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَالْعِبَادَةُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ، والأَفعَالِ، والْمُعتَقَدَاتِ.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٩٧)، وأبو داود (١٥١٠) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والحديث في «الصحيح المسند» (٦٠٦) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والحديث في «الصحيح المسند» (١١٠٧) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم الليلة» (٣٥١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث في «الصحيح المسند» (٧٣) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وَالْعِبَادَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ**: غَايَةُ الْحُبِّ بِغَايَةِ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ أَيْ مُذَلَّلٌ، **وَالتَّعَبُّدُ**: التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ، فَمَنْ أَحْبَبْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ خَاضِعًا لَهُ، لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ، وَمَنْ خَضَعْتَ لَهُ بِلَا مَحَبَّةٍ لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ حَتَّى تَكُونَ مُحِبًّا خَاضِعًا، وَمِنْ هَاهُنَا كَانَ الْمُنْكِرُونَ مَحَبَّةَ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ مُنْكِرِينَ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ، وَالْمُنْكِرُونَ لِكَوْنِهِ مَحْبُوبًا لَهُمْ، بَلْ هُوَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِمْ، وَوَجْهُهُ الْأَعْلَى نِهَايَةُ بُغْيَتِهِمْ مُنْكِرِينَ لِكَوْنِهِ إِلَهًا، وَإِنْ أَقَرُّوا بِكَوْنِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ وَخَالِقًا لَهُمْ، فَهَذَا غَايَةُ تَوْحِيدِهِمْ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي اعْتَرَفَ بِهِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، وَلَمْ يَخْرُجُوا بِهِ عَنِ الشِّرْكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف:٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:٢٥]، ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ [المؤمنون:٨٤]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٩]، وَهَذَا يُحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِهِ عَلَى تَوْحِيدِ إِلَهِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ، كَمَا أَنَّهُ لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَالِاسْتِعَانَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: الثِّقَةُ بِاللَّهِ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَثِقُ بِالْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ، وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ مَعَ ثِقَتِهِ بِهِ لِاسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ، وَقَدْ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مَعَ عَدَمِ ثِقَتِهِ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَلِعَدَمِ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، فَيَحْتَاجُ إِلَى اعْتِمَادِهِ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ وَاثِقٍ بِهِ.

وَالتَّوَكُّلُ مَعْنًى يَلْتَئِمُ مِنْ أَصْلَيْنِ: مِنَ الثِّقَةِ، وَالِاعْتِمَادِ، وَهُوَ حَقِيقَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة:٥]، وَهَذَانِ الْأَصْلَانِ وَهُمَا التَّوَكُّلُ، وَالْعِبَادَةُ قَدْ ذُكِرَا فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِيهَا، هَذَا أَحَدُهَا.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمَعْبُودِ وَالْمُسْتَعَانِ عَلَى الْفِعْلَيْنِ، فَفِيهِ: أَدَبُهُمْ مَعَ اللَّهِ بِتَقْدِيمِ اسْمِهِ عَلَى فِعْلِهِمْ، وَفِيهِ الِاهْتِمَامُ وَشِدَّةُ الْعِنَايَةِ بِهِ، وَفِيهِ الْإِيذَانُ بِالِاخْتِصَاصِ، الْمُسَمَّى بِالْحَصْرِ، فَهُوَ فِي قُوَّةِ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِكَ، وَالْحَاكِمُ فِي ذَلِكَ ذَوْقُ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفِقْهُ فِيهَا، وَاسْتِقْرَاءُ مَوَارِدِ اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ مُقَدَّمًا، وَسِيبَوَيْهِ نَصَّ عَلَى الِاهْتِمَامِ، وَلَمْ يَنْفِ غَيْرَهُ.

وَلِأَنَّهُ يَقْبُحُ مِنَ الْقَائِلِ أَنْ يُعْتِقَ عَشَرَةَ أَعْبُدٍ مَثَلًا، ثُمَّ يَقُولُ لِأَحَدِهِمْ: إِيَّاكَ أَعْتَقْتُ، وَمَنْ سَمِعَهُ أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَغَيْرَهُ أَيْضًا أَعْتَقْتَ، وَلَوْلَا فَهْمُ الِاخْتِصَاصِ لَمَا قُبِّحَ هَذَا الْكَلَامُ، وَلَا حَسُنَ إِنْكَارُهُ. وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة:٤٠]، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة:٤١]، كَيْفَ تَجِدُهُ فِي قُوَّةِ: لَا تَرْهَبُوا غَيْرِي، وَلَا تَتَّقُوا سِوَايَ، وَكَذَلِكَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] هُوَ فِي قُوَّةِ: لَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ بِسِوَاكَ، وَكُلُّ ذِي

ذَوْقٍ سَلِيمٍ يَفْهَمُ هَذَا الِاخْتِصَاصَ مِنْ عِلَّةِ السِّيَاقِ. وَلَا عِبْرَةَ بِجَدَلِ مَنْ قَلَّ فَهْمُهُ، وَفُتِحَ عَلَيْهِ بَابُ الشَّكِّ وَالتَّشْكِيكِ[1]. اهـ.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

هذا دعاء من العبد لله عَزَّوَجَلَّ، وفي هذا أدب الدعاء، وهو أن الإنسان إذا أراد أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ يقدم الحمد لله والثناء والمجد ويتوسل لله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته فإن ذلك أحرى أن يستجاب له ثم بعد ذلك يأتي بالدعاء.

وفي حديث فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللَّهَ تَعَالَى، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**عَجِلَ هَذَا**»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ - أَوْ لِغَيْرِهِ -: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ**»[2].

والهداية المراد بها هنا هداية التوفيق ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي: وفقنا إلى الصراط المستقيم والصراط هو الطريق.

والهداية أقسام ذكرها غير واحد من أهل العلم كالراغب في «المفردات» وابن القيم في كثير من كتبه.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: **الْهِدَايَةُ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ: أَحَدُهَا: الْهِدَايَةُ الْعَامَّةُ الْمُشْتَرَكَةُ بَيْنَ الْخَلْقِ** الْمَذْكُورَةُ فِي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٥٠] أَيْ: أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ صُورَتَهُ الَّتِي لَا يَشْتَبِهُ فِيهَا بِغَيْرِهِ، وَأَعْطَى كُلَّ عُضْوٍ شَكْلَهُ وَهَيْئَتَهُ، وَأَعْطَى كُلَّ مَوْجُودٍ خَلْقَهُ الْمُخْتَصَّ بِهِ ثُمَّ هُدَاهُ لِمَا خَلَقَهُ مِنْ الْأَعْمَالِ.

قَالَ وَهَذِهِ الْهِدَايَةُ تَعُمُّ الْحَيَوَانَ الْمُتَحَرِّكَ بِإِرَادَتِهِ إلَى جَلْبِ مَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ.

قَالَ وَلِلْجَمَادِ أَيْضًا هِدَايَةٌ تَلِيقُ بِهِ، كَمَا أَنَّ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ الْحَيَوَانِ هِدَايَةً تَلِيقُ بِهِ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَنْوَاعُهَا وَصُوَرُهَا، وَكَذَلِكَ لِكُلِّ عُضْوٍ هِدَايَةٌ تَلِيقُ بِهِ، فَهُدَى الرِّجْلَيْنِ لِلْمَشْيِ، وَاللِّسَانِ لِلْكَلَامِ، وَالْعَيْنِ لِكَشْفِ الْمَرْئِيَّاتِ، وَهَلُمَّ جَرًّا.

وَكَذَلِكَ هَدَى الزَّوْجَيْنِ مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ إلَى الِازْدِوَاجِ وَالتَّنَاسُلِ وَتَرْبِيَةِ الْوَلَدِ، وَالْوَلَدِ إلَى الْتِقَامِ الثَّدْيِ عِنْدَ وَضْعِهِ، وَمَرَاتِبُ هِدَايَتِهِ سُبْحَانَهُ لَا يُحْصِيهَا إلَّا هُوَ.

الثَّانِي: هِدَايَةُ الْبَيَانِ وَالدَّلَالَةِ وَالتَّعْرِيفِ لِنَجْدَيْ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَطَرِيقَيْ النَّجَاةِ وَالْهَلَاكِ.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٥، ٩٨).

(٢) أخرجه ابو داود (١٤٨١)، والحديث في «الصحيح المسند» (١٠٦٤) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَهَذِهِ الْهِدَايَةُ لَا تَسْتَلْزِمُ الْهُدَى التَّامَّ فَإِنَّهَا سَبَبٌ وَشَرْطٌ لَا مُوجِبٌ، وَلِهَذَا يَنْتَفِي الْهُدَى مَعَهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧] أَيْ: بَيَّنَّا لَهُمْ وَأَرْشَدْنَاهُمْ وَدَلَلْنَاهُمْ فَلَمْ يَهْتَدُوا. وَمِنْهَا قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى:٥٢].

الثَّالِثُ: هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالْإِلْهَامِ، وَهِيَ الْهِدَايَةُ الْمُسْتَلْزِمَةُ لِلِاهْتِدَاءِ فَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [النحل:٩٣]، وَفِي قوله تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل:٣٧]، وَفِي قَوْلِهِ ﷺ: «**مَنْ يَهْدِي اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ**»، وَفِي قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص]، فَنَفَى عَنْهُ هَذِهِ الْهِدَايَةَ وَأَثْبَتَ لَهُ هِدَايَةَ الدَّعْوَةِ وَالْبَيَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى:٥٢].

الرَّابِعُ: غَايَةُ هَذِهِ الْهِدَايَةِ وَهِيَ الْهِدَايَةُ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ إِذَا سِيقَ أَهْلُهُمَا إِلَيْهِمَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾ [يونس:٩]، وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ۖ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ ﴾ [الأعراف:٤٣]، وَقَالَ فِي حَقِّ أَهْلِ النَّارِ: ﴿ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات:٢٣][1]. اهـ.

فالإنسان يسأل الله الهداية ومما يدل على أهمية سؤالها أن الله عَزَّوَجَلَّ افترض علينا سؤاله إياها في كل ركعة. ووصى النبي ﷺ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يسأل الله الهداية والسداد، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُلِ: اللهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ، بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ، سَدَادَ السَّهْمِ**»[2].

وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي قُنُوتِ الْوَتْرِ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ**»[3].

---

(١) «بَدَائِعُ الْفَوَائِدِ» (٢/ ٣٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٥).
(٣) أخرجه أحمد (١٧١٨).

وكان من دعاءه ﷺ سؤال الهدى والتقى كما في حديث ابنِ مسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**»(١).

وكم دعا لأُناس بها كأم أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْبَى عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ**» فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ، قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا، فَفَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَبْشِرْ قَدِ اسْتَجَابَ اللهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا** - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ - **وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمِ الْمُؤْمِنِينَ**» فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي(٢).

ودعا لدوس ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ دَوْسًا قَدْ هَلَكَتْ عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ**»(٣).

فالهداية يحتاجها الإنسان في جميع لحظاته وسكناته وإذا خُذل الإنسان منها خُذل، نسأل الله السلامة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، ويقرأ بالزاي والسين، والصراط قال في بيانه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلَا تَكُونُ الطَّرِيقُ صِرَاطًا حَتَّى تَتَضَمَّنَ خَمْسَةَ أُمُورٍ: الِاسْتِقَامَةَ، وَالْإِيصَالَ إِلَى الْمَقْصُودِ، وَالْقُرْبَ، وَسَعَتَهُ لِلْمَارِّينَ عَلَيْهِ، وَتَعَيُّنَهُ طَرِيقًا لِلْمَقْصُودِ، وَلَا يَخْفَى تَضَمُّنُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الْخَمْسَةِ. فَوَصْفُهُ بِالِاسْتِقَامَةِ يَتَضَمَّنُ قُرْبَهُ، لِأَنَّ الْخَطَّ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ أَقْرَبُ خَطٍّ فَاصِلٍ بَيْنَ نُقْطَتَيْنِ، وَكُلَّمَا تَعَوَّجَ طَالَ وَبَعُدَ، وَاسْتِقَامَتُهُ تَتَضَمَّنُ إِيصَالَهُ إِلَى الْمَقْصُودِ،

---

(١) رواهُ مُسْلِمٌ (٢٧٢١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩١).
(٣) أخرجه البخاري (٤٣٩٢)، ومسلم (٢٥٢٤).

وَنَصْبُهُ لِجَمِيعِ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ يَسْتَلْزِمُ سَعَتَهُ، وَإِضَافَتُهُ إِلَى الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ وَوَصْفُهُ بِمُخَالَفَةِ صِرَاطِ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ يَسْتَلْزِمُ تَعَيُّنَهُ طَرِيقًا(١). اهـ.

والصراط المستقيم هو الإسلام كما فسره النبي ﷺ، فعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ** – يا عبد الله – **فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ** - ثم بيَّن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا المثل العظيم، قال: - «**وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقُ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ**»(٢).

وهذا الصراط المعنوي الذي من استقام عليه، سَلِمَ على الصراط الحسي؛ لأن هناك صراط يوم القيامة وهو الجسر الممدود على متن جهنم نعوذ بالله من شرِّها فمن سار على هذا الصراط وسلك السبيل الذي افترضه الله عَزَّوَجَلَّ على عباده سَهُل عليه المرور على ذلك الصراط، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «**ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ. وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «**دَحْضٌ مَزِلَّةٌ. فِيهِ خَطَاطِيفُ، وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ. تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ. فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**»(٣).

فعلى قدر الاستقامة على الصراط في الدنيا تكون الاستقامة على الصراط الحسي في الآخرة، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، فَقَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ**» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣](٤).

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣).

(٢) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٧٦٣٤)، والترمذي في «جامعه» (٢٨٥٩)، وغيرهما.

(٣) متفق عليه، البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١١).

وفي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام] فكل ما تضمنته هذه الآيات من صراط الله تعالى.

وفيها دليل على وجوب التمسك بسنة رسول الله ﷺ فهي دين الله عَزَّوَجَلَّ الحق، ولا سبيل للعبادة كما يجب إلا بسلوكها فأوجب الله طاعة رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾ [الحشر:٧]، ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران]، وحذَّر من مخالفته وسلب الإيمان ممَّن لم يرض بحكمه فقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥]، وجعل التأسي به علامة إرادته: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١]، وقطع الخِيَرَة مع خِيَرَته فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾ [الأحزاب:٣٦]. وقرن طاعته ﷺ بطاعته فقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء:٨٠]، ومن خالف رسول الله ﷺ مع ادِّعائه لمحبَّة الله كان كاذبًا في دعواه قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران:٣١]، وجعل رحمته الواسعة لمتَّبع ملَّته فقال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى

رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف:١٥٨]، وأخبر أنَّ الجنّة لأهل طاعته والنّار لأهل معصيته، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٤]، وكفى الله عَزَّوَجَلَّ رسوله ومن اتَّبعه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال:٦٤]، وأوجب الإيمان برسول الله ﷺ وقرنه بالإيمان بنفسه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦]، وابتلى الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بطاعته وفرَّق بها بين أهل ولايته وأهل معصيته قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧].

وقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: أن هذا الصراط الذي يسأل الهداية عليه وإليه هو صراط المنعم عليهم، والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩]، فأنت حين تقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، تقول: اللّهم اجعلني على طريق من أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليهم بالهداية، هداية التوفيق والتسديد، وأنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليهم بالاستقامة على دينه وعلى شرعه، ومعنى ذلك أن المنعم عليهم هم صفوة البشرية وأعلاهم منزلة الأنبياء والمرسلين، حيث اصطفاهم الله بالوحي المبين وجعلهم هداة إلى طريقه القويم وإلى جنات النعيم.

ويليهم في الرتبة الصديقون وسموا بذلك لصدقهم وتصديقهم ظاهرًا وباطنًا وأعلاهم أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويليهم الشهداء وهم أصناف وأعلاهم منزلة من قتل لإعلاء كلمة الله تعالى، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»(١).

ثم يليهم الصالحون بأصنافهم.

وفي الآية أنه يجب على العبد أن يكون مكثرًا لسواد أهل الحق مبتعدًا عن أهل الباطل.

ثم قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي: لا تجعلني مع هؤلاء وفي هذا تمييز لطريق أهل الحق والاستقامة، وطريق أهل الضلال والخيانة. والمغضوب عليهم: هم اليهود، والضالون: هم النصارى، وقد جاء مفسرًا في بعض الأحاديث فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضُلاَّلٌ**»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد دل كتاب الله على معنى هذا الحديث، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠]، والضمير عائد إلى اليهود، والخطاب معهم كما دل عليه سياق الكلام.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة:١٤]، وهم المنافقون الذين تولوا اليهود باتفاق أهل التفسير، وسياق الآية يدل عليه، وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٢] وذكر في آل عمران، قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهذا بيان أن اليهود مغضوب عليهم.

وقال في النصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣] إلى قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٧]. وهذا خطاب للنصارى كما دل عليه السياق، ولهذا نهاهم عن الغلو، وهو مجاوزة الحد، كما نهاهم عنه في قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى

---

(١) متفق عليه، البخاري (٢٨٢٩)، ومسلم (١٩١٤).

(٢) رواه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٥٣)، وابن جرير (١/١٨٦، ١٩٤)، وابن أبي حاتم (١/٣١)، وله شواهد.

﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ [النساء:١٧١] الآية. واليهود مقصرون عن الحق، والنصارى غالون فيه(١). اهـ.

وعند التحقيق كلهم ضالٌ، وكلهم مغضوبٌ عليه، لكن الغضب في حق اليهود أظهر لأنهم علموا ولم يعملوا، والضَّلال في حق النصارى أظهر لأنهم جهلوا وعملوا، ولهذا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ النَّصَارَى، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ الْيَهُودِ، لأنَّ النصارى عبدوا بغير علم واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه(٢). اهـ.

ففي السورة ردٌّ على أصحاب وحدة الأديان الذين يزعمون أن هذه الأديان سماوية وأن هذه الأديان متفقة وأن هذه الأديان كذا وكذا.

فالله عَزَّوَجَلَّ قد ذمّ اليهود وذمّ النصارى وأخبر أن طريقهم غير مرضي وغير سوي.

فمن هنا تعرف أن الله تعالى قسم الناس في هذه السورة إلى ثلاثة أقسام:

- **الأول:** المنعم عليهم.
- **الثاني:** المغضوب عليهم.
- **والثالث:** الضالون.

ومن فائدة معرفة هذا التقسيم ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن المعاني التي تضمنتها هذه السورة، قال: فَصْلٌ فِي بَيَانِ تَضَمُّنِهَا لِلرَّدِّ عَلَى الرَّافِضَةِ، وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة:٦] إِلَى آخِرِهَا.

وَوَجْهُ تَضَمُّنِهِ إِبْطَالَ قَوْلِهِمْ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَسَّمَ النَّاسَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: مُنْعَمٌ عَلَيْهِمْ: وَهُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَاتَّبَعُوهُ، وَمَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ: وَهُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَرَفَضُوهُ، وَضَالُّونَ: وَهُمُ الَّذِينَ جَهِلُوهُ فَأَخْطَئُوهُ.

فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَعْرَفَ لِلْحَقِّ، وَأَتْبَعَ لَهُ كَانَ أَوْلَى بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ هُمْ أَوْلَى بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الرَّوَافِضِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ جَهِلُوا الْحَقَّ وَعَرَفَهُ الرَّوَافِضُ، أَوْ رَفَضُوهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ الرَّوَافِضُ.

ثُمَّ إِنَّا رَأَيْنَا آثَارَ الْفَرِيقَيْنِ تَدُلُّ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ مِنْهُمَا، فَرَأَيْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَحُوا

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٧).

(٢) قاله ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٤).

بِلَادَ الْكُفْرِ، وَقَلَبُوهَا بِلَادَ إِسْلَامٍ، وَفَتَحُوا الْقُلُوبَ بِالْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ وَالْهُدَى، فَآثَارُهُمْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَرَأَيْنَا الرَّافِضَةَ بِالْعَكْسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَإِنَّهُ قَطُّ مَا قَامَ لِلْمُسْلِمِينَ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَّا كَانُوا أَعْوَانَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَكَمْ جَرُّوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنْ بَلِيَّةٍ؟ وَهَلْ عَاثَتْ سُيُوفُ الْمُشْرِكِينَ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ مِنْ عَسْكَرِ هُولَاكُو وَذَوِيهِ مِنَ التَّتَارِ إِلَّا مِنْ تَحْتِ رُءُوسِهِمْ؟ وَهَلْ عُطِّلَتِ الْمَسَاجِدُ، وَحُرِّقَتِ الْمَصَاحِفُ، وَقُتِلَ سَرَوَاتُ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَاؤُهُمْ وَعُبَّادُهُمْ وَخَلِيفَتُهُمْ، إِلَّا بِسَبَبِهِمْ وَمِنْ جَرَّائِهِمْ؟ وَمُظَاهَرَتُهُمْ لِلْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَى مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَآثَارُهُمْ فِي الدِّينِ مَعْلُومَةٌ.

فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؟ وَأَيُّهُمْ أَحَقُّ بِالْغَضَبِ وَالضَّلَالِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟

وَهَذَا فَسَّرَ السَّلَفُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَأَهْلَهُ: بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهُوَ كَمَا فَسَّرُوهُ، فَإِنَّهُ صِرَاطُهُمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ عَيْنُ صِرَاطِ نَبِيِّهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَغَضِبَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَحُكِمَ لِأَعْدَائِهِمْ بِالضَّلَالِ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ رَفِيعٌ الرِّيَاحِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَهُمَا مِنْ أَجَلِّ التَّابِعِينَ: «الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَاهُ»، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]: «هُمْ آلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»، وَهَذَا حَقٌّ، فَإِنَّ آلَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ عَلَى طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ، وَمُوَالَاةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَثَنَاؤُهُمْ عَلَيْهِمَا، وَمُحَارَبَةُ مَنْ حَارَبَا، وَمُسَالَمَةُ مَنْ سَالَمَا مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْأُمَّةِ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ هُمْ أَتْبَاعُهُ، وَالْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ هُمُ الْخَارِجُونَ عَنِ اتِّبَاعِهِ، وَأَتْبَعُ الْأُمَّةِ لَهُ وَأَطْوَعُهُمْ أَصْحَابُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ، وَأَتْبَعُ الصَّحَابَةِ لَهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَشَدُّ الْأُمَّةِ مُخَالَفَةً لَهُ هُمُ الرَّافِضَةُ، فَخِلَافُهُمْ لَهُ مَعْلُومٌ عِنْدَ جَمِيعِ فِرَقِ الْأُمَّةِ، وَلِهَذَا يُبْغِضُونَ السُّنَّةَ وَأَهْلَهَا، وَيُعَادُونَهَا وَيُعَادُونَ أَهْلَهَا، فَهُمْ أَعْدَاءُ سُنَّتِهِ ﷺ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَتْبَاعُهُ مِنْ بَنِيهِمْ أَكْمَلُ مِيرَاثًا؟ بَلْ هُمْ وَرَثَتُهُ حَقًّا.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ طَرِيقُ أَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَطَرِيقُ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ طَرِيقُ الرَّافِضَةِ.

وَبِهَذِهِ الطَّرِيقِ بِعَيْنِهَا يُرَدُّ عَلَى الْخَوَارِجِ، فَإِنَّ مُعَادَاتَهُمُ الصَّحَابَةَ مَعْرُوفَةٌ[1]. اهـ.

وتضمنت هذه السورة كما تقدم الكلام على التوحيد، والإشارة إلى اليوم الأخر، والإشارة

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٣).

إلى القدر، بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفيها ترغيبٌ، لقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وهكذا لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وفيها ترهيبٌ، في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وأيضًا مما يدل عليه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فإذ لم يهتدِّ الانسان فهذا ترهيب له وأنه لا خير فيه.

وفيها أحكام أُخر ذكرها أهل العلم بتوسع لاسيما ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين» وقد ذكرنا في كتابنا «فتح الكريم في تفسير السبع المثاني والقرآن العظيم» شيئًا كثيرًا بحمد الله من ذلك.

وأختم بما قاله ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في «تفسيره»، حيث قال:

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ، عَلَى حَمْدِ اللَّهِ وَتَمْجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمُسْتَلْزِمَةِ لِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا، وَعَلَى ذِكْرِ الْمَعَادِ وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، وَعَلَى إِرْشَادِهِ عَبِيدَهُ إِلَى سُؤَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ، وَالتَّبَرُّؤِ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، وَإِلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَتَوْحِيدِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مُمَاثِلٌ، وَإِلَى سُؤَالِهِمْ إِيَّاهُ الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ، وَتَثْبِيتَهُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُفْضِيَ بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى جَوَازِ الصِّرَاطِ الْحِسِّيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ فِي جِوَارِ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ.

وَاشْتَمَلَتْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكِ الْبَاطِلِ؛ لِئَلَّا يُحْشَرُوا مَعَ سَالِكِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمُ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ. وَمَا أَحْسَنَ مَا جَاءَ إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] وَحَذْفُ الْفَاعِلِ فِي الْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] وَإِنْ كَانَ هُوَ الْفَاعِلَ لِذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآية [المجادلة:١٤]، وَكَذَلِكَ إِسْنَادُ الضَّلَالِ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَضَلَّهُمْ بِقَدَرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الْكَهْفِ:١٧]. وَقَالَ: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الْأَعْرَافِ:١٨٦]. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْهِدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ، لَا كَمَا تَقُولُهُ الْفِرْقَةُ الْقَدَرِيَّةُ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ، مِنْ أَنَّ الْعِبَادَ هُمُ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ وَيَفْعَلُونَهُ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَى بِدْعَتِهِمْ بِمُتَشَابِهٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَتْرُكُونَ ما يكون فيه صريحا فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الضَّلَالِ

وَالْغَيِّ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ**». يَعْنِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عِمْرَانَ:٧]، فَلَيْسَ - بِحَمْدِ اللَّهِ - لِمُبْتَدِعٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ لِيَفْصِلَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ مُفَرِّقًا بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَلَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(١).

والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/١٤٣).

مكية — الجزء الثلاثون سورة النبأ — آياتها ٤٠

سُورَةُ النَّبَإِ، سُورةٌ مَكيِّةٌ، والغالب على السور المكية أنها تقرر المبدأ والمعاد، لما تقدم من كفر الناس بذلك، ومن كفر بالمعاد لم ينفع معه وعظ ولا إرشاد، وفيها من آيات الله الظاهرة ومن حججه القاهرة ما تبين هذا الأمر، وتجليها وتقوم بها الحجة الرسالية على الناس، وفي هذه السور بيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ على ذلك وسهولة الأمر بالنسبة إليه، وما فيها من تقرير الناس بما ينظرونه من الآيات الكونية على صدق الآيات الشرعية، وقد تضمنت هذه السورة ستة محاور:

- **الأول:** سؤال الكفار وتشككهم في يوم القيامة
- **الثاني:** ذكر آيات الله الدالة على قدرته وقوته، وغير ذلك من خصائص ربوبيته.
- **الثالث:** إثبات يوم الفصل، وهو يوم القيامة ويوم المعاد
- **الرابع:** بيان حال المشركين والكافرين في ذلك اليوم.
- **الخامس:** بيان حال المؤمنين وسعة فضل الله عليهم في ذلك اليوم.
- **السادس:** بيان شدة ذلك اليوم وما يقع فيه، من مجيء الملائكة، وما يلحق الناس على ما يأتي بيانه إن شاء الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾، أي: أن تساءلهم عن النبأ العظيم، قيل القرآن، وقيل: يوم القيامة وهو الصواب، فإنهم يتساءلون عن الساعة؛ لأنهم كانوا يُكذبون بها، وقد وردت عدة أسئلة في ذلك، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝٤٢﴾ [النازعات:٤٢]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٧﴾ [الأعراف:١٨٧]، فهو من أعظم الأنباء التي تحصل على الناس إذ تتغير بها الأحوال، فتزول الحياة الدنيا ويشرع الناس في الحياة الآخرة، نعيم أو عذاب أبدي.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بسبب شكهم وتكذيبهم للقرآن والسنة، ولو آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا ونبيًا، وآمنوا بكل ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به لزال عنهم هذا الاختلاف؛ إذ أن منشأ الاختلاف هو ترك الدليل كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، أي: حقًا سيعلمون هذا اليوم وما فيه ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ توكيدًا لمعرفتهم بذلك اليوم، ولكن متى؟ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، وكما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا قدرته العظيمة وأنه القوي الذي لا يَعجز، والقاهر الذي لا يُغلب: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ ألم نجعل لكم يا معاشر الكفار الأرض مبسوطة ممهدة، تبنون فيها مساكنكم وتسلكونها لقضاء حوائجكم. وهذه نعمة عظيمة، فكم من جبال شاهقة لا يستطيع الإنسان أن يطأ عليها أو يتسلقها، ولو كان هذا هو الحال لشق على الناس، ولكن جعل الله الأرض ممهدة تارة أودية، وتارة وهاد، وتارة تلال، وغير ذلك، ممهدة للمشي، والزراعة، والسكنى.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ جعل فيها جبالًا راسيات تثبتها؛ حتى لا تميد بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل:١٥].

ونصب الجبال من آيات الله عَزَّوَجَلَّ الباهرات، ودلائله العظيمات منها بيض وغرابيب سود، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر:٢٧]، فتنوعت حجارتها وألوانها.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أَيْ: أصنافًا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ [الواقعة:٧] جعل لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها ذكرًا وأنثى، جعل بينهم مودة ورحمة وجعل بينهم التناكح والتناسل؛ لقضاء الشهوة وحصول الإربة.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أَيْ: راحة وسكون، وهذا من دلائل قدرة الله، فإن الإنسان إذا كان في حركة دائمة دائبة لحقه الفتور، وربما ضعفت قواه، وهزل جسمه، ولكن جعل الله له النوم؛ للدعة والراحة والسكون: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧٢-٧٣].

وإذا عُدِم النوم من الإنسان دل ذلك على مرض، وعلة حاصلة به، ويذكرون أن النوم الطبيعي ست ساعات، وللطفل أغلب اليوم، وكلما تقادم في العمر يقل نومه، وللنوم فوائد منها:

١- ذهاب الهم والحزن، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال:١١]، فكم من إنسان إذا حصلت به مصيبة وحصل على شيءٍ من النوم يقوم وقد انكسرت مصيبته وهدأ قلبه.

٢- راحة البدن، إلى غير ذلك من المصالح، حتى أن الله جعله من الآيات الباهرات، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم:٢٣].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يغطي البسيطة، ويلبس الناس فيتغطون به عن ضوء النهار، ويتغطون به في كثير من حوائجهم، فيمشي فيه المتخفي ويرتاح فيه المتعب.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ سبب لتحصيل الرزق، ويخرج الناس من بيوتهم لطلب أرزاقهم وقضاء حوائجهم، والليل والنهار آيتان عظيمتان يدلان على قدرة الملك القهار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ لكل من الليل والنهار سلطانًا، فالشمس سلطان النهار الظاهر، والقمر سلطان الليل الباهر.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي: رفع الله عَزَّوَجَلَّ فوق الأرض سبع سماوات شديدة البناء بغير عمد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧-٢٨].

وقد جاء في الأثر عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ، وَاللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعَرْشِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ(١).

(١) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (١٢٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥٢).

ومع ذلك تكون هذه السماوات العظيمات في قبضة الله يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، ويلحقها التشقق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق:١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾ [الفرقان:٢٥-٢٦].

وزين سبحانه هذه السماوات بمصابيح، وجعلها علامات يُهتدى بها، ورجومًا للشياطين، وفي هذا رد على أصحاب الهيئة الجديدة الذي يقولون بتوسع العالم، وهو ما يسمى نظرية الانفجار العظيم، ويستدلون بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات:٤٧]، وهذا استدلال فاسد، فإن تفسير السلف يقضي على أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق السماوات والأرض واسعة، فإن أصحاب الهيئة لا يؤمنون بسماوات طباقًا، ولا بعرشٍ ولا كرسي.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي: خلق الشمس، ﴿سِرَاجًا﴾ أي: ذات نور، ﴿وَهَّاجًا﴾ أي: ذات حرارة، فلو كانت ذات نور بغير حرارة لربما لحق الناس الفساد في معائشهم وغير ذلك، ولو كانت ذات وهاج ولم تكن ذات نور للحق الناس كثير من البلاء، ولكن من حكمة الله جعلها سراجًا وهاجًا، فيستفيدون من نورها ويستفيدون من حرارتها، تنضج به الفواكه، وتنشف به المبللات، ويحصل به خير عظيم.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أنزل الله من المعصرات، قيل: السماوات، وقيل: الرياح، وقيل: السحاب وهو الصحيح، وسميت معصرات؛ لأنها تعصر بإذن الله عَزَّوَجَلَّ فينزل منها المطر، ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي: أنه ينزل متدافعًا قويًا، ومنه حديث النبي ﷺ: أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**الْعَجُّ، وَالثَّجُّ**»(١). الْعَجُّ: هو رفع الصوت بالتلبية والتكبير، وَالثَّجُّ: هو إنهار الدم.

ومنه ذلك الحديث: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي امْرَأَةٌ أُسْتَحَاضُ حَيْضَةً كَثِيرَةً شَدِيدَةً، فَمَا تَرَى فِيهَا قَدْ مَنَعَتْنِي الصَّلَاةَ وَالصَّوْمَ؟ فَقَالَ: «**أَنْعَتُ لَكِ الْكُرْسُفَ؛ فَإِنَّهُ يُذْهِبُ الدَّمَ**». قَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «**فَاتَّخِذِي ثَوْبًا**»، فَقَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّمَا أَثُجُّ ثَجًّا(٢).

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً﴾ عظيمًا نافعًا: ﴿ثَجَّاجًا﴾ كثيرًا، ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ السبب في إنزال هذا الماء ﴿حَبًّا﴾ من الذرة والشعير والقمح والرز وغير ذلك، ﴿وَنَبَاتًا﴾ من الفواكه والأعلاف، ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ جمع جنة، وهو ما يجن أَيْ: يغطي بشجره، ﴿أَلْفَافًا﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٩٢٤)، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٧)، عَنْ حَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يلتف بعضها على بعض لكثرة أشجارها، فهي حدائق غلبًا يغطي بعضها بعضًا؛ لكثرة أشجارها وطولها وعظيم خلقتها.

وهذه آيات باهرات تدل على عظمة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنه ينزل المطر على الأرض القاحلة فإذا بها تنبت النبات وتظهر الزهور وتنمو الأشجار بعد أن كانت ميتًا، وكل هذا يدلل به الله عَزَّوَجَلَّ على قدرته في إحياء الناس بعد إماتتهم.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن يوم القيامة: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: يوم القيامة الذي يفصل الله عَزَّوَجَلَّ فيه بين العباد ﴿كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ له وقت معلوم لا يتأخر عنه ولا يتقدم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل:٦١]، وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١].

ثم بين عظم هذا اليوم بقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

والصور: قرن عظيم ينفخ فيه إسرافيل نفختين:

الأولى: لقبض أرواح المخلوقات، **والثانية**: لإحيائها، كما قال: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨]، يصعقون كصعقة نفس واحدة، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ: «**أَبَيْتُ وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ، إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الخَلْقُ**»(١)، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ**»(٢)، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «الصحيحين» قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ

(١) متفق عليه، البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٣١).

رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، قَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى العَالَمِينَ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى العَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ اليَهُودِيِّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ**»(١).

﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ أي: جماعات، تتدافع الرجال والنساء. حفاة عراة غرلًا بهمًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «**الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ**»(٢)، ويُكرم المؤمن ويُساق الكافر، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم:٨٥-٨٦].

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ وفي قراءة ﴿ وَفُتِّحَتِ ﴾، هذه السماء التي تُشَاهَدُ الآن مغلقة محكمة تتفتح وتصير أبوابًا وطرقًا، تتنزل منها الملائكة حين يُحشر الناس إلى المحشر، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٥]، ومبدأ ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن:٣٧].

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ ﴾ فهذه الجبال المرتفعة تسير يوم القيامة وتذهب حتى لا يبقى لها أثر، فيوم القيامة يجعلها الله كالعهن المنفوش كما قال: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة:٥]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه:١٠٥-١٠٧]، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل:٨٨].

﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ فجعل الله عَزَّوَجَلَّ للجبال حالات:

- الأولى: أنها مثبتة للأرض.
- الثانية: أنها تتحرك وتمر كمر السحاب.
- الثالثة: أنها تتطاير وتكون كالعهن المنفوش.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

الرابعة: أنهم يرونها كالسراب، كما في هذه الآية: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ يرون جبالًا وليست بجبال وإنما أثرها، ثم: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه:١٠٧]، وفي حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لِأَحَدٍ**»(١).

ثم قال عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن النار وما فيها من أهوال أعاذنا الله عَزَّوَجَلَّ منها: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار، ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي: مرصدة للكافرين لا سبيل إلى الخلاص منها، وقيل مرصدة في طريق جميع الناس، لا يصل المؤمنون إلى الجنة إلا بالمرور عليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم:٧١-٧٢].

وهذا وعيد عظيم يهدد الله به المشركين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ يا معاشر المشركين ﴿كَانَتْ﴾ أي: ما زالت ﴿مِرْصَادًا﴾ مرصدة لكم تترصدكم ولا سبيل إلى الخلاص منها ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك:٧].

﴿لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ للمجاوزين لأمر الله، طغوا وتجاوزوا الأمر فلم يفعلوه، والنهي فارتكبوه، وأعظم ما وقعوا فيه الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان:١٣].

﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ يلبثون فيها مددًا طويلة قيل بأن الحقب ثمانون سنة والسنة اثنى عشر شهرًا والشهر ثلاثون يومًا، وكل يوم بألف سنة مما تعدون والله أعلم.

واستدل بهذه الآية بعضهم على فناء النار، حيث زعم أنهم يلبثون أحقابًا ثم يخرجون منها، وهذا غير صحيح؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة:١٦٧].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦﴾ [فاطر:٣٦]، وإنما المعنى هنا أنهم يمكثون مكثًا طويلًا ممتدا، والعرب قد تأتي بالكلمة التي ظاهرها الانقطاع وتريد بها الاستمرار.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: لا يطعمون أو يجدون في هذه النار بردًا، برودة ماء وجسم ولا برودة جو، وقيل: البرد هنا النوم على تفسير لبعض أهل العلم لا يذوقون فيها نومًا، ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ أي: لا يجدون ماء سائغًا يذهب عطشهم، أو عصيرًا نافعًا يروي ضمئهم ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ وهو الذي انتهى حره، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

وقوله: ﴿وَغَسَّاقًا﴾ أَيْ: الذي قد انتهى برده، وهو الزمهرير، وكأنه من المقابلة، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ حارًا، ﴿وَغَسَّاقًا﴾ باردًا، وقيل: الغساق هو ما يسيل من جلود أهل النار، فيشربونه عذابًا أليمًا، والله المستعان.

﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ سبب الذي هم فيه أن الله يجازيهم بأعمالهم الفاسدة كما تدين تدان: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: السبب الذي أوردهم إلى هذا العذاب وجزوا به ﴿كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ كانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور، ولا يؤمنون بأن الله يبعث العباد ويجازيهم على أعمالهم، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ قد بين ذلك على ألسنة رسله وفي محكم كتبه التي أنزلها.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الشرعية التي أوحاها إلى أنبيائهم ورسلهم، وربما الكونية حيث زعموا أن معه معينًا أو ظهيرًا أو نصيرًا، ﴿كِذَّابًا﴾ أي: تكذيبًا، يعني أنهم تمادوا في التكذيب والمغالطة والإيهام.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ وهذا عام في كل عمل دقَّ أم جلَّ، صغر أم كبر، قولي أم فعلي، ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ حفظناه مكتوبًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٨٠]، فالله عَزَّوَجَلَّ يعلم ما هم عليه، زد على ذلك أن الملائكة تكتب أعمال العباد، وليس هذا فحسب، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور:٢٤].

فيحفظ عمل الإنسان بأمور:

الأول: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية.

الثاني: الملائكة الذين سطروا تلك الأعمال والأقوال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨].

الثالث: شهادة الجوارح عليهم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟**» قَالُوا: لَا، قَالَ: «**فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟**» قَالُوا: لَا، قَالَ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ**

وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ»(١).

الرابع: إخبار الأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة:٤-٥].

﴿فَذُوقُوا﴾ هذا العذاب الشديد، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ لا رحمة لهم، مع أن الله هو الرحمن الرحيم، لكن قد قال عن نفسه: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾ [الأعراف:١٥٦]، بل يكبتهم بقوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون:١٠٨]، فنعوذ بالله من حال أهل النار.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ۝٣٥ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۝٣٦ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ۝٣٩ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ۝٤٠﴾

ولما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ حال الكافرين في الآخرة ثنَّى بحال المؤمنين جمعًا بين النذارة والبشارة، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥]، والقرآن مليء من هذا ترغيب، وترهيب، فتارة يذكر الله أحوال الكافرين ثم يثنيها بحال المؤمنين، وتارة يذكر الله حال المؤمنين ثم يثنيها بحال الكافرين، وبضدها تتبين الأشياء.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨).

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، والمتقون: هم الذين جعلوا بينهم وبين عقاب الله عَزَّوَجَلَّ وقاية بفعل المأمور وترك المحظور، وهم المذكورون في أول سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة:٢-٥]، والمذكورون في سورة آل عمران: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾ [آل عمران:١٣٣- ١٣٥].

﴿مَفَازًا﴾ لهم فوزًا، وقيل: متنزهًا، ولا يمنع أن لهم فوزًا عند الله ولهم متنزه، يكونون فيه تذهب فيه أحزانهم، وتهدأ فيه أرواحهم، وتسكن فيه أجسامهم، زد على ذلك أن الله ينعمهم بأنواع النعيم المقيم الذي لا ينقطع كما قال تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ [الواقعة:٣٣].

﴿حَدَائِقَ﴾ هذا المتنزه الذي لهم، فيه حدائق جمع حديقة، وهي قطعة من الأرض ذات ماء، فيه أنواع الأشجار، والثمار، والزهور، والروائح الطيبة، وغير ذلك، ﴿وَأَعْنَابًا﴾ وإن كانت الأعناب من ضمن الحدائق إلا أن الله ذكرها؛ لعظيم جمالها وطعمها ورغبة الناس فيها.

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ وفي هذه الحدائق، والمتنزهات التي أعدها الله للمؤمنين في جنات النعيم ﴿كَوَاعِبَ﴾ نساءٌ نواهد لم تتكسر أثدائهن؛ لطول السنين أو لكثرة الأولاد. ﴿أَتْرَابًا﴾ متقاربات في السن، قيل ثلاث وثلاثين سنة، وهذا من أجمل ما يتبعل به الرجل فليست بالصغيرة التي لا تشتهى، ولا بالكبيرة التي قد زهدت في ذلك، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف هذه الكواعب ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ [الواقعة:٣٥-٣٧]، فهن أبكارًا على أي حال يأتيها زوجها، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قيل: يا رسول الله، أنفضي إلى نسائنا في الجنة، قال: «**إي والذي نفسي بيده، إن الرجل ليفضي في اليوم الواحد إلى مائة عذراء**»(١).

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ يشربون فيها خمرًا لا لغو فيه ولا تأثيم، ويشربون من نعيمها وعيونها وأنهارها في أكواس تتدافق مليئة، لا يعتريها نقص ولا تغير حال، وإنما أحسن الملبس

(١) أخرجه البزار (١٠٠٧٢)، والحديث في «الصحيح المسند» (١٣٨٤) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

والمطعم والمشرب، وحال الجنة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:١٥].

وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ هذا الشراب في سورة الدهر في عدة مواطن: قال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان:١٨]، أي: أنهم يشربون شرابًا مريئًا لا ينغصون به، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان:٥]، وقوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ [الإنسان:١٧]، إلى غير ذلك.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة، ﴿لَغْوًا﴾ كلامًا سيئًا ولا أذىً، ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ أي: لا يكذب بعضهم بعضًا، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]، وكقوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ [الغاشية:١١].

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أن هذا النعيم جزاءً للأعمال الصالحة التي بادر بها المؤمنون في الدنيا من ربك الحافظ لك ﴿عَطَآءً﴾ يعطيك، ﴿حِسَابًا﴾ واسعًا لا نقص فيه، ولا قلة، ولا خشية انقطاع.

ثم بين الله عَزَّوَجَلَّ كمال عظمته فقال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: أن هذا الرب الذي أعطاك هذا العطاء الواسع العظيم الدال على كرمه هو رب السماوات والأرض وما بينهما، وهو الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد جاءت قراءة: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنُ﴾[1] فجعلت الجملة مستأنفة، وكلا المعنيين صواب، فالجنة جزاء من رب السماوات والأرض الرحمن، وكذلك رب السماوات والأرض وما بينهما هو الرحمن.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يستطيع أحدٌ مخاطبته إلا بإذنه.

﴿يَوْمَ﴾ أي: هذا في يوم القيامة، ﴿يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ وهو جبريل، وقيل: أرواح بني آدم، وقيل: غير ذلك، والقول بأنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أصح، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تكون ﴿صَفًّا﴾ محيطًا بالناس، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: لا يتكلم الناس، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ من أذن له أن يتكلم،

---

(١) أنظر «تفسير البغوي» (٣/٣١٦).

فَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ**»(١).

﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ حقًا؛ لأن: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي سيكون ولا محالة، وفي قول النبي ﷺ: «**وَالسَّاعَةُ حَقٌّ**»(٢)، فلا يجوز أن يتكلم فيه بالباطل، إنما يتكلم بالباطل في هذه الدنيا التي جمعت حقًا وباطلًا، وضلالًا وهدى، وإيمانًا وكفرًا، أما ذلك اليوم فيوم حقٍ وصدقٍ، فلا يستطيع أن يتكلم أحد إلا بالحق، وإن تكلم بغير ذلك فضح على رؤوس الأشهاد.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي: في الدنيا ففي يوم القيامة لا يستطيع أحد أن يقدم أو يؤخر، ﴿فَمَن شَآءَ﴾ يا معاشر المكلفين من الجن والإنس ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ سبيلًا وأوبًا ورجوعًا، كما قال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾: خوفناكم بهذه الآيات البينات والدلائل الواضحات التي أنزلها على رسوله ﷺ، ﴿عَذَابًا﴾: موجعًا، ﴿قَرِيبًا﴾: لا يتأخر ولا يتخلف، وما بين العبد وبينه إلا أن يموت، فقد كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ يَبْكِي حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**»(٣).

ويكون هذا العذاب القريب: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ الرجل والمرأة، والجني والإنسي، ينظر ما قدمت يداه ما قدم من الأعمال، وذكر اليدين؛ لأن كثيرًا من الأعمال يتعاطاها باليدين، والواقع أنه يجد كل الأعمال ما قدم فرجه ويداه، ورجلاه، ولسانه، وسمعه، وبصره، نسأل الله السلامة.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ كل إنسان ينظر أعماله كما في الحديث: «**فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ**»(٤).

وكما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

---

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦)، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) متفق عليه، البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩)، عَنْ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٧٦).
(٤) متفق عليه، البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ﴾ بلسان الحال أو المقال، وقيل: الكافر إبليس فيكون من العام الذي أريد به الخصوص وذلك أنه سخر من أصل خلقة آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ أي: أنه كان ترابًا ولم يخلق أصلًا، وقيل: المعنى لما يرى من أن الله عَزَّوَجَلَّ أحال الحيوانات إلى تراب بعد القضاء بينهم، يقول: يا ليتني كنت مثل هذه الحيوانات أصير ترابًا وأسلم من العذاب الأليم، والخزي العظيم، نسأل الله السلامة.

والحمد لله رب العالمين.

مكية الجزء الثلاثون سورة النازعات آياتها ٤٦

سُورَةُ النَّازِعَاتِ ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، وهي مقررة لما يذكر في السور المكية من البعث والمعاد، ونحو ذلك من القصص الذي قصه الله على محمد ﷺ؛ تثبيتا لأمره وتنويها لفضله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ هم الملائكة ينزعون أرواح الكفار، فيأخذونها من تحت كل شعرة وعصبة، فإذا ما قاربت من الخروج ردوها إلى مكانها، ثم ينزعونها بشدة وهكذا؛ لزيادة عذابه، فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْقَبْرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ: «**أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» ثَلَاثَ مِرَارٍ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ، صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى**» قَالَ: «**فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ** عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]، **فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنَ اللَّهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتَ وَاللَّهِ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، بَطِيئًا عَنْ**

مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللَّهَ، أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ هَذَا، فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، فَانْتَزَعُوا رُوحَهُ، كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الْكَثِيرُ الشُّعْبِ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ، وَتُنْزَعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ، إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ لَا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ، قَالُوا: رَبِّ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ عَبْدُكَ، قَالَ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتَ، وَيَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِهَوَانٍ مِنَ اللَّهِ، وَعَذَابٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِالشَّرِّ مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، سَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»(١).

وقيل: بأنه نزع القوس، وقيل: النجوم، وقيل غير ذلك، والمعنى الأول عليه الجماهير.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ قيل: الملائكة تنشط الأرواح، وقيل: المراد بها أرواح المؤمنين، فإنها تنشطها كما يفك وينشط العقال، وقد تقدم في حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيان ذلك.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ الملائكة، يسبحون في الآفاق بتصريف الأمور التي أوكلها الله عَزَّوَجَلَّ إليهم.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ أي: الملائكة يسابقون بنزول الوحي، وقيل: سابقوا إلى الطاعات، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم:٦]، وفي كل ما تقدم خلاف، ولكن الصحيح ما سبق.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ هم الملائكة إجماعًا، جعل الله إليهم تدبير شؤون العالم العلوي والسفلي، ولا يخرج عن تدبيرهم الذي أوكله الله إليهم شيء؛ وقد سخر الله لهم من القوى ما يقومون بما أوكل إليهم، وهذا القسم متعلق بالإخبار بيوم القيامة، وقيل: هو إخبار عن الملائكة الذين أوجب الله علينا الإيمان بهم، فالإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ

(١) أخرجه أحمد (١٨٦١٤).

بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، في آيات كثيرات.

وهم خلق عظيم، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ**»(١)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ رِجْلَاهُ فِي الْأَرْضِ وَعُنُقُهُ مَثْنِيَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ رَبَّنَا**» قَالَ: «**فَيَرُدُّ عَلَيْهِ مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا**»(٢)، وقد «**رَأَى النَّبِيُّ ﷺ جِبْرِيلَ، لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ**»، قد سد بعظم خلقه ما بين السماء والأرض(٣).

﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ أَيْ: النفخة الأولى حيث ترجف الأرض فيموت من فيها، ويهلك من عليها ﴿ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ النفخة الثانية في الصور التي يقع بها البعث والنشور ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يس:٥١]، يخرجون مسرعين إلى عرصات القيامة.

وقد جاء حديث من طريق عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، عَنِ الطُّفَيْلِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ**»(٤)، وابن عقيل ضعيف.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴾ أَيْ: قلوب الكفار يوم القيامة حين يخرجون من الأجداث سراعا، قلوبهم واجفة، ذابلة، خائفة؛ بسبب ما عاقرته من المعاصي في الدنيا والله المستعان.

﴿ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴾ مرفوعة إلى السماء، وأفئدتها هواء؛ لشدة الخوف والحال، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴿٧﴾ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴿٨﴾ ﴾ [القمر:٦-٨]، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴾ بعد أن أخبر الله عَزَّوَجَلَّ بما سيقع يوم القيامة يقول: هؤلاء

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، والحديث في «الصحيح المسند» (٢٤٨) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٨١٣) واللفظ له، والطبراني في «الأوسط» (٧٣٢٤).
(٣) متفق عليه، البخاري (٣٢٣٢، ٣٢٣٤، ٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٤، ١٧٧).
(٤) أخرجه أحمد (٢١٢٤١)، والترمذي (٢٤٥٧).

الذين تدعوهم يا محمد إلى الإسلام والإيمان بالبعث والنشور وينكرون البعث ويقولون متعجبين ومستنكرين لذلك: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ أَيْ: سنخرج من قبورنا؟! فالحافرة القبر.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ مرارًا أن الإعادة ليست بأصعب من البداءة: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان:٢٨].

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ وَقُرِئَ: «نَاخِرَةً»، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ: أَيْ بَالِيَةً. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَهُوَ الْعَظْمُ إِذَا بَلِيَ ودَخلت الرِّيحُ فِيهِ[1]. اهـ.

فيقولون أنبعث بعد أن نكون عظامًا جوفاء تسفها الريح، ليس فيها مخ، ولا رطوبة، ويسهل كسرها، كما جاء عَنْ خَبَّابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جِئْتُ العَاصَ بْنَ وَائِلٍ السَّهْمِيَّ أَتَقَاضَاهُ حَقًّا لِي عِنْدَهُ، فَقَالَ: لاَ أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَقُلْتُ: «لاَ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ»، قَالَ: وَإِنِّي لَمَيِّتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم:٧٧][2].

وجاء عَنِ الْمِقْدَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَخَذَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ عَظْمًا فَفَتَّهُ، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبٍ لَهُ: أَتَرَى اللَّهَ يُحْيِي هَذِهِ وَهِيَ رَمِيمٌ. وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾** [يس:٧٨]، **فَلَزِمَ الْحَقُّ بِمَنْكِبِهِ**»[3].

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أَيْ: إذا كان هذا الأمر سيقع فرجوعنا إليه سيكون حال الخسارة.

وفعلًا أنهم سيرجعون وأنهم خاسرون ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، خسارة ولا أكبر منها، خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر:١٥].

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا سهولة ما تعاظموه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أَيْ: فإنما هو أمر من الله لا يُثنى تأكيدًا لسهولته، فينفخ في الصور نفخة واحدة وإذا جميع المخلوقات قد قامت من موتها، ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥).

(٣) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٣/٣٨٠).

﴿قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٦٨] من القبور.

﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي: ظاهر الأرض، أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم:٤٨-٥٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه:١٠٧]، فإنما هي نفخة واحدة فإذا بالناس قد برزوا على ظاهر الأرض، وقيل: الساهرة جبل، وقيل: بيت المقدس، وقيل: الشام، لكن المعنى الأول الذي عليه جماهير العلماء.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ لمحمد ﷺ واعدًا له بالنصر والتمكين بما يقصه من قصص من سبقه من الأنبياء والمرسلين حيث مكنوا بعد ضعف: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ أَيْ: قد أتاك حديث موسى في سور كثيرات وآيات بينات أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن هذا النبي الكريم أنه أرسله إلى فرعون ذلك المجرم الأثيم، فحفظ الله موسى ونصره، وهذا دليل على حفظ الله وكلاءته لأنبيائه ورسله.

قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن إرساله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى فرعون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٣-٤٦]، فحفظه الله من فرعون، في صغره وكبره، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القصص:٧-٩].

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: بصوت عالي مسموع، قال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم:٥٢]، وبهذه الآية وغيرها يثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفة الكلام، وأنه يتكلم متى شاء، وكيف

شاء بما شاء بحرف وصوت، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١] وقد أخبر الله في آيات كثيرات عن هذا النداء وما قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه:١٤].

﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ بالواد المعظم، واسمه طوى، ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بالرسالة ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: تجبرًا، وتمردًا، وعنادًا تمادى في كبره وطغيانه، وظلمه، وجبروته سواء، في باب الألوهية حيث أدعى أنه الرب الإله، وفي باب الظلم حيث ذبح بني إسرائيل واستعبدهم وقهرهم.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في سورة طه: أنه لما قال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه:٢٥-٣٥]، فسأل الله عَزَّوَجَلَّ أسباب النصر والعزة، ومن أعظمها شرح الصدر؛ لأن الصدر إذا ضاق لم يَبِن بما فيه، وعجز الإنسان عن تحمل المشاق، ولم يكن من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا امتثال أمر الله ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ذهب، إلا أنه طلب أن يكون له وزير: أخ يسانده، ويعينه، ويستأنس به، فالإنسان وحده ليس بشيء.

تأبى الرِّماحُ إذا اجتمعن تكسرًا ❁❁❁ وإذا افترقن تكسرت آحادًا

والنبوة والرسالة شأنها عظيم، حيث يبعثهم الله إلى أقوام يخالفون في جميع الدين، فيُسفِّهون أحلامهم وآلهتهم، ويدعونهم إلى إفراد الله بالعبادة، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتَتْنِي رِسَالَةٌ مِنْ رَبِّي فَضِقْتُ بِهَا ذَرْعًا وَرَوَيْتُ أَنَّ النَّاسَ سَيُكَذِّبُونَنِي، فَقِيلَ لِي: لَتُفْعَلَنَّ أَوْ لَيُفْعَلَنَّ بِكَ**»(١).

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ اذهب الى فرعون فقل له: يا فرعون! هل لك في طريق الزكاة، تزكي نفسك بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وتوحيده، فتزكوا في الدنيا والآخرة فإن النفس إذا لم تزكَ بالتوحيد والطاعة ليست بشيء، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس:٩-١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى:١٤].

وبعث الله الرسل لهذا المقصد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩].

---

(١) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٧٦).

والزكاة هي فضل من الله على عباده، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢١].

﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أي: أدلك وأرشدك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ إلى الطريق الموصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فيقع منك الخشية والخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، فتبادر بالأعمال الصالحات والخشية تقع بالعلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، إذ أن الخشية خوف يشوبه تعظيم.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أَيْ: أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أرى فرعون آية تدل على صدقه، وقد دعاه بالمقال: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ ثم دعاه بالفعال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ وهي الحية المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء:٣٢-٣٣].

والسبب في أن الله عَزَّوَجَلَّ جعل هذه الآيات لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ أن قومَ فرعون كانوا يتعاطون السحر، فجاءتهم آية من جنس فعلهم، إلا أنها آية حقيقية وليست بتخيل ولا تمويه، وعند ذلك استكبر فرعون ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ رد هذه الآية، وعصى ربه، وتمرد على شرعه ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ كبرًا وعنادًا، حيث أرسل في المدائن حاشرين طالبًا أن يأتوه بكل سحار عليم، ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف:١١٣-١١٤]، ووعدهم أن يرفع شأنهم رشوة لهم من أجل أن يقفوا أمام الحق وأهله، فأبى الله عَزَّوَجَلَّ، وانظروا إلى هذا الوصف الدقيق ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ لما أعرض عن آيات الله عَزَّوَجَلَّ الشرعية وصفه الله كالمدبر الذي يجري، وهذا يحصل من كثير من الناس اللئام، إذا وقع عليه شيء وإذا به يولي ظهره ذلة وحقارة.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ أَيْ: جمع قومه، ونادى السحرة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه:٥٦-٦٠].

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ

مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]، وهذا القول منه كذب وزور؛ فإنه يعلم أنه مخلوق ضعيف يحتاج إلى الأكل والشرب والزوجة والحمام، ثم يزعم أنه الرب الأعلى الذي على عرشه استوى! تعالى الله عن هذا القول القبيح، فإن الرب الأعلى هو الله ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى:١]، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل:٢٠]، وقد ذكر العلماء: أن فرعون إنما قال هذه المقولة من باب المكابرة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل:١٤]، وهو يقول: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]، وهو يعلم كذب نفسه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن موسى: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء:١٠٢].

فعند أن تكبر وعتى وتجبر وأبى الانقياد لشرع الله عَزَّوَجَلَّ أتاه الله من حيث لم يحتسب ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ أخذه الله نكالًا في الدنيا حيث أغرقه باليم والبحر وهو ينادي: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩٠-٩٢].

وأخذه الله في الآخرة بالعذاب والنكال، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٦]، فنكل به، ومزقه كل ممزق، وأزال مملكته، وأذهب دولته، وجعله عبرة للمعتبرين في الدنيا والآخرة، ولا يُذكر إلا بالذم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إن في قصة موسى مع فرعون ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ لعبرة وذكرى لمن يخشى ربه، فينظر إلى تمكين الله للمؤمنين ومكر الله بالكافرين، وأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأراضين، وأنه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢]، فأصبح ملك فرعون يبابًا بعد تكبره وتجبره، ومكن لموسى بعد ضعفه ومسكنته ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٠].

﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قصة موسى وما فيها من العبر والتطمين لمحمد ﷺ، وما فيها من تهديد الكافرين الذين يتمردون على شرع الله قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ءَأَنتُمۡ ﴾ يا معاشر من تكذبون بالبعث والنشور ﴿ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ ﴾، وهذا مثل قوله: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر:٥٧]، وقد قال تعالى: ﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس:٨١].

المراد بقوله: ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ ﴾ بل السماء، العالية، المبنية بغير عمل، المزينة في هيئتها وشكلها أشد منكم خلقًا ومع ذلك ﴿ بَنَىٰهَا ﴾ أي: ﴿ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ أعلاها ورفعها وجمَّلها وحصَّنها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك:٢-٤]، وقال: ﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجر:١٦-١٧]، فهي مبنية على أتم وأكمل الهيئات، وسُمكها عظيم، فسُمك كل سماء خمسمائة عام كما جاء في الآثار.

﴿ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا ﴾ أَيْ: جعل ليلها أسود مظلمًا حالكا، فإذا أظلم ليل السماء غطى الليل الأرض ﴿ وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ جلاه وكان نيرًا واضحًا، فهذا أعظم من خلقكم يا معاشر الكفار الذين تكذبون بالبعث والنشور.

قال: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ يقول: والأرض التي أنتم عليها خلقها الله قبل السماوات، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت:٩-١١]، وتسخيرها للمعاش كان بعد ذلك، فهو يقول: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ: بعد رفع السماء ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾، وهو قوله تعالى: ﴿ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴾ إذ أنها قبل ذلك كانت عبارة عن

حجارة صماء وأتربة لا شيء فيها، فأخرج الله منها الماء العذب وسخر ما سخر، حتى أنبتت العشب وخرج منها الزرع، وما يدر به الضرع، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَدَحْيها أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى، وَشَقَّقَ فِيهَا الْأَنْهَارَ، وَجَعَلَ فِيهَا الْجِبَالَ وَالرِّمَالَ وَالسُّبُلَ وَالْآكَامَ(١).

﴿ وَمَرْعَىٰهَا ﴾ ما ترعى فيه الغنم: البقر والدواب، وهو شامل لكل أنواع الثمار والحبوب.

ومن دحوها أنه ثبتها بالجبال فقال: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ وضعها عليها؛ حتى لا تتحرك أو تميد، حيث ثبتها بالجبال الرواسي العظيمة، وكل هذا التسخير ودحو الأرض: ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾، دوابكم من الخيل، والبغال، والإبل، والغنم، وهذا دليل على أن الأصل فيما سخره الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان الإباحة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة:٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣]، ألا يرشدكم هذا إلى وجوب طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والاستسلام والانقياد له؟!

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

وبعد أن قرر الله جَلَّجَلَالُهُ، عظيم قدرته يقرر المعاد، فيقول: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ أَيْ: إذا وقعت القيامة التي تطم الناس طمًا، وتغطيهم، ولا أحد يخرج منها، وسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَطُمُّ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ هَائِلٍ مُفْظِعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القمر:٤٦](٢)، وهي من أسماء القيامة، الواقعة، والحاقة، والساعة، والقارعة.

فإذا جاءت الطامة وما فيها: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ أَيْ: حِينَئِذٍ يتذكرُ ابنُ آدَمَ جَمِيعَ عَمَلِهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، كَمَا قَالَ: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفجر:٢٣](٣).

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ أَيْ: قُرِّبت وأظهرت وجُليت، يراها الناس يحطم بعضها بعضًا، وسميت بالجحيم؛ لأنه شدة تأجج النار.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣١٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٣١٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٨/٣١٧).

وفي الموقف عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ - يوم القيامة - لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(١)، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء:٩٠-٩١]، وحين يقول اليهود والنصارى: «عَطِشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ أَلَا تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ»(٢).

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ فأما من كان في هذه الدنيا طاغيًا مبارزًا لله بالمعصية، وأعظمها الشرك ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ قدم الدنيا على الآخرة، وتقديم الدنيا على الآخرة سبب للحرمان من أجر الآخرة كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠]، فعن عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»(٣).

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ وهذا هو الكافر، ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ قرَّبها وعظَّمها وأحبَّها على الآخرة ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ هي المستقر، وبئس القرار، فلا يستطيع أن يجاوزها إلى غيرها.

يأكل من ضريعها، ويشرب من زقومها، وثيابه من نار كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحج:١٩-٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٧].

ولما ذكر حال الكافرين بين حال المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ من المؤمنين الموحدين الطائعين لرب العالمين حيث خاف الله وراقبه، وعمل بمقتضى ذلك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، فالله عَزَّوَجَلَّ يُعبد بالخوف والرجاء والمحبة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

وعند الموت ينبغي للمسلم أن يقدم الرجاء، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، والحديث في «الصحيح المسند» (١/ ١٧٤) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، يَقُولُ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ**»(١)، وعَنْه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**»(٢)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي**»(٣)، وأما في الدنيا فقال بعضهم: ينبغي أن يقدم الخوف؛ حتى يكون زاجرًا له عن المعاصي والسيئات ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ جاهد النفس وزجرها ومنعها ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ المخالف للحق؛ لأن الهوى في الغالب يأتي على خلاف الحق ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان:٤٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وسمي هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه في النار.

فيقول من خاف مقام ربه، وبادر بالطاعة والإنابة، وجاهد نفسه وزجرها عن اتباع هواه ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الجنة هي داره، وقراره وفيها «**مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(٤)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ**»(٥)، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا**»(٦).

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أَيْ: الكفار، ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ القيامة، ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى هي؟، لا يعلم ذلك إلا الله كما قال النبي ﷺ حين سأله جبريل: «**مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»(٧)، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه:١٥]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٨).
(٣) متفق عليه، البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥).
(٤) متفق عليه، البخاري (٣٢٤٤)، مسلم (٢٨٢٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٥) أخرجه مسلم (٢٨٣٦).
(٦) أخرجه مسلم (٢٨٣٧).
(٧) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال: ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٣].

ولو كان للناس مصلحة شرعية أو دنيوية في الإخبار بالساعة لربما أخبرهم الله بها، لكن لا مصلحة لهم بالإخبار عنها، وإنما دلهم الله على ما فيه لهم من المصالح، وأما وقت الساعة فيغيبه حتى عن أنبيائه ورسله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان:٣٤].

﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴾ أَيْ: لست في شيء من علمها وقد أخرج ابن جرير في «تفسيره»[(١)]، وخرجه شيخنا مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أسباب النزول: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يَسْأَلُ عَنِ السَّاعَةِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ [النازعات:٤٤]. وله شاهد عند ابن جرير أيضًا، من طريق طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَزَالُ يَذْكُرُ شَأْنَ السَّاعَةِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النازعات:٤٢] إِلَى: ﴿ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾ [النازعات:٤٥].

والمعنى العام ما الذي ينفعك إن أخبرناك بموعدها؟ لا تنتفع بشيء، ولا عليك من ذكرها، وإنما خَوِّفْهُم بخروجها، ويجب عليهم الإيمان بوقوعها.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ أَيْ: منتهى علمها إلى الله، فهو الذي يعلم متى تكون، ولا يعجزه شيء ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾ أَيْ: إنما عليك يا محمد، أن تنذر وتخوف من يخشى قيامها فيستجيب.

والساعة يومها شديد، كما قال تعالى: ﴿ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ ﴾ [المعارج:٤-١٠]، ويغضب الله في ذلك اليوم غضبًا، لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله.

﴿ كَأَنَّهُمۡ ﴾ أَيْ: الكفار المكذبين بها: ﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا ﴾ أَيْ: الساعة، ويعاينون وقوعها ﴿ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ ﴾ لم يمكثوا في هذه الحياة الدنيا وفي تلك القبور الخوالي وما فيها من الوحشة ﴿ إِلَّا عَشِيَّةً ﴾ من الظهر إلى المغرب ﴿ أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴾ من الصبح إلى الظهر.

---

(١) برقم (٢٤/٩٩-١٠٠).

وهذا هو الواقع فعند قرب الموت يشعر الإنسان بأن السنين الكثيرة التي مكثها في الأرض زالت في لحظة عين، وعند البعث: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦ ﴾ [الروم:٥٦].

والحمد لله رب العالمين.

مكية الجزء الثلاثون سورة عبس آياتها ٤٢

سُورَةُ عَبَسَ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، وكان سبب نزول أوائلها: أَنَّ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُنَاجِي عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأَبَا جَهلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأُبَيًّا وَأُمَيَّةَ ابْنَيْ خَلَفٍ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَرْجُو إِسْلَامَهُمْ، فَقَامَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي، مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، وَجَعَلَ يُنَادِيهِ وَيُكَرِّرُ النِّدَاءَ وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ مُشْتَغِلٌ مُقْبِلٌ عَلَى غَيْرِهِ، حَتَّى ظَهَرَتِ الْكَرَاهِيَةُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَطْعِهِ كَلَامَهُ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «**يَقُولُ هَؤُلَاءِ الصَّنَادِيدُ إِنَّمَا أَتْبَاعُهُ الْعُمْيَانُ، وَالسِّفْلَةُ، وَالْعَبِيدُ**»، فَعَبَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ يُكَلِّمُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَاتِ(١).

وكان سبب إعراض النبي ﷺ وإقباله على أشراف قريش؛ طمعًا في إيمانهم وإسلامهم، وحرصًا على دعوتهم، فعاتبه الله عَزَّوَجَلَّ بهذا العتاب اللطيف، الدال على علو منزلته وعظيم فضله، حتى أنه جعل الخطاب للغائب، فلم يقل: «عبست وتوليت».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ ﴾

﴿ عَبَسَ ﴾ أَيْ: بوجهه، والعبوس: قطوب الوجه وتغيره، ﴿ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ أَيْ: ببدنه فحول عنه وجهه والتفت إلى من يرجوا إسلامهم.

﴿ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ أَيْ: حين جاءه ابن أم مكتوم، وهو عمرو وقيل عبد الله بن أم مكتوم.

وفيه أن الكرامة عند الله بالإيمان، وليست بالمال ولا بالحسب والنسب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(٢).

---

(١) «أسباب النزول» للنيسابوري (٤٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات:١٣]، فانظر إلى هذه المكرمة العظيمة لهذا الأعمى المحتقر عند قريش ذكر الله شأنه في القرآن، معاتبًا في شأنه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مع أن النبي ﷺ إنما همه الدعوة إلى الله، وكان يجالس الضعفاء وغيرهم، ولكنه طمع في إسلام كفار قريش بإعراضه عنه.

وفيه جواز ذكر الشخص بوصفه الذي هو عليه كالأعمى والأعرج للتعريف.

والعمى ينقسم الى قسمين: عمى بصر، وعمى بصيرة، وأهونهما: عمى البصر، فإن الله عَزَّوَجَلَّ وصف الكفار بأنهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨] مع أنهم يبصرون بأعينهم.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ أَيْ: أن هذا الأعمى قد تقع منه الزكاة، فيطهر نفسه من الذنوب والمعاصي، ويطهرها بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، بخلاف من أقبلت عليه، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ أو أن هذا الأعمى قد يتذكر ويستفيد من المواعظ التي يسمعها منك بخلاف ذلك الكافر المعرض.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ أَيْ: الكافر الذي ليس له رغبة في الإسلام. ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ فأنت تتعرض له وتجلس معه ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ كما قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ﴾ [البقرة:٢٧٢]، فهو أعلم بالمهتدين، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر:٨]، والمعنى ليست عليك زكاته وليست تحت قدرتك إلا أن يشاء الله.

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ وهو الأعمى جاء مسرعًا إلى النبي ﷺ ليأخذ منه علمًا وفقهًا، وهذا هو حال أهل الإيمان في كل زمان أنهم يحرصون على أخذ الخير والعمل به، والسعي هنا قد يكون على ظاهره: سعي البدن أو المراد به السعي المعنوي، وهو السعي لتحصيل الخير والصلاح، ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ حال كونه يخشى الله عَزَّوَجَلَّ ويراقبه ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تُعرض وتقبل على الكافر مشتغلا به.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أَيْ: حقا أن القرآن تذكرة، وما تقدم من عتاب الله عَزَّوَجَلَّ لمحمدٍ ﷺ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة يستفيدها من أراد الله له الفائدة، فإذا كان الله قد عاتب محمدًا ﷺ النبيَّ الكريم، فكيف بنا، مع أن نبينا ﷺ إنما طمع في إسلام بعض عظماء قريش؛ ولعل في هدايتهم هداية لغيرهم، واستقامة لغيرهم، ومع ذلك عاتبه الله ووعظه بهذه الموعظة ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾

أَيْ: اتعظ واستفاد، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾ [الكهف:٢٩]، ففي باب القدر الشرعي لا يرضى الله الكفر ولَم يأذن به، ولا يحبه، بل يعاقب عليه بالطرد من رحمته، وأما القدر الكوني فلله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦].

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ❁❁❁ كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نُعِّمُوا ❁❁❁ فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الوَاسِعُ

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم ذكر مكان هذه الذكرى وأنها لا تنال بالأيدي فيعبث بها العابثون.

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي: أن هذه التذكرة في صحف مكرمة، صُحف مكتوبة مُعظمة ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ مرفوعة أن تنالها الأيادي عبثًا، ومطهرةً مما يخالف الشرع ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ أي: بأيدي الملائكة السفرة، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال النبي ﷺ: «**الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ**»(١).

وقد ذكر العلماء في معنى السَفَرَة أمرين:

الأول: أنهم الكَتَبَةُ، من السِّفْرِ وهي الكتب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ﴾ [الجمعة:٥] فيكون المعنى أنهم الملائكة الذين يكتبون أعمال العباد وما يتعلق بذلك،

الثاني: أنهم سفراء بين الله عَزَّوَجَلَّ وبين المكلفين، فإن جبريل الروح الأمين هو الذي نزل بالوحي الشريف على محمد ﷺ.

﴿كِرَامٍ﴾ في صفاتهم، والكرم: كثرة الخير، فهم على جمال في صفاتهم وذواتهم ﴿بَرَرَةٍ﴾ قلوبهم وأعمالهم لكثرة أعمال البر، فإنهم كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم:٦].

والبِرُّ: كلمة عامة تشمل كل طاعة لله عَزَّوَجَلَّ من التوحيد فما دونه، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢١١).

وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة:١٧٧].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

ثم أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن حال الإنسان وكفرانه للنعم مع وضوح الحجج والبراهين الدالة على استحقاق الله جَلَّجَلَالُهُ للشكر والحمد عليها: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ قيل هلك، وقيل: لُعن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أَيْ: الكافر، وقيل جنس الإنسان وأكثر الناس على الكفر إلا من رحم الله.

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ قيل: ما سبب كفره، وقيل: أنها على التعجب أَيْ: ما أشد كفره وإعراضه عن دين الله عَزَّوَجَلَّ مع وجود الدلائل الواضحات والحجج الدامغات في بيان وجوب التوحيد على العباد! قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:١٧-٢٠] فيكون في هذا النظر عبرة وآية يدخلون بها للإسلام ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١]، إلى غير ذلك من الآيات، ومع ذلك ما أشد كفر الإنسان وجحود الإنسان بحق الملك الديان، والله المستعان.

﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ يقول: هو مخلوق حتى يتعاظم ويتكبر، مع أنه من نطفة حقيرة تخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، ثم تجتمع في رحم المرأة مشيج، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان:٢]، وقال تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ بدء نشأته من هذه النطفة في رحم المرأة، فقدره تقديرًا، حيث يكون نطفة ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظام، ثم يكسو العظام لحمًا، فإذا تم الأجل خرج من بطن أمه وبدأ رضيعًا، ثم يجلس، ثم يحبو، ثم يقوم، وهكذا حتى يرد إلى أرذل العمر، كما قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم

مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج:٥].

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ أَيْ: يسره لسبيل الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان:٣]، وقال: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد:١٠]، وقال: ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٥٠]، والحال كما قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الليل:٥-٧].

وفي حديث عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ وَمَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً**» قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: «**أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الليل:٥-٦] الآيَةَ (١).

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ ﴾ بعد حياته الطويلة ﴿ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أودعه في الأرض، ووُري بالتراب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [المرسلات:٢٥-٢٦] أَيْ: تكفتكم أحياء بتغييب فضلاتكم وما يخرج منكم ﴿ وَأَمْوَاتًا ﴾ أَيْ: تغييبكم بعد موتكم.

والقبر يعتبر مكرمة للإنسان؛ لأن كل حيوان يموت يترك، فتظهر جيفته وربما أكلته السباع ونهشته الوحوش بخلاف الإنسان، فإنه يُوارى ويُدفن في التراب، ولذلك حينما قتل ابن آدم أخاه بعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري أخاه، قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة:٣١].

وكَرَّمَ الله المسلمين بمزيد عناية في ذلك: فيُحسن كفنهم، وتُعمَّقُ قبورهم، ويُلحد لهم، حتى لا يصل إليهم التراب، ويوضعون على أيمانهم، ويدخلون بِاسْم الله على ملة

(١) متفق عليه، البخاري (٤٩٤٨)، ومسلم (٢٦٤٧).

ورسول الله ﷺ، ثم صان الله قبورهم بعد موتهم فحرَّم وطأها، فعَنْ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا**»(١)، وقد نهى النبي ﷺ عن الكتابة عليها، بل وبالغ في إكرامها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى قَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ عندما حَانَتْ مِنْه نَظْرَةٌ، فَإِذَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي الْقُبُورِ عَلَيْهِ نَعْلَانِ، فَقَالَ: «**يَا صَاحِبَ السِّبْتِيَّتَيْنِ، وَيْحَكَ أَلْقِ سِبْتِيَّتَيْكَ**» فَنَظَرَ الرَّجُلُ فَلَمَّا عَرَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَلَعَهُمَا فَرَمَى بِهِمَا(٢)، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَأَنْ أَمْشِيَ عَلَى جَمْرَةٍ، أَوْ سَيْفٍ، أَوْ أَخْصِفَ نَعْلِي بِرِجْلِي، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمْشِيَ عَلَى قَبْرِ مُسْلِمٍ، وَمَا أُبَالِي أَوَسْطَ الْقُبُورِ قَضَيْتُ حَاجَتِي، أَوْ وَسْطَ السُّوقِ**»(٣)، وحرم تعظيمها وتشييدها، ففي وصية النبي ﷺ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**»(٤)، والقبر بعد ذلك نعيم أو عذاب: «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**»(٥).

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ ثم للتعقيب، متى شاء أنشرهُ، بعثهُ وأخرجه من قبرهِ إلى أرض المحشر والمنشر، فيُجازى على عمله، فإن كان من المسلمين المؤمنين الموحدين كان مآلهُ إلى جنة النعيم، وإلى إكرام رب العالمين، وإن كان من الكافرين المجرمين كان مآله إلى الجحيم، نسأل الله السلامة.

وإذا أراد أن ينشره فلا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤] صيحة واحدة في الصور فإذا هم على وجه الأرض، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٦). أَيْ: يعيد الله عَزَّوَجَلَّ خلق الإنسان بعد موته من عجب الذنب.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ جماهير المتقدمين من المفسرين يقولون حقًا بأن الإنسان عاجز أن يأتي بما أمره الله عَزَّوَجَلَّ على أكمل الوجوه، ولكنه يتقي الله ما استطاع؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، ولقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، ولقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٢).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٣٠)، والحديث في «الصحيح المسند» (١٨١) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٣) أخرجه ابن ماجه (١٥٦٧)، والحديث في «الصحيح المسند» (٩٣٢) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٤) أخرجه مسلم(٩٦٩).
(٥) أخرجه الترمذي(٢٣٠٨)، ابن ماجه (٤٢٦٧)، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٦) متفق عليه، البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

وقيل المعنى: ﴿كَلَّا﴾ أَيْ: لا يقع البعث والنشور إلا متى أراد الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا القول استظهره ابن كثير، لكن المعنى الأول أليق، ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أَيْ: أن الإنسان لم يأتِ بما أمر به إلا مع وجود بعض الضعف، والنَّاس يتفاوتون.

ثم بين الله جَلَّجَلَالُهُ قدرته ببيان حال الإنسان في الدنيا وأرشد إلى النظر والتفكر في ذلك، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ أَيْ: ليتأمل الإنسان في دلائل الله وآياته، وضرب له مثلًا بأقرب الأشياء إليه؛ حتى يتوصل بها إلى مزيد الإيمان ودرجات الإحسان ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ والمراد بالنظر هنا: نظر تفكر وتعقل لا نظر تفرج، فإن كثيرًا من الناس يذهبون إلى المزارع وينظرون إلى خضرتها وبهائها ويرجع إلى بيته ليس له إلا ذاك، لكن المراد نظر تأمل وتعقل وتفكر تدله على قدرة الملك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إلى مأكوله ومشروبه.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ أنزلنا الماء من السماء على الأرض بكثرة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، يصبه من السحاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ:١٤]، وفي نزول المطر آية من آيات الله العظيمات، إذ أن الله ينشأ سحابًا ربما لا جرم له، محسوس وإن كان يرى، لكن لو مر السحاب من عندك تمد بيدك لا تجده إلا إذا وجدت رطوبته، ومع ذلك هذا السحاب يتكون فيه جبال من برد، وتنزل منه أمطار غزيرة، فيسقي الله عَزَّوَجَلَّ بها البلاد والعباد، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور:٤٣].

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أَيْ: أمر المزارعين أمرًا كونيا بالزراعة والحرث، وهو الذي علمهم بذلك، ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أَيْ: أصنافا من الحب كالذرة والشعير والحنطة وغير ذلك ﴿وَعِنَبًا﴾ أعناب منه الأخضر، والأحمر، والأسود والحلو، والمر، والحامض ﴿وَقَضْبًا﴾ وهو القت على اختلاف أصنافه تأكله الدواب لاسيما البقر وغيرها، ويكون سببًا في در الحليب، وقد يكون المراد بالقضب نفس هذه الشجرة التي تسمى قضب ويعرفها المزارعون، وقد يريد به جملة الأشجار التي تكون مرعى للدواب والأنعام.

﴿وَنَخْلًا﴾ الشجرة المعروفة التي يستصبح ويدهن بزيتها، وتؤكل ثمرتها، وتتخذ إداما، فهي شجرة مباركة، كما قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ

﴿٢٠﴾ [المؤمنون:٢٠]، ﴿وَنَخْلًا﴾ معروفٌ، ثمرهُ لذيذٌ، وسعفه يصلح بساطًا، وساقه طويل كما قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق:١٠-١١]، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ**» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»(١).

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ أَيْ: مزارع فيها أشجار، قيل سميكة، وقيل عالية، وقيل ملتفه، وربما شملت جميع المعاني، فإن الأرض الزراعية تنقسم إلى قسمين: أرض تزرع فيها الأعشاب وهي سريعة الموت، وأرض تزرع فيها الحدائق الغناء، والأشجار العظيمة، فتبقى على هيئتها في الصيف والشتاء.

﴿وَفَٰكِهَةً﴾ أَيْ: مما رزقهم الله: فاكهة من الرمان، والبرتقال، والتفاح، والسفرجل، وكم هي الفواكه العظيمة التي يمتن الله بها على عباده، ﴿وَأَبًّا﴾ أعشاب ترعاها دوابهم، وأما ما روي عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّه سُئِلَ عَنْ ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١]، فَقَالَ: «أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ»(٢)، فهو منقطعٌ بين إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ وأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما ما جاء عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَرَأَ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ الْفَاكِهَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا الأَبُّ؟ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكَلُّفُ يَا عُمَرُ!(٣)، فليس معناه أنه لا يعرف الآب، ولكن رأى أن البحث عن نوعه وجنسه يعتبر من التكلف، وإلا ما من عربي يفهم لغة العرب إلا ويعرف معنى الفاكهة ومعنى الآب، والذي يظهر ان اسم مدينة (إب) مأخوذ من هذا الأمر؛ لأنها بلد وإن كانت تخضر في موسم الربيع إلا أن سبب اخضرارها الأعشاب.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ بعد أن بين قدرته في هذه الأشياء: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ﴾ أكل هذا جعله الله متاعًا تتمتعون به فتأكلون وتشربون وتدخرون ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ دوابكم من البقر والغنم والإبل، فتستمتعون وتستمتع أنعامكم ثم تستمتعون أيضًا بأنعامكم التي قد كبر حجمها، ولذ لحمها، وكثرت ألبانها.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف/ط أشبيليا» (٣٢١٠٥).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف/ط أشبيليا» (٣٢١٠٣).

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ
مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾
تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبعد أن بين الله جَلَّجَلَالُهُ عجائب القدرة ذكر اليوم الآخر وما فيه بقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ إذا جاء يوم القيامة، وسميت بالصاخة؛ لأنها تكون بصوت مرتفع تصخ معه الآذان وتصم من شدتها، ومن وصفها أنها: ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴾ في يوم يهرب المرء من أخيه، وبدأ بالأخ؛ مع شدة حرص الأخ على أخيه وتعصبه له في الدنيا، ومع ذلك يفر منه يوم القيامة، ﴿ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴾ ويفر أيضًا من والديه ويفران منه، ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ ﴾ أَيْ: زوجته، ﴿ وَبَنِيهِ ﴾ أَيْ: أحرص الناس عليه في الدنيا يهربون منه ويفر منهم؛ لأن ذلك اليوم كما قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر:٣٨] أَيْ: مرهونة بعملها، وكل إنسان يقول: نفسي نفسي ﴿ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ ﴾ [المعارج:١٠].

﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ ﴾ من الرجال والنساء ﴿ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾ هذا هو سبب فرار بعضهم من بعض؛ أن كل واحد مشغول بنفسه وبعمله، وهذا حين يجد كل واحد عمله، كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران:٣٠]، والشأن: هو الشغل الذي يبتلى به الإنسان.

ثم بين الله عَزَّوَجَلَّ حال الناس في هذا اليوم: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴾ وهي وجوه المؤمنين ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ ﴾ [آل عمران:١٠٦] فوجوه المؤمنين مسفرة أَيْ: جميلة بهية، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢] أَيْ: فيها النضارة والبهاء. ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة:٢٣] بسبب نظرها إلى الله ﴿ ضَاحِكَةٞ ﴾ مسرورة لما حصل لها ﴿ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴾ بوعد الله عَزَّوَجَلَّ الذي بشرهم به أنبيائه، وبشرهم به ملائكته، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

﴿وَوُجُوهٌ﴾ وهي وجوه الكفار، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ: في القيامة، ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أَيْ: سواد حيث تغيرت وجوههم البيضاء إلى السواد؛ بسبب ما كانوا عليه من الذنوب العظيمة، ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ تعلوها القترة فبدل الجمال الذي كانت عليه في الدنيا صارت سوادًا ومنظرًا سيئًا.

﴿أُولَئِكَ﴾ أَيْ: الذين تقدم وصفهم ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ﴾ الجحدة لربوبية الله وألوهيته، والمتمردين على شرعه ودينه ﴿الْفَجَرَةُ﴾ الذين ارتكبوا كل فجور من الشرك فما دونه، فاستحقوا هذا العذاب الأليم والخزي العظيم بأن تكون وجوههم يوم القيامة مسودة، وتكون قد علتها القترة التي غيرت من نظارتها وحالها.

وجاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ**»[1].

الذيخ: هو ذكر الضباع.

والحمد لله رب العالمين.

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٠).

مكية الجزء الثلاثون سورة التكوير آياتها ٢٩

سُورَةُ التَّكْوِيرِ ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، وجاء في «مسند الإمام أحمد»، والترمذي[1] من حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ويكون ذلك يوم القيامة حيث أن هذه الشمس العظيمة الواسعة، تكور فيضم بعضها إلى بعضًا ثم تلقى في النار، كما يقال: كُوِّرَت العمامة، أَيْ: جُمِعَت، وإلقائها في النار هو تبكيت لعُبَّادها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠٣].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾ التي جعلها الله جَلَّجَلَالُهُ زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: انطمس ضوئها، وسقطت عن أماكنها قيل في جهنم؛ وما يحصل هو بسبب التغير الذي يحصل في العالم العلوي؛ لأن القيامة يلحقها تغيرات، تغير في العالم العلوي من انفطار السماء وتساقط النجوم وتكوير الشمس، وتغير في العالم السفلي قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨].

---

(١) «مسند أحمد» برقم (٤٨٠٦)، والترمذي برقم (٣٣٣٣).

ومن أوائل التغيرات في العالم العلوي: طلوع الشمس من مغربها، ومن التغيرات في العالم السفلي: ما دل عليه حديث حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا نَتَحَدَّثُ فِي ظِلِّ غُرْفَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرْنَا السَّاعَةَ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَنْ تَكُونَ - أَوْ لَنْ تَقُومَ - السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ قَبْلَهَا عَشْرُ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَالدَّجَّالُ، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَالدُّخَانُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ، خَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ تَخْرُجُ نَارٌ مِنَ الْيَمَنِ، مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ، تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ**»(١).

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ ﴾ الثوابت الرواسي ﴿ سُيِّرَتْ ﴾ أَيْ: زالت عن أماكنها، كما قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النبأ:٢٠] ويبدأ التغير بأنها تمر مرَّ السحاب، وتصبح الأرض كقرصة النقيب ليس فيها علم لأحد، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل:٨٨]، ثم تكون كالصوف الذي ينفش في الهواء، تحمله الريح، ثم تكون آثارها كالسراب ثم تتبدد الرؤيا إليها، والحال كما قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٧].

﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ عشار الإبل تركت وسيبت وقيل الأرض المعشرة، والذي يظهر أنها النوق؛ لأن العرب كانوا إذا صارت الإبل عشرا أحبوها وانتظروا ولدها، وهي التي تحمل في الشهر العاشر، فتعطل عن الركوب عليها، وتعطل عن الاهتمام بها، بمعنى أن الإنسان شغل عنها ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس:٣٧].

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أَيْ: جمعت الوحوش من أسود، ونمور، وجميع حيوان الغاب تحشر يوم القيامة عند بارئها، كما قَالَ النبيُّ ﷺ: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»(٢)، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام:٣٨]، فيجمعون في ذلك الصعيد العظيم، إلا أن الوحوش والحيوان إذا قضي بينها صارت ترابًا بخلاف الإنسان والجان.

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أوقدت بالنار وجمعها؛ لكثرتها، فمنها البحر المحيط، وهو ما يعبر عنه الآن بالمحيط الهادي، والأطلنطي، والهندي، والمتجمد الشمالي، والمتجمد الجنوبي، وهناك

(١) أخرجه أبو داود (٤٣١١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أبحر غير محيطه مثل؛ بحر العرب، وبحر قزوين الذي هو البحر الأحمر، والبحر المتوسط وغير ذلك من البحار الكثيرة، هذه البحار تسجر بالنار فتصير لهبًا عظيمًا ويذهب ماؤها.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أَيْ: جمع كل صنف مع صنفه ونظيره، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٨]، فاليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، وعباد الشمس مع عباد الشمس، كما قَالَ رَسُولُ ﷺ: «**يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا**»(١)، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة:٧-١٠].

فيجتمع الناس ويتمايزون، وإذا جالس بعضهم بعضًا، وزُوِّجَ بين بعضهم بعضًا، يتمنى المجرم لو يكون بعيدًا عن هذا الشرير، كما في حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ، فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ**»(٢).

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ والمؤدة: هي النفس التي تقتل قبل بلوغها، وللكفار طريقان في قتلها: إما أن يقتلوها حين الولادة، وإما أن يقتلها في سن التمييز، حتى ذكر أن بعضهم ذهب يحفر لابنته حفرة، وكان التراب يقع على لحيته، وكانت ابنته تنفض التراب من لحيته ثم يلقيها في تلك الحفرة، وهذا يدل على غلظ قلوبهم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد أعطى الرحمة في قلوب الحيوان، وهؤلاء يقتلون بناتهم، وكان قتلهم لبناتهم لسببين: الأول: الفقر، ولهذا السبب ربما قتلوا الولد والبنت، والثاني: خشية العار، ويكون هذا في حق البنت.

وقراءة الجمهور: ﴿سُئِلَتْ﴾ فإذا سُئِل المظلوم فكيف الظالم، وقرأ غير واحد ﴿سَأَلَتْ﴾ أَيْ: طالبت بدمها، فالشاهد أن الله يقول: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ وكذلك قاتل الموءودة يسأل عن سبب قتلها، وقد سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْعَزْلِ؟، فَقَالَ: «**ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ**»(٣).

والصحيح أن الموءودة في الجنة؛ لقول النبي ﷺ: «**فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الفِطْرَةِ**»، فَقَالَ بَعْضُ

---

(١) متفق عليه، البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أحمد (١٨٦١٤).
(٣) أخرجه مسلم (١٤٤٢).

المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ**» أي في الجنة[(١)]، هذا هو القول الصحيح في هذه المسألة، وقد اختلف العلماء، فقال بعضهم: أولاد المشركين مع آبائهم، واستدلوا بحديث: «**هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ**»[(٢)] وهذا إنما هو في الدنيا في حال البيان؛ لكن القول الذي عليه أهل التحقيق: أن أولاد المشركين في الجنة، لثبوت النص عن النبي ﷺ.

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ أَيْ: صحائف الأعمال تنشر يوم القيامة، وفيها ما سطر من خير أو شر، فإن الأنسان لا يعمل عملًا ولا يقول قولًا إلا كتب عليه ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٨]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف:٨٠]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٣٠].

وحين تنشر هذه الصحف منهم من يأخذها بيمينه، ومنهم من يأخذها بشماله، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحاقة:١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٦]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء:٧١].

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ أَيْ: السماء عالية البنيان، عظمية الأركان، تزاح عن مكانها، وتتهدم أركانها، ويطويها الله عَزَّوَجَلَّ بيده ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ ﴾ [الزمر:٦٧].

﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ ﴾ سميت الجحيم؛ لبعد قعرها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**»[(٣)].

﴿ سُعِّرَتْ ﴾ أُوقِدت، وأُظلِمت، وجُهِزت، قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٤)، عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٣)، ومسلم (١٧٤٥)، عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٤٤).

﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤].

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أَيْ: قربت، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠]، فقربها الله للمؤمنين؛ ليدخلوها ويتمتعوا بالنظر إليها، ويستأنسوا بوجودها، إذ أنهم يُكرمون حين إتيانها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف:٤٩]، هذا هو الجواب لما تقدم، وذلك حين تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال، وتعطل العشار، وتحشر الوحوش، وتسجر البحار، وتزوج النفوس، وتسأل الموءودة المقتولة، وتنشر الصحف (الدواوين)، وتكشط السماء وتطوى وتذهب، وتسعر الجحيم، وتقرب الجنة عند ذلك: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ علمته ولا تنسى منه شيئًا، كله مسطر في الكتب، والملائكة يشهدون، والإنسان ينظر إلى عمله يمنة ويسرة كما سيأتي ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار:٥] ما فعلته، وما لم تفعله، وهذا العلم يُوجب للإنسان الحسرة في الآخرة ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾ [المعارج:١١-١٤]

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ أَيْ: أني أقسم بالخنس، وهي النجوم حال طلوعها، وقيل غير ذلك.

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ النجوم حين تكون سابحة في السماء، ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ النجوم عند غروبها، فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ بحال النجم في جميع حالاته الثلاث: عند طلوعه، وسيره، وعند غروبه، والنجم آية من آيات الله العظيمات، جعلها الله زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ(١).

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» معلقًا (٤/١٠٧).

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أقسم أيضًا بالليل إذا عسعس أَيْ: إذا أدبر، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤﴾ [المدثر:٣٣-٣٤]، فيقسم بالمتماثلين: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس:١]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى:١-٢]، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:١-٢]، ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أقسم بالصبح حال طلوع الشمس، وقبل ذلك يتنفس ويبدأ في ظهور النور بعد الظلمة، ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيْ: القرآن هذا هو المقسم عليه، ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ والمراد به جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، نسب إليه لأنه بلغه وهو رسول كريم، ذو أوصاف جليلة جميلة عظيمة، فإن لفظ الكرم أعم من العطاء، ولذلك رأينا أنه لا حرج في قول رمضان كريم من حيث أنه شهر الخير والبركة.

والقرآن هو قول الله، وكلامه، وإنما أضيف إلى جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه بلغه، وأضيف إلى النبي ﷺ؛ في سورة الحاقة لأنه بلغه للناس، ويزيده وضوحًا أنه قال: ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٍ﴾، والرسول هو الذي أرسل من غيره.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أَيْ: من أوصافه الرسول الكريم أنه صاحب قوة، كما قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم:٦] أَيْ: قوة وشدة؛ لكمال خلقته، ولعظيم شأنه، وقد رآه النبي ﷺ على خلقته مرتين وله ستمائة جناح ساد عظم خلقه ما بين السماء والأرض.

﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ أَيْ: أن هذا الرسول عند الله، صاحب العرش، وهو العرش العظيم، العرش المجيد الذي استوى الله عَزَّوَجَلَّ عليه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] وهو أعلى المخلوقات، وأول المخلوقات، قال النبي ﷺ: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»(١).

﴿مَكِينٍ﴾ أَيْ: أنه ممكن، مكنه الله عَزَّوَجَلَّ، فهو المقدم على جميع ملائكة الله، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

﴿مُّطَاعٍ﴾ أَيْ: أن جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مطاع من جميع الأملاك، يطيعونه؛ إذ أنه يبلغهم بأمر الله، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[سبأ:٢٣]، وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ - قَالَ عَلِيٌّ: وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ - فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ**»(١).

﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أَيْ: أنه متصف بالأمانة، وهذا ثناء عظيم من الله عَزَّوَجَلَّ على جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي يُخَوِّنُه الرافضة والباطنية؛ بدعوى أنه دفع النبوة إلى محمد ﷺ وهي في الأصل لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وربما سلم بعضهم من الصلاة لاسيما النخاولة ومن إليهم ويقولون: خان الأمين، خان الأمين. كيف يخون الأمين؟، لا تستقيم؛ لأن الأمين لا يخون فهو أمين مؤتمن على الوحي، وعلى أوامر الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ أَيْ: محمد ﷺ الذي أرسل إليكم ليس بمجنون كما يزعم الكفار ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣]، وقد ذهب بهم الحال أن يشيعوا هذا الكذب بين الناس، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ ضِمَادًا، قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ**» قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَعَلَى قَوْمِكَ**»، قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي(٢).

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أَيْ: أن محمدًا ﷺ رأى الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بِٱلْأُفُقِ﴾ أَيْ: سادًا الأفق، جالسًا على كرسيه ما بين السماء والأرض، وهذه هي النظرة الأولى، وقد رآه مرة أخرى ليلة الإسراء، وهذا مما يدل على أن سورة التكوير كان نزولها قبل سورة النجم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١).
(٢) أخرجه مسلم (٨٦٨).

[النجم:١٣-١٥]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ رأه بينًا واضحًا جليًا بصفاته.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف محمد ﷺ ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أَيْ: الوحي الذي نزل عليه ﴿بِضَنِينٍ﴾ ببخيل، بل إنه كان إذا جاءه الوحي علمه الناس، وبلغ دين الله.

وفي هذه الآية قراءتان:

القراءة الأولى: ﴿بِضَنِينٍ﴾ ببخيل، والقراءة الثانية: ﴿بظنين﴾ أَيْ: بالمتهم، فالنبي ﷺ لم يكن متهمًا على دينه، ولا بخيل بما أوحاه الله إليه.

وهكذا ينبغي أن يكون طالب العلم باذلًا نفسه للناس، حريصًا على تبليغهم ما جاء عن الله، وما ثبت عن النبي ﷺ، إذا أن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل الرسل بالوحي، وأمرهم أن يبلغوه كما جاء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب:٤٦]، قال شيخ الإسلام: فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع[1]. اهـ.

وينبغي لطالب العلم أن تكون فتواه بالدليل؛ حتى لا يتهم على دين الله.

قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أَيْ: أن هذا القرآن ليس بقول شيطان رجيم، فإن أقوال الشياطين يعتريها النقص، والاضطراب والاختلاف، وتختلط بالباطل، فلو كان قول شيطان لجاء الشياطين بمثله، أو قاربوا مثله، لكن تحداهم الله أن يأتوا بمثله فعجزوا ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨] وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود:١٣]، فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة فعجزوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس:٣٨].

والشيطان من شط وهو الذي خرج عن الطاعة ﴿رَّجِيمٍ﴾، ملعون مرجوم.

ثم قال لهم بعد هذا البيان العظيم مبكتًا ومحقرًا لعقولهم الكاسدة: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أَيْ: أين تعدلون عن هذا القرآن، وفيه الشفاء والبيان، ولكن حملهم الكبر على ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٥-٣٦].

﴿إِنْ هُوَ﴾ أَيْ: هذا القرآن ﴿ذِكْرٌ﴾ ذكرى ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ المكلفين من الجن والإنس.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٧٥).

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ لمن شاء أن يدخل في دين الله، ويستقيم على شرع الله عَزَّوَجَلَّ، ومشيئة العبد لا يمكن أن تقع إلا إذا شاء الله ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ أَيْ: يتبع الحق ويكون على الدين القويم والصراط المستقيم.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: مشيئة التوفيق إلا إذا شاء الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس:٩٩]، ففيه دليل وإعلام أن أحدًا لا يعمل خيرًا إلا بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ العالم العلوي، والسفلي، وقيل: بأن العالمين هم الجن والإنس، وزاد بعضهم الملائكة، والصحيح أن كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ عالم.

والحمد لله رب العالمين.

مكية الجزء الثلاثون سورة الانفطار آياتها ١٩

سورة الانفطار ، مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أَيْ: تشققت، وتفطرت، وتصدعت، وهذا يكون يوم القيامة.

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أَيْ: الكواكب، والنجوم، تصير منتثرة متفرقة بعد اجتماعها، وبعد سيرها على الوجه الذي شرعه الله لها كونًا.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أَيْ: ذهب ماؤها؛ بسبب ما سعرت به من النيران كما تقدم.

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ خرج ما فيها من المدفونيين المقبورين، بعثرتهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾﴾ [العاديات:٩]، خرجوا من قبورهم بعد أن كانوا قد وُرُوا في التراب، يقول فإذا بعثرت القبور وخرج من فيها ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ علمت كل نفس مكلفة ما قدمت من خير أو شر، وما أخرت من ذلك، كما تقدم: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾ [آل عمران:٣٠].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ نداء إلى جميع المكلفين ﴿مَا غَرَّكَ﴾ من الذي جعلك تغتر وسوَّل لك الباطل حتى أضعت ما وجب عليك وأمنت مكر الله عَزَّوَجَلَّ كما قال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٩].

﴿بِرَبِّكَ﴾ بخالقك ورازقك ومدبرك ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ العظيم، وهذا على التهديد، كما يقول

المثل: أحذر من الكريم إذا أهنته؛ فإنه ينتقم انتقامًا لا عفو بعده؛ لأن الكريم يعفو، ويصفح، ويتجاوز، ويعطي، ثم إذا رأى من هذا المُكرَم النفور، علمه ليس أهلًا للكرامة، فعند ذلك يقلوه ويتركه.

ثم عرَّف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسه، فقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ ﴾ أي: أوجدك من العدم ﴿ فَسَوَّىٰكَ ﴾ على أحسن صورة كما قال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين:٤]، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر:٦٤]، ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ قَوَّمَك في أحسن صورة، وهيئة، وأحسن حال، وهذا لم يقع لغير الإنسان ممن هم في الأرض، الشياطين صورهم سيئة والحيوانان كلٌّ على صورة، والإنسان خلقه الله على أحسن صوره يغطي عورته، ويسرح لحيته، ويمشط شعره، ويزيل درنه، إلى غير ذلك مما هو عليه.

﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ ﴾ في أي هيئة ﴿ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ إن شاء جعلك أحمرًا، أو أبيضًا، أو أسودًا، طويلًا، أو قصيرًا، ذكرًا، أو أنثى، فإنه لا يخرج عن مشيئة الله، وإرادة الله الكونية شيء، فالأمر أمره.

ثم قال: ﴿ كَلَّا ﴾ حقًا أيها المشركون أن الذي يحملكم على الاغترار والتمادي في المعاصي ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾ أنكم تكذبون بيوم القيامة، يوم الجزاء، وتكذيبهم له؛ إما بعدم تصديقهم الخبر الدال على وقوعه، وإما بعدم الانقياد لتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، فإن هذا يلزم منه تكذيب يوم الدين، والجزاء، وإلا لو كان الإنسان يعلم أنه مبعوث بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ مُجازى بأعماله فسيبادر للعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١].

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾ أَيْ: من الملائكة يحفظون أعمالكم، كما أنه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٨]، كما أنهم يحفظون الإنسان من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه من أمر الله، فأحيانًا تمشي في طريق تكاد أن تتعثر على وجهك، وإذا بك تُحفظ، فإذا جاء القدر حيل بينك وبين هذه الحفظة، فتسقط وتقع، والمعنى الأول أظهر، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف:٨٠].

﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ أَيْ: أصحاب كرامة في جمال وجوههم، ونبيل أخلاقهم بخلاف الشياطين، فالملَك إذا عصيت الله عَزَّوَجَلَّ تنحى عنك، والشيطان تستعيذ بالله منه وهو جاثم على قلبك؛ لأنه لئيم حقير.

﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يعلمون أفعالكم ويسطرونها عليكم.

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

ثم أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحال الناس في الآخرة، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ ﴾ أَيْ: المؤمنون الموحدون الذين لزموا البر في أقوالهم وأفعالهم ﴿ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ يوم القيامة، وهي جنة عدن يتنعمون بأنواع النعم من المآكل، والمشارب، والزوجات، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد:١٥]، وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا ﴾ [البقرة:٢٥].

﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ ﴾ الكفار سمو بذلك لفجورهم بمخالفة أمر الله جَلَّ جَلَالُهُ، ﴿ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ في عذاب أليم يوم القيامة.

﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ تُحرق أجسادهم، وتُذهب بهائها، وتُنغص حياتهم، كما قال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:٤١]، وقال: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ ﴾ [النساء:٥٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج:١٩-٢٢]، أسأل الله السلامة.

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ لا يغيبون عنها ولا تغيب عنهم ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج:٢٢].

ثم قال معظمًا لشأن يوم القيامة: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ أي: ما أدراك ما يوم القيامة، ما أدراك ما يوم الجزاء.

﴿ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ تأكيدًا لهذا التعظيم ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ أَيْ: لا يملك الأب للابن، والزوجة للزوج، والصاحب للصاحب نفعًا ولا ضرًا، بل إن نفسك لا تملك لنفسك شيئًا، فلا تستطيع أن تقدم أو تأخر إلا ما كان قد قدمته في الحياة، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ ﴾ [المدثر:٣٨].

﴿ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ لقوله: ﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ﴾ [الروم:٤]، يكرم المؤمنين بالجنة، ويهين الكافرين بالنار ولا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة والعافية.

والحمد لله رب العالمين.

مكية الجزء الثلاثون سورة المطففين آياتها ٣٦

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ ، مَكِّيَّةٌ، وذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها مدنية، والذي يظهر الأول والله أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ ﴾ دعاء بالهلكة وإخبار عما يلحقهم من الخزي والعذاب الأليم في يوم القيامة ﴿ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ أَيْ: الذين ينقصون المكيال والميزان، والله عَزَّوَجَلَّ قد أمر بوفاء الوزن ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٥]، وتطفيفهم من جهتين: استيفاء الحق إن كان لهم، ونقصه إن كان لغيرهم. وينبغي للإنسان أن يؤدي إلى الناس الذي يحب أن يؤدى إليه، وهذه معصية قوم شعيب مع كفرهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأعراف:٨٤-٩٥].

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ كأنه يقول: المطففون هم الذي إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وجاء عند ابن ماجه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «**لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ كَيْلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾** [المطففين:١]، **فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذَلِكَ**»(١)، وسند رجاله ثقات إلا عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ ففيه كلام، وعلى صحة هذا الحديث ستكون السورة مدنية، والله أعلم.

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟﴾ كالوا ما اشتروه ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ يستوفون ما لهم وزياده ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ عند البيع منهم ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ ينقصونهم على ما لهم، وهذا دليل على حب الذات والبعد عن العدل، فأوعدهم الله عَزَّوَجَلَّ بالويل والثبور.

وفي الآية الدعوة إلى الإنصاف، وقَالَ عَمَّارٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ**»(٢).

وتطفيف المكيال والميزان بلية ابتلي به التجار، وإلا هي عبارة عن جرامات تزيد وجرامات تنقص، لا تضر المشتري ولا تنفع التاجر في الغالب، ولكنها فتنة؛ بسبب الجشع لدى كثير من التجار، والله المستعان.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ ألم يستيقن هؤلاء الذين يطففون المكيال والميزان؟ ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ محشورون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومجازون على أعمالهم ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة عظمته في طوله، وفي الحساب فيه، وفي أهواله، وعظمته في أن الله عَزَّوَجَلَّ يُملي فيه السرائر، إلى غير ذلك.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا من عظمته أن الناس يقومون لرب العالمين، «**يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ**»(٣)، وفي حديث الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ**» - قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ - قَالَ: «**فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا**» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ(٤).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٢٣).
(٢) رواه البخاري معلقًا في «صحيحه» (١/ ١٥).
(٣) متفق عليه، البخاري (٦٥٣١)، ومسلم (٢٨٦٢)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٤) أخرجه مسلم (٢٨٦٤).

موطن عظيم حين تقوم لرب العالمين وأنت تنتظر الجزاء، لاسيما المفرطون في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، عند ذلك يجدون الحسرة على ما حصل منهم: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦﴾ [الفجر: ٢٤-٢٦]، فلا خلاص من الله إلا إذ رحم الله، ولا رحمة من الله عَزَّوَجَلَّ إلا لأهل التوحيد الخالص، أما أهل الشرك والتنديد فقد قال عنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء: ١١٦]، فاستحضر هذا الموقف عبد الله وهو الوقوف بين يدي الله، فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: لله، مع أن لفظ الجلالة (الله) هو الاسم الذي عليه مدار بقية الأسماء؛ ليدلل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه الخالق المالك المدبر الذي لا يعزب عنه شيء.

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: هم كل ما سوى الله، وقيل: الجن والإنس.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾

﴿كَلَّآ﴾ أي: حقًا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ إن الله عَزَّوَجَلَّ قد قدر وكتب أن الفجار: الكفار يكونون في سجين، وسجين أسفل النار كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾ [التين: ٥]، وفي حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى**»(٢)، وسمي سجين؛ لأنه سجن للكفار وبئس القرار، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ تعظيم لهذا الأمر الذين سيقعون فيه.

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ أَيْ: أن هذا السجين مكتوب في كتاب مرقوم، وليس معناه أن سجين هو الكتاب المرقوم.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).
(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤).

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ إخبار بما يلحق الكفار يوم القيامة من الخزي والنكال والعذاب الأليم، ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ يكذبون بيوم الجزاء والبعث والنشور؛ وذلك لأنهم يزعمون أن لا حياة بعد الموت، ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾ أَيْ: بيوم الدين ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ متعد لشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أثيم في قوله وفعله، من الإثم الذي يتعاطاه وأعظمه الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، والتكذيب بالبعث والنشور وغير ذلك.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ من صفات هذا المكذب أنه إذا تتلى عليه آيات القرآن ووحي الرحمن ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مسطورة مكتوبة عن الأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان:٥]، وقالوا ذلك مكابرة، وإلا فإنهم يعلمون بُعدَ رسولِ الله ﷺ عن ذلك.

﴿كَلَّا﴾ أي: حقًا، أو أنها للزجر والردع ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ حصل الران على قلوبهم، وهو ما يغطي القلوب؛ بسبب الذنوب والمعاصي، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**»(١)، فتغطى قلوبهم بالسواد حتى لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا إلا ما أشرب من هواها، وتأمل هذا فيمن حولك، إذا كان الإنسان من المبادرين إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ إذا وقعت منه المعصية يجد ثقلها ويجد حسرتها، ويبادر إلى الاستغفار منها؛ ليستريح، وإذا كان العكس تقع منه المعصية ويفرح، ويستبشر بها، والله المستعان.

وفيه دليل على أن صلاح البدن عائد إلى صلاح القلوب، كما قال النبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(٢)، وفيه دليل على أن الأعمال تؤثر على الإيمان، فإن هؤلاء ضعف إيمانهم وقل نصيبهم؛ بسبب ما يكسبونه من الأعمال السيئة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٨٢﴾ [آل عمران:١٨٢].

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أَيْ: حقًا إن المكذبين الذين تقدم ذكر أوصافهم يوم القيامة

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، والحديث في «الصحيح المسند» (١٤٣٠) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) متفق عليه، البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عن ربهم لمحجوبون، لا يرونه، وبهذه الآية استدل الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن المؤمنين يرون ربهم، فقد أخرج اللالكائي، عَنِ الرَّبِيعُ بْنِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: حَضَرْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيَّ وَقَدْ جَاءَتْهُ رُقْعَةٌ مِنَ الصَّعِيدِ فِيهَا: مَا تَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] قَالَ الشَّافِعِيُّ: فَلَمَّا أَنْ حُجِبُوا هَؤُلَاءِ فِي السَّخَطِ كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا قَالَ الرَّبِيعُ: قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ وَبِهِ تَقُولُ؟ قَالَ: نَعَمْ ، وَبِهِ أَدِينُ اللَّهَ، لَوْ لَمْ يُوقِنْ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ أَنَّهُ يَرَى اللَّهَ لَمَا عَبَدَ اللَّهَ تَعَالَى(١).

وبهذا احتج من احتج من أهل السنة أن الحجب لا يكون إلا بعد رؤية، وذهبوا إلى أن كل من في الموقف يرى الله عَزَّوَجَلَّ، ثم يحتجب عن الكفار، ودليل ذلك حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في «الصحيحين»: أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ، كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ،

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٨٨٣).

فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا»، وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، «فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ، أَوْ إِلَى الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ، قَالَ: «فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»(١)، ويستدل على رؤية جميع من في الموقف بعموم أدلة اللقي، فإن اللقي لا يكون إلا مع الرؤية.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ أَيْ: بعد المحشر وما يلحقهم فيه من الخزي، واللعن، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، يدخلون الحميم، فيصلون الجحيم ويعذبون فيها.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ يقال لهم على سبيل التبكيت والتحقير والإهانة كما قال الله

(١) متفق عليه، البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣).

عَزَّوَجَلَّ في الآية الأخرى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان:٤٩-٥٠]، أَيْ: أن هذا العذاب والخزي الذي أنتم فيه ما كنتم تكذبون به في الدنيا وتستبعدون وقوعه.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ولما ذكر الله جَلَّجَلَالُهُ حال الكافرين ناسب أن يذكر حال المؤمنين، وهذا في أغلب القرآن أنه إذا ذكر حال المشركين ذكر حال المؤمنين، وإذا ذكر حال المؤمنين ذكر حال المشركين؛ كالترهيب من طريق الكافرين، والترغيب في طريق المؤمنين.

قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ حقا ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ أَيْ: مكتوب في اللوح المحفوظ أن الأبرار سوف يكونون في عليين، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تعظيمًا لشأن الجنة، وفي حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ**»(١) في السماء السابعة، وقد قال بعض أهل العلم: هي الجنة ولا معارضة، فإن الجنة أشرف ما فيها.

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أَيْ: أنه مكتوب عند ملائكته المقربين، يطلعون عليه، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾** [السجدة:١٧]»(٢).

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ إن المؤمنين أصحاب البر والصلاح ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ في نعيم وسعة خير في جنة عالية قطوفها دانية، ونعيمها في جميع شؤونها، في النظر إلى ربهم، وفي لبسهم، وفي أكلهم وفي تبعلهم، وفي جلوسهم، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ إلى ربهم يوم القيامة، جاء في بعض الروايات «غدوة وعشية»، ويُرى الله جَلَّجَلَالُهُ في موطنين:

الموطن الأول: في المحشر، ودل عليه بالمفهوم قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤).

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

﴿لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، وبالمنطوق قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

الموطن الثاني: في الجنة، ودل عليه هذه الآية، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ [ق:٣٥]، وفي حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تفسير الزيادة بأنه النظر إلى وجه الله جَلَّ جَلَالُهُ(١).

وحال المؤمنين وصفاتهم أنك: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ بنظرك إلى وجوه المؤمنين تلاحظ ذلك ﴿نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ البهاء؛ لأن المستريح يُرى خيره في وجهه، والمعذب يُرى شؤمه في وجهه، فالمؤمنون تُشاهد النضارة في وجوههم؛ دليل على راحتهم وسعة حالهم، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ [القيامة:٢٢].

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أَيْ: لهم في الجنة نعيم عظيم وخير عميم ومنه أنهم يسقون شرابًا من رحيق مختوم نوع من الخمر، ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أَيْ: مختوم بالمسك وقيل آخره مسك، وقيل مخلوط بالمسك، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: في هذا النعيم المقيم والخير العميم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ بامتثال أمر رب العالمين، وأهم ما يمتثل هو التوحيد؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل به الرسل وأنزل به الكتب، ولأن تضييعه تضييع لصلاح الدارين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

وفيه فضيلة المسابقة إلى الخيرات، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣]، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النبي ﷺ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا**»(٢)، والمذموم هو التنافس في الدنيا؛ لقول النبي ﷺ: «**وَلَا تَنَافَسُوا**»(٣)، وعَنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»، قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**» قَالَ: أَبْقَيْتُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١).
(٢) أخرجه مسلم (١١٨).
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٣)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا(١).

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أَيْ: ممزوج هذا الشراب: من تسنيم، قيل: شراب ينزل من السماء، وقيل: شيء ظاهر كالسنام وقيل بأن ﴿تَسْنِيمٍ﴾: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فيكون من تفسير القرآن بالقرآن، أَيْ: يشرب منها المقربون، وهذا الشراب الذي يشربونه من رحيق مختوم للذين تقربوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بأعمالهم الصالحة؛ لأن الناس ليس بينهم وبين الله سبب ولا نسب إلا أن يعمل الإنسان بالتوحيد الخالص، فيقرب من ربه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(٢).

ولما أخبر بحال المؤمنين وما فيه من الخير العميم، والفضل العظيم، قال عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ كفروا بالله عَزَّوَجَلَّ وتمردوا على شرعه ورسله ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ في الدنيا بل إنهم كانوا يتضاحكون على النبي ﷺ حتى يرجع بعضهم إلى بعض في ناديهم، فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالْأَمْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلَا جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالنَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ، فَجَاءَتْ وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاتَهُ، رَفَعَ صَوْتَهُ، ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والحديث في «الصحيح المسند» (٩٨٨) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «**اللهُمَّ، عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضِّحْكُ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**اللهُمَّ، عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ**» - وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ - فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّى صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ - قَلِيبِ بَدْرٍ - قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: «**الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ غَلَطٌ فِي هَذَا الْحَدِيثِ**»(١).

فجازاهم الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك في يوم القيامة.

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ أَيْ: إذا مر الكفار بالمؤمنين ينظر بعضهم إلى بعض ويغمزونهم بالكلام والفعال فيقولون هؤلاء كذا وهؤلاء كذا؛ احتقارًا وازدراء.

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ﴾ أَيْ: الكفار في الدنيا ﴿ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ ينقلبون على حال سرور؛ بسبب سخريتهم وإهانتهم للمؤمنين ﴿ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ ﴾ أَيْ: رأوا المؤمنين في الدنيا ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ وهذا من تقليب الحقائق كما قال فرعون: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩ ﴾ [غافر:٢٩]، كيف يصبح عابد الصنم هو المهتدي وعابد الله عَزَّوَجَلَّ هو الضال، هذا شيء عجاب.

﴿ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ أَيْ: أن المشركين لم يرسلوا على المؤمنين ليحفظوا أعمالهم ويراقبوهم في كل صغيرة وكبيرة، بل إن الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل ملائكة ﴿ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢ ﴾ [الانفطار:١١-١٢] يسطرون أعمال جميع الناس.

فلماذا هؤلاء الكفار يراقبون حال المؤمنين إن مَنَّ الله عليهم بسعة طعنوا فيهم، وإن ضُيق عليهم في معائشهم سخروا منهم، وإن مرض أحدهم ضحكوا عليه، وإن تأخر الوحي سخروا منه، حتى قالت تلك المرأة: ما أرى محمدًا إلا قد قلاه ربه، سبحان الله! يزعمون أن محمدًا ساحرٌ، كاهنٌ، عرافٌ، كذابٌ، فلما فتر الوحي زعموا أن الله قد قلاه، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ ﴾ [الضحى:٣](٢)، أَيْ: ما تركك ولا قلاك ولا كرهك.

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ﴾ أَيْ: يوم القيامة. ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴾ جزاءً وفاقًا، والجزاء من جنس العمل، كان الكفار يضحكون على المسلمين في الدنيا فكان الجزاء أن المسلمين يضحكون

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩٤).

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٩٥٠)، مسلم (١٧٩٧)، عَنْ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عليهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الصافات:٥٠-٥٩]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف:٤٤]. فدار الدنيا دار اختبار وابتلاء، قد يُبتلى فيها المؤمن ويُمحص، ودار الآخرة دار عز المؤمنين، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»(١).

وضحك المؤمنين على الكفار حال جلوسهم ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ السرر المرتفعة، تكون تحت الخمائل ﴿يَنظُرُونَ﴾ يتمتعون، ومن أعظم نعيمهم أنهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ربهم، و﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى نعيمهم الذي في الجنة، وربما نظروا إلى أهل النار، ويحمدون الله عَزَّوَجَلَّ على ما هم فيه من السلامة.

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ هل جوزي الكفار ﴿مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أَيْ: على الذي كانوا يفعلونه من الأعمال الطالحة والجواب: نعم، يجازون يوم القيامة على عملهم سوء الجزاء والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٦).

مكية الجزء الثلاثون سورة الانشقاق آياتها ٢٥

سُورَةُ الانشِقَاقِ ، مَكِّيَّةٌ، وفي حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ**: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾»(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ أَيْ: واذكر إذ تشققت السماء وذهب ترابطها، وسقطت نجومها وانكدرت كواكبها، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أصغت، والأذن هو الاستماع والمعنى أنها أصغت لكلام ربها وأمره بالتشقق ﴿وَحُقَّتْ﴾ حق لها أن تلتزم أمر الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لا يعجزه شيء، وإن تمردت على أمره فإنما هو قائل: كن فيكون، ولذلك حين عرضت عليها الأمانة أبت أن تقبلها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب:٧٢].

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ قيل: وسعت يوم القيامة حين يحشر الناس عليها ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ ألقت ما فيها من المدفونين في قبورها وما قد حملت من أصناف المخلوقين، فإنهم يبعثون يوم القيامة «**حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»(٢)، كما قال الله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [الزلزلة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾ [الانفطار:٤]، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ استمعت لكلام ربها ﴿وَحُقَّتْ﴾ حق لها ذلك؛ لأنها مخلوقة مأمورة بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ نداء للإنسان المكلف ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ إنك صائر إلى الله، وإنك في طريقك إلى الله ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ يوم القيامة، واللُّقي يكون معه النظر، حتى نقل ابن خزيمة وابن القيم وغير واحد على ذلك الإجماع، وهو مما استدل به أهل العلم على رؤية جميع من في

---

(١) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والترمذي (٣٣٣٣).

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الموقف الرب عَزَّوَجَلَّ ثم يحتجب عن الكافرين.

فكل إنسان كادح إلى ربه، المؤمن، والكافر، إلا أن المؤمن يكون كدحه وسيره بالأعمال الصالحة المقربة من الله عَزَّوَجَلَّ، والفاجر بعكسه، فحال المؤمن كما قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤] هذا المؤمنون، وحال المجرم كما قال تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ:٤٠].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أصناف الناس في يوم القيامة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهم أهل الإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة:١٩]، وقال: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء:٧١].

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أَيْ: تعرض أعماله عليه، ففي حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ**»(١).

وعَنْ أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا**» فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ(٢).

وقد فسر النبي ﷺ الحساب بالعرض: فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ**». قَالَتْ: قُلْتُ: أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قَالَ: «**ذَلِكِ الْعَرْضُ**»(٣)؛ لأن النقاش إنما يقع من الكافرين المعرضين الكذابين ومن إليهم من

(١) متفق عليه، البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠).
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، مسلم (٢٨٧٦).

المنافقين، وأما المؤمن حين يوقف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ هو عالم بأن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية، فما يكون منه إلا أن يعترف لله عَزَّوَجَلَّ بكل ذنب حصل منه، فيتجاوز الله ويعفو ويصفح؛ لأنه العفو الغفور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ بعد العرض والحساب ينقلب إلى أهله في الجنة مسرورًا فرحًا بما أكرمه الله عَزَّوَجَلَّ من الكرامة، ومنها قول رسولِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا**»(١)، ومن الكرامات النظر إلى وجه الله العظيم، والشرب من حوض النبي الكريم، وشفاعة النبي ﷺ فيهم، وغير ذلك.

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ الكفار، يؤتون كتبهم من وراء ظهورهم بشمائلهم، وهو معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥﴾ [الحاقة:٢٥]، لما فيه من الأعمال السيئة الدالة على فساد ظاهره وباطنه.

﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ يدعو على نفسه بالويل والثبور، والحال كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾ [الفرقان:١٤] ادعوا على أنفسكم بالهلاك الكثير، فلن يستجاب لكم، ويخلَّدون في نار جهنم ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر:٣٦].

﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ يُلقى في النار تحيط به من جميع جوانبه والله المستعان ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء:٥٦]، وسبب الخزي الذي هو فيه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ فأمن مكر الله جَلَّجَلَالُهُ والله يقول: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، أمن في الدنيا فخاف في الآخرة، والمؤمن خاف في الدنيا فأمن في الآخرة ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: «**وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ﴾ أَيْ: تيقن؛ لأن الظن يأتي بمعنى اليقين ﴿أَن لَّن يَحُورَ﴾ أن لن يرجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وكان مستيقنًا بذلك، بل كان يستبعد الرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه ابن حبان (٦٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٩).

﴿ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۢ﴾ [السجدة:١٠]، ﴿بَلَىٰ﴾ إنه سيرجع، وزد على ذلك ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ كان به عليمًا مطلعًا على جميع أعماله، زد على ذلك أن الله قد وكَّل ملائكة يكتبون ما عليه ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٨٠].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ أَيْ: أقسم بالشفق وهو الحمرة، وقيل البياض، والصحيح أن الشفق اسم لمجموعهما: الحمرة والبياض، وهو الضوء الذي يكون بعد غروب الشمس، إلا أن الشفق الذي تتعلق به صلاة العشاء هو الحمرة.

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وأقسم بالليل، وما ضم وجمع ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ وأقسم بالقمر إذا كمل وتتام، ويكون ذلك في نصفه.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالًا بعد حال، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩]: «**حَالًا بَعْدَ حَالٍ، قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ** ﷺ»(١)، والله أعلم.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: ما الذي جعل الكفار يعرضون عن الإيمان والتزام شرع الله عَزَّوَجَلَّ مع توافر الحجج وظهورها: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ مع أن القرآن فيه من المواعظ والذكرى ما تتشقق به الحجارة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ﴾ [الرعد:٣١]، أَيْ: لو كان شيء مقروء ومكتوب تسير به الجبال الرواسي، وتقطع به الأرض الصلبة، لكان هذا القرآن الذي بكت من قراءته قلوب المؤمنين ووجلت ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال:٢]، وازدادت به قساوة قلوب الكافرين، فما لهم لا يؤمنون بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٠).

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ سواءً من غيرهم أو قرأوه هم ﴿لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ: يَا وَيْلِي - أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ**»(١).

وقد قرأ النبي ﷺ سورة الانشقاق في صلاة العشاء وسجد، كما جاء من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «الصحيحين» فعَنْ أَبِي رَافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ العَتَمَةَ، فَقَرَأَ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق:١]، فَسَجَدَ، فَقُلْتُ لَهُ: قَالَ: «سَجَدْتُ خَلْفَ أَبِي القَاسِمِ ﷺ، فَلاَ أَزَالُ أَسْجُدُ بِهَا حَتَّى أَلْقَاهُ»(٢).

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ والسبب الذي جعلهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون؛ أنهم يكذبون بوعد الله ووعيده، ويكذبون محمدًا ﷺ الذي أرسل إليهم ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات:٥٢] فبسبب اعتقادهم أنه ساحر أو مجنون كذبوه وردوا دعوته.

ولما أخبرهم ﷺ أنه أسري به إلى بيت المقدس، كلهم تعاظم ذلك، مع أنه وصف لهم بيت المقدس وصفًا دقيقًا، بينما المؤمنون إذا أخبروا بشيء قالوا آمنا وصدقنا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، صَلاَةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ**» فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ، فَقَالَ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، - وَمَا هُمَا ثَمَّ - وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ، فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ هَذَا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، يَوْمَ لاَ رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي**» فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، - وَمَا هُمَا ثَمَّ -**»(٣).

فكان الصحابة رضوان الله عليهم على غاية من تصديق النبي ﷺ، وكان الكفار على غاية من تكذيبه فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء:٢١٤]، وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ؛ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: «**يَا صَبَاحَاهْ**». فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ**

(١) أخرجه مسلم (٨١).
(٢) البخاري (٧٦٦)، ومسلم (٥٧٨).
(٣) متفق عليه، البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨).

مِنسَفِحِ هَذَا الْجَبَلِ؟ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا. ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد:١]، وَقَدْ تَبَّ، هَكَذَا قَرَأَهَا الأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ(١)، ويقول هرقل لأبي سفيان: «هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ»(٢)، وقد يكون تكذيبهم أيضا بسبب ما عندهم من الحسد والكبر والعناد ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات:٣٥].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أَيْ: والله مطلع ومحصي لما هم عليه من الحال، ولما جمعوه في قلوبهم من الكبر والحسد، والبغي، والغل، الذي أوجب لهم عدم الدخول في الإسلام.

قَالَ أَبُو جَهْلٍ: «إِنَّا كُنَّا وَأَنْتُمْ كَفَرَسَيْ رِهَانٍ فَاسْتَبَقْنَا الْمَجْدَ مُنْذُ حِينٍ، فَلَمَّا تَحَاذَتِ الرُّكَبُ قُلْتُمْ مِنَّا نَبِيٌّ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا تَقُولُوا مِنَّا نَبِيَّةٌ، لَا أَعْلَمُ فِي قُرَيْشٍ أَهْلَ بَيْتٍ أَكْذَبَ رَجُلًا، وَلَا أَكْذَبَ امْرَأَةً مِنْكُمْ، فَآذَوْهُ يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ الْأَذَى»(٣) أَيْ: العَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يكتمون ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أخبرهم أن لهم عذابًا شديدًا في القيامة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثنى الله عَزَّوَجَلَّ أهل الإيمان والعمل الصالح، الذين يلتزمون شرع الله ظاهرًا وباطنًا ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ لهم جزاء على إيمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ [الواقعة:٣٣]، وقال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود:١٠٨]، إذا أكرمهم الله عَزَّوَجَلَّ بدخولهم الجنة كانوا في خلود لا موت، يتنعمون، ويأكلون، ويشربون ويلبسون، ولا ينامون؛ لأن النوم أخو الموت، فينعم المؤمنون نعيمًا كاملًا تامًا في جميع أوقاتهم ولحظاتهم، ومن أعظم نعيم الجنة النظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك كان النبي ﷺ يقول: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»(٤).

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨).
(٢) متفق عليه، البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٦٠).
(٤) أخرجه النسائي (١٢٢٩)، عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مكية الجزء الثلاثون سورة البروج آياتها ٢٢

سُورَةُ الْبُرُوجِ ، مِنَ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ، وكان النبي ﷺ يقرأ بها في صلاة العشاء، فعن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بِالسَّمَاءِ ﴿وَالطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق:١]، ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج:١]، وَنَحْوِهِمَا مِنَ السُّوَرِ»(١)، وأمر ﷺ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا أن يقرأ بها في صلاة العشاء، قائلًا: «يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ اقْرَأْ سُورَةَ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝١﴾ [الليل:١]، وَ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]، وَ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج:١]»(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالسماء العالية، ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أَيْ: ذات المنازل والنجوم السيارة، وقيل: بأن البروج هي منازل الشمس والقمر، وقيل: بأنها النجوم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝١٦﴾ [الحجر:١٦]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١]. ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وأقسم الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا باليوم الموعود وهو يوم القيامة؛ لأنه آت لا محاله، وأقسم به لأنه يوم عظيم فيه من الأهوال ما الله به عليم.

﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾: يوم عرفة، وقيل: الشاهد: محمد ﷺ، والمشهود: يوم القيامة، وقيل بأن الشاهد: هو الله، والمشهود: هو مخلوقاته، قَالَ الْبَغَوِيُّ: الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الشَّاهِدَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَالْمَشْهُودُ: يَوْمُ عَرَفَةَ(٣). اهـ.

وهو لفظ عام حيث أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالشاهد والمشهود ما كان، وفي «مسند أحمد» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج:٣]: «الشَّاهِدُ: يَوْمَ الْجُمُعَةِ،

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٠٥)، والترمذي (٣٠٧)، والحديث في «الصحيح المسند» (٢٠٠) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) أخرجه ابن خزيمة (٥٢١)، وابن حبان (١٨٤٠).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٨/٣٦٦).

وَالْمَشْهُودُ: يَوْمَ عَرَفَةَ، وَالْمَوْعُودُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

﴿قُتِلَ﴾ أَيْ: لعن وأهلك ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أَيْ: الكفار الذين خدوا الأخاديد في الأرض وأضرموا فيها النيران؛ لإحراق المؤمنين وامتهانهم، وقد اختلفوا في أصحاب الأخدود فقيل بأنهم قوم من فارس أراد ملكهم أن يحل المحارم فأبى علماءهم فأحرقهم، وقيل بأنهم قوم من الحبشة، وقيل قوم من اليمن، وقيل غير ذلك، ومن أصرح ما جاء في ذلك مرفوعًا عن النبي ﷺ حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم(٢): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ، حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ، حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/٣٦٦).

(٢) برقم (٣٠٠٥).

فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ، فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ، فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ».

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ أَيْ: النار التي أضرموها والتهبت نيرانها وألقوا فيها الناس أحياء، وهذا منظر فضيع، وظلم عظيم، ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أَيْ: أن الكفار كانوا قاعدين على هذه النار؛ يرصدون عذاب الناس ويلقون من تردد فيها، ومن ارتد عن دينه تركوه، وهذا من أبشع الأحوال.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أَيْ: أنهم مطلعون على هذا الحال ويرقبون عذاب المؤمنين، ومعناها أيضًا حضور، وهم في فعلهم بالمؤمنين حضور لهذا الموقف.

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: ما نقموا من المؤمنين: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ لم يكن من المؤمنين قتل نفس، ولا قطع طريق، ولا انتهاك عرض، ولا ما يستوجب أن يقتلوا، إلا أنهم آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وعموم هذه الآية ينطبق على كل من حارب حملة دين الله وقتلهم أو قاتلهم، لا لذنب اقترفوه، ولا لجرم حصلوه؛ إلا أنهم اعتقدوا الحق ودعوا إليه.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ ذي العزة ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المتصفِ بالمحامد والمكارم، ﴿ٱلَّذِى﴾ أَيْ: الله العزيز الحميد ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وما بينهما ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ

﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، ومن أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشهيد، فهو عالم بالعالم المشهود وغير المشهود، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الرعد:٩] وهو المطلع الحاضر الذي لا يغيب عنه شيء، في الليلة الظلماء على حجرة سوداء نملة سوداء تسير، فيبصرها ويعلم حالها، لا تخفى عليه خافية.

ثم قال جَلَّ جَلَالُهُ متوعدًا أهل الإجرام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ بالتحريق والرد عن دينهم ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ من هذا الأمر العظيم، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ، قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى(١).

والله إن في هذا دلالة على عظم التوبة لأنها مكفرة للذنوب والمعاصي والسيئات، فإن من تاب إلى الله تاب الله عليه وأبدل سيئاته حسنات، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان:٧٠]، وقد أحرقوا المؤمنين وعذبوهم ونكلوا بهم، فأخبر أنهم لو تابوا تاب عليهم وارتفعت عنهم المطالبة والمؤاخذة.

﴿فَلَهُمۡ﴾ أَيْ: من مات على كفره وعناده وظلمه ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان، ولا سواءً؛ فإنهم أحرقوا المؤمنين بنار ضعيفة ويُحرقون بنار قوية تزيد عليها بتسعة وستين جزءًا، ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ**» قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**»(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن حال المؤمنين في الآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إن الذين آمنوا بالله بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التزموا العمل الصالح في أنفسهم ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ﴾ جمع جنة وهذا وعد عظيم، فلهم بساتين عظيمة، وقصور عالية رفيعة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٣).

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهار الخمر واللبن والماء والعسل المصفى كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد:١٥]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ هذا هو الفوز الذي ليس بعده فوز، فإن المؤمن إذا أدخل الجنة يقال له: «**يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**»، ينسى كل شيء، ينسى كل ما نزل به من ظلم وقهر وعذاب وشدة وضيق حال، «**هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا**» وهكذا الكافر إذا أغمس غمسة في النار قال الله له: «**يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ، لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ**»(١)، وقال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ [النبأ:٣١] منازل يسلمون فيها من كل آفة وبليه.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ متوعدا للكفار في كل زمن وحين: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ إن بطش الله وانتقامه للمخالفين لدينه وشرعه، والمحاربين لأوليائه من رسله ومن دونهم ﴿لَشَدِيدٌ﴾ إلا أنه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢].

﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيْ: الرب عَزَّوَجَلَّ من قوته وقدرته ﴿هُوَ يُبْدِئُ﴾ الخلق من العدم ﴿وَيُعِيدُ﴾ النشأة الآخرة يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ المتجاوز العافي عن عباده المؤمنين ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ المحبوب من أوليائه والمحب لأوليائه، فإن الود هو صافي المحبة، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٩٠].

واقتران هذا الاسم باسم الرحيم والغفور؛ يدل على تجاوز الله عن أوليائه ومحبته لهم، فكل من تاب إلى الله وغفرت ذنوبه كان محبوبًا عند الله عَزَّوَجَلَّ، فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا**

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»(١).

ومن وده لأوليائه أنه يدافع عنهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج:٣٨].

ومن وده لهم أنه يهديهم ويثبتهم، كما قال: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة:١٦].

ومن وده لأوليائه أن يوفقهم لكل خير «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»(٢).

ومن وده لأوليائه أنه يغضب لغضبهم ويرضى لرضاهم، فعَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ، وَصُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللَّهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللَّهِ مَأْخَذَهَا. قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ». فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ، أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَخِي(٣).

ووده لأوليائه ظاهر في حركاتهم وسكناتهم، وأعظم ما يكرمون به أنهم يرزقون الرؤية إلى وجهه يوم القيامة.

فلما أخبر عن شدة بطشه، وأخبر عن قدرته على البداءة والإعادة أتى بالإخبار أنه الغفور الودود؛ حتى لا يقع المسلم في القنوط من رحمة الله، وإنما يبطش الله عَزَّوَجَلَّ بالكافرين والمحاربين لدينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩﴾ [الكهف:٥٩]، وقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ [العنكبوت:٤٠].

ثم وصف نفسه المقدسة بقوله: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ أَيْ: أن الله هو صاحب العرش، وذكره دون غيره؛ لشرفه، فهو أعلى المخلوقات وأعظمها، وعليه استوى الرب الأعلى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو عرش كريم عظيم واسع.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٠٤).

﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ هذا وصف لله عَزَّوَجَلَّ، أي: أنه الواسع المعظم الممجد.

وعلى قراءة: الجر في ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أَيْ: أن العرش واسع، وفي الأثر عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: «مَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي الْكُرْسِيِّ، إِلَّا بِمَنْزِلَةِ حَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ»(١) فالعرش مخلوق عظيم واسع؛ وكان من دعاء المؤمن: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»(٢). فلو كان شيئًا أثقل من العرش لذكره النبي ﷺ في هذا الموطن.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أَيْ: أن الله يفعل ما يشاء وهذه صيغة مبالغة من الفعل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، وقال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢]، فيرزق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من شاء، ويمنع من شاء، وفي الحديث: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ**»(٣).

ويستدل بهذه الآية أهل العلم على إثبات الصفات الفعلية لله عَزَّوَجَلَّ فهو يغضب، ويرضى، ويحب متى شاء، وكيف شاء، ومن شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه الآية من العموم الدال على وصف الله عَزَّوَجَلَّ بكل كمال، فإن العاجز عن بعض الأعمال عنده نقص بقدر عجزه، فتجد أن الإنسان يستطيع أن يفعل شيئًا، لكنه لا يستطيع أن يفعل كل ما يريد لضعفه؛ أما الله - فله المثل الأعلى - فعال لما يريد، أراد أن يهلك أمة أهلكها، أهلك عادًا بالريح، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف. وفرعون بالبحر، وقريش بالقتل، فلا يعجزه شيء، أراد أن يخلق السماوات والأراضين خلقها، ويوم القيامة يريد أن يبدل الأرض غير الأرض والسموات يبدلها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

ثم قال لمحمد ﷺ مسليًا له وواعدًا له بالنصر والظفر: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ هل جاءك خبر الجنود الذين سبقوا هذه الأمة، الذين تمردوا على شرع الله وأمره، ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ذكره؛ لشدة

---

(١) أخرجه بن منصور (٤٢٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٦٣)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٥٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠١٨٣)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٦)، عَنْ جُوَيْرِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) متفق عليه، البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣)، عَنْ الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

غطرسته إذ أنه زعم أنه الرب الأعلى ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤] وادعى أنه الإله المعبود فقصمه الله عَزَّوَجَلَّ، وجعله آية لمن بعده حيث أغرقه وأُصعد على مكان؛ حتى يراه الناس، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٩٢]، قال العلماء: السبب أن فرعون حين مات أظهر؛ حتى لا يقول الناس إنه الرب وإنما اختفى، فجعله الله آية ظاهرة لمن معه، أما ما يقوله كثير من الناس من أن جثة فرعون ما تزال موجودة الآن هذا كلام ليس عليه دليل وإنما الآية متعلقة بذلك الوقت، ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح الذين عقروا الناقة وكان مقرهم في حضرموت، ويمتدون إلى شمال الجزيرة.

ثم قال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ وهذا خبرٌ من الله أنَّ الذين كفروا مهما جاءتهم الآيات والدلائل البينات، إلا أنهم في تكذيب لخبر ربهم ولدعوة رسولهم.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ لا يفوتونه، يعلم ما هم عليه فيحفظها لهم، ويجازيهم عليها يوم القيامة وإذا أراد أن يهلكهم أهلكهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة:١٩] لا يستطيعون منه فرارًا، ولا يستطيعون لبطشه دفعًا، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أَيْ: أن هذا القرآن الذي بين أيديكم مقروء مجيد واسع في أحكامه، وواسع في مواعظه وواسع في علومه، وممدوح ومحمود؛ لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو محفوظ وكريم.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ قيل ذكره، وقيل بأنه أيضًا مكتوب في اللوح المحفوظ الذي حُفظ عن عبث العابثين، وعن الزيادة والنقصان، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لما خلق القلم قال: اكتب ما كان وما يكون إلى قيام الساعة» كما جاء في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ فَقَالَ: الْقَدَرَ، فَجَرَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**»(١)، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٨٤٠).

مكية الجزء الثلاثون سورة الطارق آياتها ١٧

سُورَةُ الطَّارِقِ ، مَكِّيَّةٌ، وقد كان النبي ﷺ يقرأ بها في صلاة العشاء، وأمر معاذًا بقراءتها، وهي من وسط المفصل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾

قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ﴾ يقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالسماء المرفوعة، ﴿ وَالطَّارِقِ ﴾ هو النجم الذي يطرق بليل، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ معظمًا لشأنه ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ الذي يثقب بضوئه من السماء إلى الأرض، وقيل هو زحل؛ لأنه في السماء السابعة ويصل ضوءه إلى الأرض وقيل يثقب الشياطين إذا أرسل عليها، وقال عكرمة مضيء ومحرق للشياطين، وهو مفرد أضيف فيعم كل نجم يوصف بهذا الوصف، فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالسماء والنجوم الثاقبة في ضوئها، العالية في ارتفاعها، إذ أنها شاهدة على وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ.

أَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ ❁❁❁ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ جَاحِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ❁❁❁ وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ❁❁❁ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أي: كل نفس من الأنفس عليها حافظ يحفظها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد:١١]، حتى إذا جاء أمر الله الذي قدره على العبد في اللوح المحفوظ خلي بين العبد وبين ما يحصل له، وقيل: عليها حافظ يحفظ أعمالها والكل صحيح، وهذا هو المقسم عليه من أن النفس المكلفة عليها حافظ لأعمالها مبين لها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الانفطار:١٠-١١].

وفي هذه الآية وعيد عظيم يستفيده المؤمنون من أن أعمالهم محفوظه وأقوالهم مسطرة،

فيبادرون بالتوبة من المعصية ويلتزمون الطاعة، ولهذا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(١)، وكَانَ يَقُولُ: «**يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ**»(٢)، قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤].

وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ تنبيه للإنسان على ضعف أصله وأراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يبين لهؤلاء المعارضين أنه لا يعجزه شيء، وأنه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه وله المثل الأعلى، فلينظر كل إنسان إلى نفسه ويتفكر فيها ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:١٨٥] أَيْ: أولم يتفكروا في خلق الله عَزَّوَجَلَّ للسموات الواسعة وللأرض الشاسعة، فهو يقول: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ صيغته الخبر وهو أمر، كما قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، وقال تعالى أمرًا بالتفكر في مخلوقاته: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠﴾ [الغاشية:١٧-٢٠]، ﴿مِمَّ﴾ أَيْ: مبدأ نشأته ما كان، فكان أبوه آدم من تراب، وأما خلق بقية الناس ﴿خُلِقَ﴾ أَيْ: تكونت خلقته ﴿مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ وهو المني الخارج بدفق، والدفق هو الذي يميز المني عن غيره من المياه، فالمذي والودي يخرج بغير دفق، وأما المني فإنه يخرج بدفق ولذة، ويوجب الغسل، وقد قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨﴾ [الواقعة:٥٨].

والمني طاهر على القول الصحيح من أقوال أهل العلم؛ فمنه خَلَقَ الله الأنبياء، والمرسلين، والمؤمنين، والموحدين، والنبي ﷺ ربما صلى بالثوب الذي جامع فيه أهله كما في حديث أُمَّ حَبِيبَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا(٣)، وفي حديث عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قَالَتْ: «وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَفْرُكُهُ مِنْ ثَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرْكًا فَيُصَلِّي فِيهِ»، وفي رواية: «وَإِنِّي لَأَحُكُّهُ مِنْ ثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَابِسًا بِظُفُرِي»(٤).

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾ أَيْ: هذا المني الدافق يخرج من بين صلب الرجل، أَيْ: ظهره، ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أَيْ: ترائب المرأة، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: تَرِيبَةُ الْمَرْأَةِ موضع الْقِلَادَةِ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: التَّرَائِبُ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ إِلَى الصَّدْرِ(٥). وقيل: ترائب الرجل؛ لأن المرأة يقال لمكان ترائبها ثدي،

---

(١) أخرجه أحمد (١٢١٠٧)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٢) أخرجه أحمد (٩٤٢٠)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.
(٣) أخرجه أحمد (٢٧٤٠٤).
(٤) أخرجه مسلم (٢٨٨)، (٢٩٠)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.
(٥) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٥).

والرجل لما لم يكن له ثدي قيل: ترائب، وكلا المعنيين صواب، فإن الجنين يأتي من اختلاط ماء الرجل بماء المرأة، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان:٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة:٣٧-٤٠].

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ هذه هو المقسوم عليه بأن الله عَزَّوَجَلَّ على رجع الإنسان يوم القيامة لقادر ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١]، ويرجعهم تعالى بأجزائهم وجميع شأنهم، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ، إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ، خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ**»(١)، وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٢)، ثم ينفخ في الصور فإذا هم قيام ينظرون، ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١].

وقد ذكر ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى الآية قولين:

أَحَدُهُمَا: عَلَى رَجْعِ هَذَا الْمَاءِ الدَّافِقِ إِلَى مَقَرِّهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ لَقَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَغَيْرُهُمَا.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: إِنَّهُ عَلَى رَجْعِ هَذَا الْإِنْسَانِ الْمَخْلُوقِ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، أَيْ: إِعَادَتُهُ وَبَعْثُهُ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ لَقَادِرٌ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْبَدْءِ قَدَرَ عَلَى الْإِعَادَةِ. وَهَذَا الْقَوْلُ قَالَ بِهِ الضَّحَّاكُ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ(٣). اهـ.

﴿يَوْمَ﴾ أَيْ: يوم القيامة ﴿تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ فيصبح السر علانية، المؤمن يعرف بوجهه، والكافر يعرف بوجهه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، ففي الدنيا قد يتزيّا الإنسان بخلاف باطنه، ومع ذلك قد يفضح، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد:٢٩-٣٠]، وفي «الصحيحين» عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٨/٣٧٦).

قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

ثم قال تعالى: ﴿فَمَالَهُۥ﴾ أَيْ: الإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ أَيْ: في نفسه فيدفع عنها ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ أَيْ: من غيره، وهذا غاية الضعف، فانظر إلى الطفل الصغير الذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، يكون له من يقوم بشأنه، فإذا كبر يقوم هو بأمره، أما هذا فما له من قوة في نفسه فيدفع ولا ناصر من غيره فيرفع، بل في غاية الضعف، وغاية الذل والحقارة، وليس إلا رحمة الله للمؤمنين، ونقمة الله على الكافرين، فمن الآن اجعل لك ناصرًا؛ فإن الله نعم المولى ونعم النصير، ينصر عباده في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١-٥٢] أما المجرم الكافر فما له من قوة ولا ناصر، بل يسحب إلى النار سحبًا، ويساق إليها سوقًا لا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ وهذا قسم آخر أقسم ربنا عَزَّوَجَلَّ بالسماء ذات الرجع؛ أَيْ: ذات المطر؛ وقيل السحاب الذي فيه المطر سمي بذلك لأنه يرجع بين الحين والآخر، وينزل المطر من السحاب المسخر بين السماء والأرض، وإنما أضيف إلى السماء؛ لأن كل ما علا يسمى سماء، فيرجع يرزق العباد كل عام، وقيل: المعنى أن الأعمال ترجع إلى السماء وترفع إليها، وقيل ترجع نجومها وشمسها وقمرها أي: حين غروبها وشروقها وكلها معانٍ تفيدها الآية.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ الأرض الواسعة التي تتصدع عن النباتات، وهذا قول الجمهور، وقيل: حين تتصدع القبور فتُخرج من فيها، فأقسم الله بالسماء وما يرجع إليها، والأرض وما يخرج منها.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ﴾ هذا هو المقسم عليه؛ أَيْ: أن القرآن هو قول الله وكلامه ووحيه، ﴿فَصْلٌ﴾ بين واضح، حق لا مزح فيه ولا هزل، فإذا أخبر الله بشيء فهو كائن لا محاله.

مَـا قَضَـى اللَّهُ كَـائِنٌ لَا مَحَالَـهْ ❁❁❁ وَالشَّـقِيُّ الْجَهُـولُ مَـنْ لَامَ حَالَـهْ

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ لأنه كلام الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المنزهة عن الهزل والنقص والعيب، فجاء بالقرآن مفصل موضح مبين تقام به الحجة على العباد؛ لأن الكلام الهزل قد لا يؤخذ به، لو كان هناك إنسان يهزل ويمزح تجد أن بعضهم ما يأخذ بكلامه يقول والله كنت أظن أنك تمزح، فالله عَزَّوَجَلَّ يخبر بأن قوله فصل بين الحق والباطل، ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ بل هو الحق الواقع، ومع ذلك فإن الكفار يكذبون به.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أَيْ: الكفار ﴿يَكِيدُونَ﴾ بهذا الدين وأهله ﴿كَيْدًا﴾ مكرًا كبارًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟

(١) متفق عليه، البخاري (٣١٨٦)، ومسلم (١٧٣٥).

﴿مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح:٢٢]، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣]، فهذا هو حالهم، مع أهل الإسلام في كل وقت وحين وإلى أن تقوم الساعة، لكن مع ذلك مكرهم وكيدهم بائر لأن الله هو المتربص بهم ولهذا قال: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أَيْ: أن الكفار ومن إليهم يمكرون بالمسلمين ويكيدون المسلمين، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يكيد هم ويمكر بهم، والغالب الله عَزَّوَجَلَّ الذي لا يعجزه شيء، وربما أهلكهم وسلط عليهم بنفس فعلهم. فنحن نؤمن بوعد الله ووعيده، وعد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين والحفظ والكلاءة، ووعيد الله على الكافرين والمخالفين.

والمكر والكيد من صفات المقابلة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يوصف بكل كمال وينزه عن كل نقص.

والصفات ثلاثة أنواع:

- **الأول: صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه:** كالسمع والبصر والقدرة، فهذه تثبت لله عَزَّوَجَلَّ.
- **الثاني: صفات نقص لا كمال فيها بوجه من الوجوه:** كالعجز، والصمم، والكسل، فهذه ينزه الله عَزَّوَجَلَّ عنها.
- **الثالث: صفات كمال من وجه ونقص من وجه:** كالكيد، والمكر، والمخادعة والاستهزاء، فهذه لا تثبت مطلقًا وإنما تثبت في حال المقابلة، ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ يعني انتظر ما سيحصل للكافرين فإنما يُمهلون ثم يكون عاقبتهم خزيًا وبوارًا، فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢][(١)]، ودائمًا تكون العاقبة للتقوى، وقد يُبتلى المؤمنين ابتداءً ويُمحصون ويُختبرون، وتُرفع درجاتهم، لكن بعد ذلك يسلط الله على الكافرين ويدمدم عليهم، فإنه لا يعجزه شيء.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

مكية — الجزء الثلاثون سورة الأعلى — آياتها ١٩

سُورَةُ الأَعْلَى ، وهي سورةٌ مكيَّة، ومن السنة أن الإمام يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَالْجُمُعَةِ بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾ [الأعلى:١]، وَ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ١﴾ [الغاشية:١]، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي الْجُمُعَةِ بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾ [الأعلى:١]، وَ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ١﴾ [الغاشية:١]، قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ؛ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ[١].

فمن حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُوتِرُ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ، كَانَ يَقْرَأُ فِي الْأُولَى بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾ [الأعلى:١]، وَفِي الثَّانِيَةِ بِـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾ [الكافرون:١]، وَفِي الثَّالِثَةِ بِـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص:١]، وَيَقْنُتُ قَبْلَ الرُّكُوعِ، فَإِذَا فَرَغَ، قَالَ عِنْدَ فَرَاغِهِ: «**سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ**»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يُطِيلُ فِي آخِرِهِنَّ[٢].

وفي «الصحيحين» أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ الْبَقَرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ، فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟**». ثَلَاثًا، «**اقْرَأْ**: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ [الشمس:١] **وَ**: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾ [الأعلى:١]. **وَنَحْوَهَا**»[٣].

وثبت أن النبي ﷺ قرأ بها في الظهر فعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾ [الأعلى:١][٤]، وربما قرأ بها في العصر.

وقال البراء ابن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إن النبي ﷺ لم يقدم المدينة حتى قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾ [الأعلى:١][٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٨).
(٢) أخرجه النسائي (١٦٩٩).
(٣) أخرجه البخاري (٦١٠٦)، ومسلم (٤٦٥)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٤) أخرجه مسلم (٤٦٠).
(٥) أخرجه البخاري (٣٩٢٥).

❖ ومن أسمائها: «سَبِّح» كما جاء عن ابن عباس، إذ لم تفتتح سورة في القرآن بهذا اللفظ إلا هذه السورة.

❖ ومن أسمائها: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ كما سماها رسول الله ﷺ.

❖ ومن أسمائها: الأعلى؛ إذ ذكر فيها اسم الله الأعلى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ لمحمد ﷺ: ﴿سَبِّحِ﴾، والأمر لمحمد ﷺ أمر لأمته إلا إذا جاء الدليل بخصوصية محمد ﷺ، ومعنى ﴿سَبِّحِ﴾: نزه الله عَزَّوَجَلَّ عن النقائص والمعايب، وكل صفة ذميمة، والله عَزَّوَجَلَّ له المثل الأعلى، وقد سلك النبي ﷺ هذا المسلك، فكان يقول في سجوده: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»(١)، و«**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»، يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ(٢).

ومما يدل على عظم تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن النقائص والمعايب أن من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ: السلام القدوس، وقد امتدح الله عَزَّوَجَلَّ الأنبياء إذ يسبحونه وينزهونه عن كل نقص وعيب ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢]، فسبح الله نفسه منزهًا لذاته المقدسة عما ادعاه المبطلون من اتخاذ الصاحبة والولد، ثم سلم الله على الأنبياء والمرسلين؛ لأنهم نزهوا الله عَزَّوَجَلَّ عن جميع النقائص والمعايب. فهو سبحانه له المثل الأعلى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] أَيْ: الوصف الأعلى، فله من كل صفة كمالها، فحياته لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، وعلمه لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، وسمعه لا يخفى عليه شيء، قَالَتْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ»(٣)، وبصره لا يفوته شيء ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى:١١]، وعلمه لا يعزب عنه شيء ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢).

(٢) متفق عليه، البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤١٩٥).

﴿مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣]، وهو القيوم الذي قام بنفسه وتقوم به مخلوقاته، إذ لا قدرة لها على عيش أو حركة أو سكنه إلا بإقامته لها، وهو القدوس المنزه عن كل نقص وعيب، وهو السلام: السالم من النقص والعيب، إلى غير ذلك من الأوصاف التي وصف الله عَزَّوَجَلَّ بها نفسه.

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ قيل: سبح ربك المسمى بالأسماء، وقيل المعنى: سبح الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته، إذ أن التنزيه والتسبيح قد يكون بالقلب، لكنه هنا أمر بالتسبيح باللسان ويتواطأ القلب واللسان. ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ هذا المعنى العظيم الذي ينبغي أن يعتقده كل مسلم، ومن خالف هذا الاعتقاد كان من الموافقين لعقيدة فرعون وهامان ومن سار على سيرهما.

فالله عَزَّوَجَلَّ الأعلى، عليٌّ بذاته، وعليٌّ بصفاته ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، ولهذا كان المسلمون حين يضعون جباههم - التي هي أشرف موطن في الإنسان - في الأرض، ويكونون في حال السفل ينزهون الله عَزَّوَجَلَّ بقولهم: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»، وكانوا في أسفارهم إذا صعدوا في الجبل كبروا، وإذا نزلوا سبحوا؛ تنزيها لله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «**كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا**»(١).

ثم وصف الله عَزَّوَجَلَّ نفسه بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ خلق الإنسان، والحيوان، والسموات والأراضين ومن فيها وسواها، ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أَيْ: أكملها وعدلها في أكمل صورة وأبهى حالة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك:١٤].

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ قدر مقادير الخلائق، فقدر آجالها ومآكلها ومشاربها وقدر منافعها وكل ما يتعلق بها ولا يمكن أن يتخلف عن مخلوق شيء مما قدره الله عَزَّوَجَلَّ وقضاه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، وعن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سُئِلَ النبي ﷺ فقيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا نَعْمَلُ أَفِي شَيْءٍ قَدْ خَلَا أَوْ مَضَى أَوْ فِي شَيْءٍ يُسْتَأْنَفُ الْآنَ؟ قَالَ: «**فِي شَيْءٍ قَدْ خَلَا وَمَضَى**» فَقَالَ الرَّجُلُ أَوْ بَعْضُ الْقَوْمِ: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ**»(٢).

وفي «الصحيحين» عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٣).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٦).

الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»(١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ»(٢).

﴿فَهَدَىٰ﴾ هداه إلى سبيل الخير، وحذره من سبيل الشر كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد:١٠]، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:٣]، وأعم من ذلك الهداية العامة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠]، خلق الإنسان وهداه إلى سبل معائشه، وخلق الحيوان وهداه إلى سبل معائشه، وبين لكل مخلوق سبل السلامة والعطب، وهذا لا يكون إلا من الله عَزَّوَجَلَّ، ثم الهداية الأخرى وهي هداية البيان والدلالة والإرشاد، إذ أنزل الله عَزَّوَجَلَّ القرآن والسنة على محمد ﷺ؛ لهداية الناس ودلالتهم إلى الخير العظيم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن نبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى:٥٢].

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أَيْ: من أوصاف الله عَزَّوَجَلَّ أنه أخرج المرعى من جميع أصناف النبات والزروع، فانظروا إلى ما حولنا من الصحاري والفيافي، والجبال، والقفار، تكون يابسة لا شيء فيها وإذا بربنا عَزَّوَجَلَّ ينزل مطرًا أو غيثًا وإذا بالمرعى يخرج، فتأكل منه الأنعام، ويستفيد منه الإنسان.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ يخرج مخضرًا نظرًا ثم يصير يابسًا هشيمًا متغيرًا بعد ذلك كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف:٤٥]، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤَخَّرِ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّقْدِيمُ، وَأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى أَحْوَى، أَيْ: أَخْضَرُ إِلَى السَّوَادِ، فَجَعَلَهُ غُثَاءً بَعْدَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مُحْتَمَلًا

(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤).

إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ صَوَابٍ؛ لِمُخَالَفَتِهِ أَقْوَالَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ(١). اهـ.

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ ﴾

ثم قال الله لنبيه مبشرًا له: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ سنقرئك القرآن فلا تنساه، فالنبي ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، فأوحى الله إليه بالوحي، فكان إذا جاءه جبريل يعالج نفسه من أجل أن يتحفظ القرآن ويجد في ذلك مشقة، فقال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ ﴾ [القيامة:١٦-١٩] ثم إنك بعد ذلك تحدث به الناس.

﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أن ينسخه، كما نسي بعض السور، ونسيها بعض الصحابة رضوان الله عليهم، ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾، ويعلم ما في قلوب العباد وما يعملونه في السر والعلن، وهذا فيها ترهيب عظيم لجميع المسلمين أن يراقبوا الله عَزَّوَجَلَّ في خلواتهم وجلواتهم وكذلك يعلم مصالح العباد وما يصلحهم ظاهرًا وباطنًا.

ثم يقول الله ممتنًا على نبيه: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ منة عظيمة، رفع الله عَزَّوَجَلَّ الأغلال والآصار عن أمة محمد، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»(٢)، وعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى اليَمَنِ قَالَ: «**يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا**»(٣)، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨].

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أَيْ: الناس وادعهم إلى دين الله عَزَّوَجَلَّ، وعلمهم التوحيد، وحذرهم بطش الله، ورغبهم فيما عند الله، ﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ قيل: معناها ذكر من كان متقبلًا للذكرى حيث ينتفع بها، وقيل المعنى: ذكر وإن لم ينتفع بها أحد؛ فإنك تؤدي الذي عليك، وقد استدل بعض أهل

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/٣٧٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩).
(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٨).

العلم بهذه الآية مع ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وبعض السلف: أن الإنسان ينبغي أن يصون العلم، فلا يضعه إلا في المكان الذي يجد له قبولًا؛ حتى لا يمتهن ويزدرى، والذكرى تنفع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات:٥٥].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أَيْ: الذي يستفيد من الذكرى هو من يخشى الله عَزَّوَجَلَّ، والخشية: هي الخوف مع التعظيم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]. فالله عَزَّوَجَلَّ أمرنا أن نخشاه، وأن نخافه ونراقبه فمن أراد الله له الخير في الدنيا والآخرة، رزقه خشيته.

وفي قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أمر لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمر لأمته لاسيما الدعاة وحملة القرآن وحفظة السنة، فينبغي لهم أن يتفرقوا في البلدان، وأن يقوموا في المساجد، وأن يوجهوا الناس إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الغفلة قد سيطرت على القلوب، ولم يبق مقبلًا على الله عَزَّوَجَلَّ إلا نزاع من الناس، وتأملوا المساجد فإنها في قفرة من عمارها إلا في يوم الجمعة، بل إن بعضهم ربما يصلي الجمعة ولا يصلي غيرها من الصلوات، والله المستعان.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أَيْ: لا ينتفع بالذكرى ﴿الْأَشْقَى﴾ الشقي بكفره فيشقي في الدنيا بقسوة القلب وفساد العيش وغير ذلك من المصائب التي تلحقه، ويلحقه الشقاء في القبر وعذابه فيه والشقاء في الآخرة.

﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ أَيْ: يوم القيامة وقيل: بأن النار الصغرى نار الدنيا، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ، قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَسِيرٍ، فَوَقَفَ عَلَى مَجْلِسِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحْدَثُ مَنْ فِيهِ سِنًّا، عَلَيَّ بُرْدَةٌ، مُضْطَجِعًا فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ، وَالْمِيزَانَ، وَالْجَنَّةَ، وَالنَّارَ فَقَالَ: ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ، أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فُلَانُ تَرَى هَذَا كَائِنًا؟ إِنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ، وَنَارٌ يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ، قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوَدَّ أَنَّ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنُّورٍ فِي الدُّنْيَا، يُحَمُّونَهُ ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطْبَقُ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا، قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ، وَالْيَمَنِ، قَالُوا: وَمَتَى تَرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ، قَالَ سَلَمَةُ: فَوَاللَّهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنَّا بِهِ وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ

يَا فُلَانُ أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ: لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: بَلَى. وَلَيْسَ بِهِ(١).

﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ نارًا كبيرة عظيمة، قعرها بعيد وحرها شديد، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»(٢).

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ لا يتنعم بحياة ولا يرتاح بموت ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف:٧٧]، فقال الله في حق المؤمن: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان:٥٦-٥٧]، وفي المقابل قال في حق الكافر: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر:٣٦-٣٧]، وهذا من الأدلة على أبدية النار وخلودها أعاذنا الله منها، وهذا في حق الكافر، وأما من دخلها من أهل الإسلام فإنه يخرج منها، فعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»(٣).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

ثم يقول الله ممتنًا على المؤمنين المخلصين المطيعين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ قيل زكى نفسه بزكاة الفطر، والمعنى العام أولى: تزكى بالطاعات والقربات، من التوحيد، والصلاة، والصيام، والحج، والقيام، وحفظ القرآن، وبر الوالدين، وصلة الأرحام وطهر نفسه من الأخلاق الرذيلة.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٨٤١)، والحديث في «الصحيح المسند» (٤٤٣) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٤).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٥).

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ هذا خبر من الله، وخبر الله لا يتأخر ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»(١).

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أيضًا ومن صفات المفلحين أنه يذكر اسم ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سبحه ونزهه ودعاه ورجاه، وصلى لله عَزَّوَجَلَّ لاسيما الصلوات المفروضات، وبادر أيضًا إلى النوافل والمستحبات، فكل ذلك محبوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم أخبر الله عن حال الناس إلا من رحم الله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ تحبون الدنيا وترغبون فيها وتقدمونها على الآخرة التي هي دار البقاء، تقدمون الفاني على الباقي، والقليل على الكثير، والشقاء على السعادة، والدنيا قد لعنها الله، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»(٢)، والدنيا زائلة لا تبقى، ولو بقيت للخَيِّرين لبقيت لمحمد ﷺ، ولو بقيت للجبابرة المعرضين لبقيت لفرعون والنمرود وبختنصر ومن إليهم، ولكنها لا تبقي لأحد، فحال الناس أنهم يؤثرون الحياة الدنيا بمآكلهم ومشاربهم وشهواتهم ومعاملاتهم وتجاراتهم، وقد ذكر الله الدنيا بقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال رسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ»(٣).

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أَيْ: دار الآخرة، وهي الجنة؛ لأنها دار البقاء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»(٤)، خالدين فيها أبدًا يتنعمون بالنظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ، ويتنعمون بالمآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك مما خلقه الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الْحُسْنِ»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) أخرجه مسلم (٢٨٣٦).
(٥) أخرجه البخاري (٣٢٤٦)، ومسلم (٢٨٣٤).

ثم يقول: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ﴾ ما تقدم من وصف الله عَزَّوَجَلَّ وبشارة النبي ﷺ، والأمر بالتذكير ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾، وقيل: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أَيْ: قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾، أَيْ: هذا في الكتاب المنزل على من كان قبل محمد ﷺ ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ذكر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

﴿وَمُوسَىٰ ﴾ موسى بن عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ عانى من بني إسرائيل، ودعا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وصابر وصبر.

والحمد لله رب العالمين.

مكية الجزء الثلاثون سورة الغاشية آياتها ٢٦

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ ، مَكِّيَّةٌ، وفي «صحيح مسلم» عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي الْجُمُعَةِ بِ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]، وَ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية:١]، قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ؛ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ(١)، وجاءت رواية عند مسلم وغيره: كَتَبَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَسْأَلُهُ: أَيَّ شَيْءٍ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، سِوَى سُورَةِ الْجُمُعَةِ؟ فَقَالَ: «كَانَ يَقْرَأُ ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾»(٢)، وهي سور عظيمة اختارها رسول الله ﷺ لقراءتها في هذا اليوم العظيم، وفي هذا المشهد الكبير، تتوارد ألسنة الأئمة على قراءتها في أغلب المساجد في العالم، وفيها من العبر والذكر ما تنخلع به قلوب المؤمنين، ويكون داعيًا لها إلى جنة النعيم، ومحذرًا لها من العذاب الأليم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾، هذا حال الكافرين المعذبين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾، هذا حال المؤمنين المكرمين المنعمين في جنة النعيم عند رب العالمين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر:٥٥].

ثم يقول: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾، دعوة إلى النظر إلى دلائل الوحدانية التي

(١) برقم (٨٧٨).
(٢) أخرجه مسلم (٨٧٨)، وأحمد (١٨٣٨١)، والنسائي (١٧٤٩).

تؤدي بالإنسان إلى إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبودية.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾، وهذا تطمين للدعاة إلى الله، وترغيب لهم في الدعوة إلى الله، وليس إليهم هداية الناس. ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

ونعود إلى معانيها، يقول الله عَزَّوَجَلَّ لمحمد ﷺ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ ذهب جمع من المفسرين إلى أن المعنى: قد أتاك حديث الغاشية، أَيْ: خبر الغاشية، وهو من أسماء يوم القيامة على قول لأهل العلم، كما أن الله عَزَّوَجَلَّ سماها القارعة، والحاقة، والواقعة. وسميت غاشية؛ لأنها تغشى الناس، وقيل: بأنها اسم للنار وبئس القرار، سميت بالغاشية؛ لأنها تغشى الكفار بحرها وما فيها من الخزي والبوار، نعوذ بالله من شرها، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، وذكر الله الوجوه؛ لأنها أكرم ما في الإنسان، فالإنسان في هذه الدنيا يحرص على وجهه أن يشوبه شيءٌ من الأذى، وفي ذلك اليوم يعذب الكافر ابتداءً بوجه.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أَيْ: ذليلة حقيرة من حيائهم من ربهم إذ لم يمتثلوا شرعه ودينه، ومن خزيهم بين العالمين، ومما يقدمون عليه من العذاب المهين، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تخشع، ولا ينفعها عملها.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ قال بعض أهل العلم: أن الآية في شأن الكفار الذين يعبدون الأصنام والأوثان، فيعملون في الدنيا وينصبون ويتعبون، ومع ذلك يعذبون في الآخرة، وقال بعضهم بأنها في اليهود والنصارى، وروي عن عمر ولا يثبت: أنه مر على راهب في صومعة فناداه، فلما خرج بكى عمر، فقيل له: يا أمير المؤمنين إنه ممن علمت، فقال: إنما ذكرت قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾، عاملة في الدنيا وتنصب ومع ذلك تعذب في الآخرة، وقيل بأن المعنى: أن أهل النار يعملون في النار، فيعالجون السلاسل التي يربطون بها، والحميم، وما هم فيه من العذاب الأليم، فيعملون وينصبون ويتعبون، وقيل بأنها في حق من يعصي الله عَزَّوَجَلَّ في الدنيا، عاملة في الدنيا بالمعاصي والسيئات، والكفريات، والشركيات، وناصبة في الآخرة يلحقها النصب والعذاب الأليم في النار وبئس القرار.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أَيْ: نار شديدة الحر كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ:٢١-٢٥].

فهذه النار يصلاها الكفار، نار حامية تغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن جميع جوانبهم، أكلهم النار ولبسهم النار وشرابهم النار، نعوذ بالله من حرها وسمومها.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أَيْ: انتهى حرها وغليانها فبلغت بالحر منتهاه ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟﴾ لكن بماذا؟ ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف:٢٩].

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ شرابهم، وأنه الحميم، أخبر عن طعامهم وأنه الزقوم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ [الدخان:٤٣-٤٨] والضريع شجرة في الحجاز يسميها أهل مكة الشبرق، كانت تأكلها الإبل اذا كانت طرية، أما إذا صارت ضريعًا لا يأكلها شيءٌ من الدواب ولا ينتفع بها أحد من الناس؛ لأنها كثيرة الشوك والأذى.

وقيل سمي ضريع؛ لأنهم إذا أكلوه تضرعوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ في رفعه عنهم، والمعنى الأول عليه جماهير العلماء: أنهم يأكلون طعامًا سيء في منظره، سيء في أكله، سيء في حاله ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ أَيْ: لا تسمن منه أجسامهم، ولا يذهب به جوعهم، بل يعذبون بالجوع والعطش مع ما هم فيه من العذاب الأليم، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة والعافية.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

فلما بين الله جَلَّجَلَالُهُ حال الكافرين وصف حال المؤمنين، المكرمين، المنعمين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة:٢٢] من النضارة والجمال والبهاء ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٣] بأعينها تتلذذ بالنظر إلى وجه الله، وما أعطوا شيء أحب إليهم من النظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا المعنى مذكور أيضًا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس:٣٨-٣٩] أَيْ: حال المؤمنين، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس:٤٠-٤٢]، فالله عَزَّوَجَلَّ ذكر وجوه المؤمنين وما فيها من النعامة والجمال والبهاء،

وهذا دليل على جمال بقية أعضائهم، كما ذكر وجوه الكافرين وما فيها من الخزي والعذاب المهين، وهذا دليل على ما يلحق بقية أجسامهم.

﴿لِّسَعْيِهَا﴾ في الدنيا بالطاعات، ﴿رَاضِيَةٌ﴾ أَيْ: بأعمالها التي عملتها في الدنيا وأوصلتها إلى مرضات الله عَزَّوَجَلَّ، وفي حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْقَبْرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» ثَلَاثَ مِرَارٍ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ، صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى» قَالَ: «فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]، فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنَ اللَّهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتَ وَاللَّهِ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللَّهَ، أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ هَذَا، فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، فَانْتَزَعُوا رُوحَهُ، كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الْكَثِيرُ الشُّعْبِ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ، وَتُنْزَعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ، إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ لَا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ، قَالُوا: رَبِّ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ عَبْدُكَ، قَالَ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتَ، وَيَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِهَوَانٍ مِنَ اللَّهِ،

وَعَذَابٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِالشَّرِّ مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، سَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»، قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: «ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ»(١).

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ سقفها عرش الرحمن، «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»(٢).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ»(٣).

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ وفي قراءة: ﴿لَّا يُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ﴾(٤) وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]، فهي جنة عظيمة أعدها الله للمؤمنين في ذلك اليوم العظيم لا يؤذيهم شيء لا من الزوجات، ولا الأبناء، ولا الجيران، ولا من الضوضاء.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أَيْ: عيون سارحات وأُفردت لإفادة العموم، منها ما هو من الخمر الصرف الذي لا يُسكر ويُنتعم به، ومنها ما هو من العسل، ومنها ما هو من اللبن، ومنها ما هو من الماء كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:١٥]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان:٦].

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي بعيدة المنال، ومع ذلك يذكر العلماء أنها تدنوا من أصحابها إذا أرادوا الصعود، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان:١٣]. فيتنعمون مع زوجاتهم وأهاليهم.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٦١٤).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) متفق عليه، البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) انظر «تفسير ابن كثير» (٨/٤٠٩).

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أكواب يشربون فيها الخمر، واللبن، والعسل، والماء قال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان:١٨]، ومعنى السلسبيل أن تروى بدون أن يسبب لك شيئًا من الشجي أو غير ذلك، وهذه الأكواب بعضها من الذهب، وبعضها من الفضة، قال تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان:١٥-١٦].

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ وسائد كثيرة جميلة عظيمة، كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن:٥٤]، وقال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الرحمن:٧٦].

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ أَيْ: فرش وبسط مبثوثة في الجنة، أينما شاء جلس، وأينما شاء اتكأ، لا يلحقه نصب ولا تعب، وإذا أراد الطعام والشراب جاءه كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان:١٤]، فهم على فرشهم وتدنوا منهم فيأكلون ويشربون ويتنعمون، ثم تعود إلى أماكنها.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

ثم يقول ربنا داعيًا إلى التأمل في آياته الكونية التي تؤدي إلى الإيمان ومعرفة الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ أي: هلا ينظرون بأعينهم ويتفكرون بقلوبهم ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وذكر الله الإبل؛ لأن العرب كانت تراها أعظم المخلوقات الحيوانية، ومن عظيم شأنها أن لا حيوان يُحمَّل ثم يقوم وهو جالس إلا الإبل، ومن عظيم شأنها علو رقبتها، ومن عظيم شأنها أنها تنقاد للطفل الصغير، ومن عظيم شأنها أنها تمكث الليالي والأيام لا تشرب الماء، ومن عظيم شأنها حملها للأثقال الكثيرة إلى غير ذلك، فالذي خلقها وسخرها وأعدها وأمدها هو الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون داعيًا إلى عبادته.

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أَيْ: وينظرون إلى هذه السماء العظيمة المترامية التي رفعت بغير عمد رفعها الله عَزَّوَجَلَّ، وهي دالة على قدرته ووحدانيته، فيكون داعيًا لهم إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وإفراده بما يجب له.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ الجبال العظيمة التي لا تتحرك ولا تتزلزل، ثبتت بها الأراضي، وتجد الجبل العالي فإذا ما طلعته وجدت الماء يسيل من أعلاه، فإذا بأحسن الثمار وأحسن الأشياء موجودة فيه، من الذي أنبته؟ من الذي رفعه؟ من الذي حفظه؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ هذه الأرض الواسعة بسطها الله عَزَّوَجَلَّ، وجعل فيها المهاد والأنهار، وجعل فيها البحار، وفيها غير ذلك، أفلا يكون في ذلك دعوة إلى إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة؟! بلى وربي، كما قال بعضهم: الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَآثَرُ الْأَقْدَامِ يَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، أَلَا تَدُلُّ عَلَى اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ، وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات:٢٠-٢٢]، ومما يدل على ذلك ما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «**صَدَقَ**»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «**اللهُ**»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «**اللهُ**»، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «**اللهُ**»، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، آللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»(١).

ثم قال لمحمد ﷺ، وهو أمر لكل داعي إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَذَكِّرْ﴾ بخطبتك، ودعوتك، الناس بما لهم عند الله، وخوفهم ورغبهم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ليس عليك الهداية والتوفيق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة:٢٧٢] وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨]، وهذه تسلية لمحمد ﷺ، لأنه كان يذكر الكفار، وربما شق عليه حين يجد إعراضهم، بل ورموه بالحجارة، وطردوه، وهموا بقتله، فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي بِهَا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ** ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]»(٢).

فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي له الأمر أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وأما الداعي والمدعو فحاله كما قال

---

(١) أخرجه مسلم (١٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢١).

جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ⁽٩⁾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ⁽١٠⁾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ⁽١١⁾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ⁽١٢⁾ ﴾ [الأعلى:٩-١٢].

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمُجَاهِدٌ، وَغَيْرُهُمَا: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَسْتَ بِالَّذِي تُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ[1]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[2].

﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ يقول لكن من تولى عن الذكر، وكفر بالله، وحارب الله ورسوله ﷺ: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ﴾ يوم القيامة ﴿ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ في نار وقودها النار والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يُرحم من دخلها، وتكبر أجسامهم ليزدادوا عذابًا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ضِرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ، مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ**»[3]، فيُكسون ويلبسون من النار، ويفرشون من النار، ويضربون بالنار، ويشربون النار، ويأكلون النار نعوذ بالله منها.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ أَيْ: مرجعهم، فالجميع، من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار إيابهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ⁽٢٨١⁾ ﴾ [البقرة:٢٨١].

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ أَيْ: يحاسبهم الله عَزَّوَجَلَّ على أعمالهم ولو كانت مثاقيل الذر في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويجازون عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/٣٨٨).
(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٥١).

مَكِّيَّة الجُزْءُ الثَّلاثُونَ سُورَةُ الفَجْرِ آيَاتُهَا ٣٠

سُورَةُ الفَجْرِ، وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم الله جَلَّجَلَالُهُ بالفجر قيل الصبح، وقيل النهار، وقيل صلاة الفجر، وقيل صلاة الفجر يوم عرفة وأي كان فقد أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالفجر؛ لأنه آية عظيمة، إن كان الصبح فهو آية يفلقها الله ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦]، وإن كانت صلاة الفجر فهي صلاة مشهودة تشهدها ملائكة الله، قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨] وإن كان النهار ففيه من العجائب الدالة على قدرة الله ما الله به عليم.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قيل عشر ذي الحجة، وهو أشهر الأقوال، وقيل العشر الأواخر من رمضان، وقيل العشر الأول من محرم، فعشر ذي الحجة فيها يوم عرفة، وهو أفضل أيام العام، وعشر رمضان فيها ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها صيام رمضان الذي هو فرض وركن من أركان الإسلام، وفي فضل يوم عشر ذي الحجة ما أخرجه البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ**». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ، وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**»(١).

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ الشفع: قيل بنوا آدم، والوتر: هو الله، وقيل الشفع: الصلوات المشفوعة، والوتر الصلوات الفردية، وقيل الشفع العدد الزوجي، والوتر الواحد، وقيل غير ذلك، ذكر ابن كثير أكثر من سبعة أقوال عن السلف في هذه المسألة، ولا مانع أن الشفع المراد به صلاة الشفع

(١) أخرجه الترمذي (٧٥٧).

والوتر المراد به كذلك، أو أن الوتر هو الله عَزَّوَجَلَّ، والشفع هو ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ أَيْ: أن الآية عامة فأقسم الله بكل شفع وكل وتر.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ يقسم أيضًا بالليل إذا سرى وغطى الأرض بظلامه، أو إذا ولى، لكن المعنى الأول أليق؛ لأنه أقسم بالفجر الذي هو أول النهار، ثم أقسم بالليل الذي هو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ ﴾ [التكوير:١٧-١٨].

﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي: فيما ذكرت ﴿ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ أَيْ: قسم لصاحب اللب السليم والعقل المستقيم، ففيها آيات بينات، ظاهرات قاهرات، وتدل على إفراد الله بالخلق والملك والتدبير وتدل على إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة.

﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ أَيْ: ببصرك وبصيرتك ﴿ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ وهم قوم هود، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ [فصلت:١٥]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡۜطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأعراف:٦٩]، وقد أهلكهم الله بالريح كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الأحقاف: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥ ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥]، وكان سبب ذلك ما أخرجه أحمد عَنِ الْحَارِثِ بْنِ حَسَّانَ، قَالَ: إِنَّ عَادًا أَرْسَلُوا وَافِدَهُمْ قَيْلًا، فَنَزَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْخَمْرَ، وَتُغَنِّيهِ الْجَرَادَتَانِ، فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى جِبَالَ مُهْرَةَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ آتِ لِأَسِيرٍ أُفَادِيهِ، وَلَا لِمَرِيضٍ فَأُدَاوِيَهُ، فَاسْقِ عَبْدَكَ مَا كُنْتَ سَاقِيَهُ، وَاسْقِ مُعَاوِيَةَ بْنَ بَكْرٍ شَهْرًا - يَشْكُرْ لَهُ الْخَمْرَ الَّتِي شَرِبَهَا عِنْدَهُ - قَالَ: فَمَرَّتْ سَحَابَاتٌ سُودٌ فَنُودِيَ أَنْ خُذْهَا رَمَادًا، رِمْدِدًا لَا تَذَرُ مِنْ عَادٍ أَحَدًا قَالَ أَبُو وَائِلٍ: «فَبَلَغَنِي أَنَّ مَا أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ كَقَدْرِ مَا يَجْرِي فِي الْخَاتَمِ»(١).

﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ أَيْ: عاد هم إرم، قبيلة من قبائل العرب، ذات العماد؛ لأنهم كانوا يرفعون سقف بيوتهم، وأما من ذهب إلى أن إرم ذات العماد مدينة تتحرك ولا يوجد مثلها في الأرض، وهذا يقول: رأيتها في حضرموت والثاني يقول: رأيتها في الشام، وأنها ترى في السنة مرة، هذا

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٥٣).

كلام ليس عليه دليل.

﴿ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ لأن الله أعطاهم قوة، فكانوا يرفعون بيوتهم ويشيدونها، ويشيدون مداخلها ومخارجها، قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٣٤].

﴿ وَثَمُودَ ﴾ أَيْ: ألم تر ما فعل الله جَلَّجَلَالُهُ بثمود، وهم قوم صالح هداهم بالدلائل البينات فأبوا إلا الكفر والعناد، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت:١٧]، وقد أهلكهم الله جَلَّجَلَالُهُ بسبب عقر الناقة على ما يأتي في سورة الشمس، ﴿ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ أَيْ: قطعوا الصخور؛ لقوتهم ولصلابة طباعهم. ﴿ بِٱلْوَادِ ﴾ وادي القرى، إذ كانوا يسكنون فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الشعراء:١٤٩].

﴿ وَفِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ: ألم تر ما فعل الله بفرعون الجبار الذي ادعى الربوبية كبرًا وعلوًا ﴿ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ صاحب الأهرامات العظام، وقيل الأوتاد: الجنود الذين ثَبَّتوا ملكه، كما تثبت الأرض بوجود الأوتاد من الجبال الرواسي عليها وهذا القول الذي عليه أهل التفسير، وقيل لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت.

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ أَيْ: كل من تقدم: عاد وثمود وفرعون ومن إليهم، كلهم وقع منهم الطغيان والتجاوز لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، فقتلوا وظلموا وبطشوا، وأعظم الطغيان الذي وقعوا فيه، الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾ الفساد الديني والخلقي، فإن أعظم الفساد أن يشرك بالله عَزَّوَجَلَّ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ثم يليه الفساد الخلقي، حيث يرتكب الناس الزنا واللواط ويشربون الخمور وغير ذلك من المحرمات، قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم:٤١]، وقال: ﴿ وَمَا

﴿أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠].

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أَيْ: أن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل عليهم رجزًا من السماء وأحل عليهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين فأهلكهم بعذاب صبه عليهم صبا، فأهلك عادا بريح، وثمود بصاعقة وصيحة، وفرعون في اليم، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ أَيْ: يرصد خلقه فيما يعملون فيسمع، ويبصر، ويعلم، ويرصد أعملهم، وإنما يمهلهم كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق:١٥-١٧].

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

ثم قال جَلَّجَلَالُهُ: مخبرًا بحال الإنسان في الشدة والرخاء، والسراء والضراء، ينظر إلى ما يأتيه من خير أو شر بمنظور دنيوي لا منظور شرعي ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أَيْ: جنس الإنسان ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بالولد والمال والبيت والسكن والأتباع ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ في مأكله ومشربه وملبسه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ يزعم أن هذا كرامه من الله له، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [فصلت:٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦] ومع أن المال لا يدل على كرامة؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وإنما المكرمة في الدين لأن الله يعطي الدين من يحب، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات:١٣]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «**أَتْقَاهُمْ**»(١).

---

(١) متفق عليه، البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ أَيْ: إذا ابتلى الإنسان بقلة المال، والفقر ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ أَيْ: ضيق عليه العطاء فإن الرزق هو العطاء ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ يزعم أن الله أهانه بذلك، وهذه نظرة الكافر لا نظرة المسلم، وأما المسلم فيعلم أن في المال بلغة، كما قال رسول الله ﷺ: «**نِعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**»(١) ومع ذلك ليس هو بدليل كرامة، فينبغي للعبد أن يحمد الله على الهداية، وأن يسعى في تحصيلها، وأما الدنيا فليست بمقياس، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»(٢).

وانظروا إلى حال النبي ﷺ دخل عليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد أثر الحصير في جنبه، وفارس والروم ينامون على الديباج والحرير، ويلبسون الإستبرق، ويشربون في آنية الذهب والفضة، فالعبرة بدين الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: ﴿كَلَّا﴾ حقًا ليس الأمر كما زعم فإن الدنيا ليست بمقياس كرامة: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ يقول لا تقع منكم كرامة اليتيم الذي فقد أباه ويحتاج إلى من يحوطه تربية وكفالة، وكفالته من أعظم الأجور، فعَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا**» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا(٣)، وظلمه يعتبر من أشد الظلم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء:١٠]، إكرام اليتيم طاعة، وإهانة اليتيم معصية قال تعالى:﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾ [الضحى:٩].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أَيْ: ولا تأمرون غيركم بإطعام المسكين المحتاج الفقير، فإذا كان الذي لا يأمر بإطعامهم مذموم فالذي لا يطعمهم أشد في الذم؛ فيجب على الإنسان أن يعطي ما أوجب الله عليه في ماله، من زكاة وصدقة ونحو ذلك، ويحث غيره على ذلك، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣﴾ [الماعون:١-٣] فأخبر أن هذا فعل المكذبين بالدين.

وقال أيضًا: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ۝٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ۝٢٥﴾ [ق:٢٤-٢٥]، فالإنسان يذم بمنعه الخير بعدم أمره بالخير.

والمسكين، قيل: هو الفقير، وقيل: بينه وبين الفقير عموم وخصوص، وهو أن الفقير الذي

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٠٢)، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠).
(٣) أخرجه البخاري (٥٣٠٤).

يجد مالًا لا يغنيه، والمسكين الذي لا يجد شيئًا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **«لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ الأُكْلَةَ وَالأُكْلَتَانِ، وَلَكِنِ المِسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنًى، وَيَسْتَحْيِي أَوْ لاَ يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا»**(١).

قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أَيْ: المال المكتسب بالإرث وغيره ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أكلا شديدًا، سواء كان من حلال أو حرام، فينفقونه في كثير من أوجه الشر والفساد ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ﴾ أَيْ: جنس المال من الذهب والفضة، والإبل، والبقر، والرقيق، والعقار وغير ذلك ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ حُبًّا عظيمًا في نفوسكم حتى تقدمونه على طاعة الله ومرضاته، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن:١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩]، وربما بسببه أحللتم الحرام وحرمتم الحلال، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَحَبَّ أَنَّ لَهُ وَادِيًا آخَرَ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَاللهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ»**(٢).

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

ثم يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ أَيْ: حقًا أن هذا الذي تقدم سيترك، وسترحلون منه إلى غيره، وذلك ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ حين دُكَّتِ الأرض وذهبت جبالها، كما قال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ:٢٠] وصارت بيضاء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٧-١٠٨].

﴿دَكًّا دَكًّا﴾ مبالغة في دكها وتغيير حالها ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٦).
(٢) أخرجه مسلم (١٠٤٨).

﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨] وقام الخلائق من قبورهم.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، وفيه إثبات صفة المجيء لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان:٢٥-٢٦]، ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أَيْ: وجاء معه الأملاك ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ صفوفا كثيرة، يحيطون بالمخلوقات المحشورة.

﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ﴾ تجر وتقرب من أهلها، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء:٩٠-٩١].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أَيْ: في هذا اليوم يتذكر الإنسان كل الأعمال التي عملها، من تفريطه في الطاعة، وارتكابه للمعصية، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [النازعات:٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ لا تنفعه الذكرى عندئذ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]. فيتذكر كل عمل لكن لا يفيده ذلك؛ لأنه لا يستطيع أن يستعتب العمل.

﴿يَقُولُ﴾ أَيْ: جنس الإنسان الظالم لنفسه: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أَيْ: من الأعمال الصالحة التوحيد والصلاة والصيام، وجميع أنواع الطاعات والقربات، والمراد بالحياة هنا: الحياة الأبدية، يا ليتني قدمت لها ما يكون سببًا في حصولها على الوجه الأكمل، وأما الدنيا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

وعن عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: «**فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ**»(١)، ولما فرقت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الشاة التي ذُبحت، قالت: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا بَقِيَ إِلَّا كَتِفُهَا؟ قَالَ: «**كُلُّهَا قَدْ بَقِيَ إِلَّا**

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٢).

كَتِفَهَا»(١)، لأن الشيء المقدم عند الله عَزَّوَجَلَّ ينال الإنسان بركته في أُخراه.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ لا يعذب عذاب الله أحد، عذاب شديد، وخزي عظيم أكيد، كما قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الهمزة:٨-٩].

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أَيْ: يوثق الكافر؛ فلا يستطيع الفرار ولا تغيير الحال الذي هو عليه، ويوثقهم بالسلاسل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾ [الحاقة:٣٠-٣٧].

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ هذا خطاب للنفس المؤمنة عند مفارقة الروح الجسد كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ**»(٢)، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾ [الواقعة:٨٨-٩٤]، واطمأنت هذه النفس بالتوحيد وبجميع أنواع الطاعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد:٢٨].

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أَيْ: بالموت فما بعده في المحشر ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ على نفسها، وراضية بما نالت من ربها، وفي حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»(٣).

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أَيْ: في عباده الأخيار المصطفين من الله عَزَّوَجَلَّ، الذي التزموا الطاعات، وهذه هي العبودية الخاصة المقتضية للخضوع والمحبة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٤٠)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٦٩)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، والنسائي (١١٣٧٨).

(٣) متفق عليه، البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ جنة عَدْن، كما قال تعالى: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ ٥٥﴾ [القمر:٥٥].

وهذا وعد عظيم من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المؤمنين.

وأما ما يفعله بعض الناس من كتابة هذه الآية على نعش الميت فإن هذا من البدع، وكذلك قراءتها عند التعازي، ثم إن في فعل ذلك الحكم للإنسان بالجنة، وعقيدة أهل السنة عدم الجزم بجنة إلا لمن حكم له رسول الله ﷺ.

والحمد لله رب العالمين.

مكية الجزء الثلاثون سورة البلد آياتها ٢٠

سُورَةُ الْبَلَدِ ، مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧ ﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ يقول أقسم بهذا البلد، وهو مكة المكرمة، وقد أقسم الله به في سورة التين ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣ ﴾ [التين:١-٣]، فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ به؛ لعظمته، ومنزلته، فهو حرم آمن، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ٦٧ ﴾ [العنكبوت:٦٧]، وعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً**»(١)، كانت تُغزى البلدان إلا قريش، وكان معظمًا في جميع الأديان حتى عند أهل الجاهلية.

﴿ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ هذا إخبار من الله عَزَّوَجَلَّ أنه سيجعل مكة حلالًا لمحمد ﷺ يقاتل فيها، وهي من البشارات بالفتح العظيم، وفعلًا دخلها النبي ﷺ حلالًا، وأحلت له ساعة من النهار، حتى قَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا يَسْفِكُ بِهَا دَمًا وَلَا يَعْضِدُ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنِ ارْتَخَصَ بِهَا أَحَدٌ، فَقَالَ: أُحِلَّتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ اللهَ أَحَلَّهَا لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَلَمْ يُحِلَّهَا لِأَحَدٍ غَيْرِي، ثُمَّ هِيَ حَرَامٌ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، يَا خُزَاعَةُ: إِنَّكُمْ قَتَلْتُمْ هَذَا الْقَتِيلَ مِنْ هُذَيْلٍ وَأَنَا وَاللهِ عَاقِلُهُ فَمَنْ قَتَلَ بِهَا قَتِيلًا بَعْدَ هَذَا فَأَهْلُهُ بَيْنَ خِيَرَتَيْنِ: إِنْ أَحَبُّوا قَتَلُوا، وَإِنْ أَحَبُّوا أَخَذُوا الدِّيَةَ**»(٢)، وهذه خصيصة لمحمد ﷺ وليست لغيره؛ ولذلك رد أبو شريح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على عمرو بن سعيد، حين استدل بأن مكة كانت حلالًا للنبي ﷺ.

﴿ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴾ قيل آدم وذريته، وهو قول مجاهد واختاره ابن كثير وقيل: أقسم الله بهم؛ لأنهم آية من آياته العظيمات، جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، ومكنهم تمكينًا عظيمًا، كما قال

(١) متفق عليه، البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٨٦)، عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢٦]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء:٧٠]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين:٥].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ أَيْ: في شدة خلق حيث أن جنس الإنسان في مكابدة، يكابد وهو في بطن أمه، ثم يكابد عند خروجه منها، ثم يبدأ في المكابدة وهو يبحث عن الثدي لالتقامه، ويأتيه الجوع والمغص والحرارة، ثم إذا صار طفلًا يحبو تارة ويقوم تارة وإذا به يكابد؛ ولذلك تجد كثيرًا من الأبناء هذا يكسر رأسه، وتنقطع يده، ويقع على وجهه، فإذا ما استقام أمره وقارب الاحتلام وإذا به في مكابدة، يكلف بعض أمور الخدمة، ثم يهمه شأن نفسه من الزواج وغيره، ثم تقع عليه التكاليف فيكابدها فقل من يوفق، حتى المؤمن يكابد هذه الحياة، فيبتلى المرء على قدر دينه، وقد رأى النبي ﷺ رجلًا لا يأتيه الحمى ولا الصداع، فَقَالَ ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا**»(١).

ومكابدة الإنسان في هذه الحياة أمر ملاحظ لكل أحد، فالغني يكابد، والملك يكابد، والرجل يكابد، والمرأة تكابد، والمستقيم يكابد، والفاجر يكابد، كل في مكابدة والمعان من أعانه الله والمُسلَّم من سلمه الله، وتصريف الإنسان على هذا الحال يدل على قدرة الملك الغلاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»(٢)، إلا أن المؤمن يستفيد من هذه المكابدة رفعًا للدرجات، وتكفيرًا للسيئات، والله المستعان.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أيظن هذا الإنسان الذي يكابد الحياة أن لن يقدر عليه أحد من الناس أو من غيرهم، يظن أنه كبير ومتعالي، ومن ذا الذي يصرعه ويقهره، بل إن الله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يضيق عليه، وأن يهلكه، وقادر على أن يفعل به ما شاء، كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج:١٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٣)، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ من شدة كبره وتعاليه وغطرسته يقول: أنا قد أنفقت الأموال الكثيرة، ولم يقل: «يقول أنفقت مالًا لبدًا»؛ لأن المال إذا كان في وجه الخير يطلق عليه النفقة والصدقة، وإذا كان في وجه الشر يطلق عليه الهلكة، فهنا يقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أَيْ: أهلكه في الحرام في شرب الخمر، ومعاقرة المومسات، والبطش والظلم، وليس بنافع له هذا الإهلاك، بل إنه: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عَلِمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟**»(١).

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أَيْ: في حال إهلاكه لماله في غير أوجه الخير، أيظن أنه غير مراقب؟ بلى، مراقب من الله، ومراقب من ملائكة الله، فإن الله بكل شيء عليم، وملائكة الله تحط عليه ما يفعل ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، زد على ذلك: أن جوارحه تشهد عليه يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور:٢٤]، وفي حديث أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**»(٢).

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾

ثم يقول الله عَزَّوَجَلَّ ممتنًا بنعمه على عباده لاسيما المعرضين الذي لم يراقبوا الله فيها: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ قيل: تشهد عليه يوم القيامة، ولتكن هذه النعمة داعية إلى شكر الله عَزَّوَجَلَّ، لو كنت أعمى البصر كيف يكون حالك؟ لا تعلم طريق قضاء الحاجة، ولا تستطيع أن تأتي السوق، وربما ضربت برأسك في عمود، وبرجلك في حجرة أو شوكة، فهذه نعمة جعلها الله لك، فلتستغل في طاعة الله، ومن طاعة الله أن ينظر بها إلى الحلال لا إلى الحرام ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١١)، والبيهقي في «المدخل» (٤٩٣)، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٧).

ومن طاعة الله أن تتفكر حين تنظر بها ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٥]. وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠].

﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ أيضًا جعل الله له لسانًا يتكلم به بخلاف غيره من الحيوان أو الجماد ممن هو أكبر منه حجمًا، وأشد منه قوة، ومع ذلك ليس لديه لسانًا يتكلم به ولا شفتان يغطي بها فاه من دخول الأشياء الغريبة إليه، وتستقيم بها الحروف؛ وكثير من الحروف شفوية تتحرك معها الشفة، وتمايز بينها، زد على ذلك أنها تجمل الوجه، فلو رأيت رجلًا قد أحرقت شفتاه لربما كان منظره يخيف الناظر إليه، وأنت جمَّلك الله بهما، زد على ذلك أنه جعل لها الشارب من فوق يغطيها بشيء من الشعر، يقصر بين الحين والآخر حتى لا يطول ويؤذي، فتحفظ هذه الشفاه رطوبة الفم، إلى غير ذلك من النعم.

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ أَيْ: طريق الخير والشر، فإن النجد هو الطريق، وقيل: الثديين. والمراد بالهداية هنا: الهداية العامة، وهذا مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان:٣]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف:٢٩]، ومثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل:٥-١٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٥٠]، فيعرف الإنسان مصالح نفسه.

ثم قال: ألا يستغل هذه النعم في اقتحام العقبة الكؤود المتعبة التي لا يصل إلى الجنة إلا باقتحامها، ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ﴾ والاقتحام: هو الدخول في الشيء بقوة، يقولون: اقتحم الجيش المدينة، إذ دخلها بقوة وبطش. ﴿ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ مفسرة بما بعدها، وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّهَا قَحْمَةٌ شَدِيدَةٌ فَاقْتَحِمُوهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَفَلَا سَلَكَ الطَّرِيقَ الَّتِي فِيهَا النَّجَاةُ وَالْخَيْرُ. ثُمَّ بَيَّنَهَا فَقَالَ: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ ﴾ [البلد:١٢-١٤][1]. اهـ.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٥-٤٠٦).

هذا هو تفسير ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «**لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ، لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ، أَعْتِقِ النَّسَمَةَ، وَفُكَّ الرَّقَبَةَ**» . فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَيْسَتَا بِوَاحِدَةٍ؟ قَالَ: «**لَا، إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا، وَالْمِنْحَةُ الْوَكُوفُ، وَالْفَيْءُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ، فَأَطْعِمِ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ، فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنَ الْخَيْرِ**»(١).

وأفضل الرقاب في العتق: أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمنًا، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «**أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا**»(٢).

وإعتاق النفس المملوكة أجرها عظيم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ**»(٣)، ويدخل فيها إعتاق الأسارى، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان:٨].

وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فُكُّوا الْعَانِيَ، يَعْنِي: الْأَسِيرَ**»(٤).

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ ومن اقتحام العقبة أيضًا إطعام الطعام في يوم المجاعة، أما في يوم الرخاء كل إنسان يطعم، طبخت قدرًا من الرز أكلت منه أنت والأبناء وزادت فضله تطعم، طبخت لحمًا وزاد فضله تطعم، لكن هذا الصنف ميز أنه يطعم في يوم ذي مسغبة، يوم الجوع الشديد، فيؤثر على نفسه وعلى أبنائه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: «**مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟**»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، قَالَ: فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ، فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ**»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٦٤٧).
(٢) أخرجه مسلم (٨٤).
(٣) متفق عليه، البخاري (٦٧١٥)، ومسلم (١٥٠٩).
(٤) أخرجه البخاري (٣٠٤٦).
(٥) أخرجه مسلم (٢٠٥٤).

وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحسنه بعض أهل العلم، قَالَ النبيُّ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»(١).

وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»(٢).

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أَيْ: أطعم في مثل هذا اليوم يتيمًا تربطه بينه وبينه قرابة من رحم أو غيره. والعناية باليتيم من الأمور المهمة، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا**» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا(٣).

﴿أَوْ مِسْكِينًا﴾ أَيْ: فقيرًا ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ كأنما ألصق بالتراب من شدة فقره، يقولون: فلان فقير متربة، أَيْ: أنه أنحط في الفقر إلى أسفل درجاته، بحيث لا يملك شيئًا عينيًا ولا غير ذلك، فإعانة من تقدم ذكره من أعظم القربات.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ هذا المطعم والمنفق في أوجه الخير ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأن الكافر وإن أعتق أو تصدق، وأطعم لا يقبل منه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

أليس عبد الله بن جدعان كان له جفنة كبيرة يحملها أربعة كل يوم يطعم بها فقراء مكة؟، ومع ذلك جاء عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «**لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**»(٤)، لكن يشترط فيمن يتجاوز هذه العقبة أن يكون من الذين آمنوا، واستيقنوا بقلوبهم، وعملوا بحوارحهم، فإن الإيمان عند أهل الحق: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ فيما بينهم يوصي بعضهم بعضًا بالصبر على أقدار الله، وعلى طاعة الله وعن معصية الله، فإن ذلك من أسباب تثبيتهم والله عَزَّوَجَلَّ قد وصى نبيه بالصبر في مواطن

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٤)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) متفق عليه، البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).
(٣) أخرجه البخاري (٥٣٠٤)، عَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) أخرجه مسلم (٢١٤).

﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور:٤٨]، ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:١٢٧]، ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [المزمل:١٠].

﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾ تواصوا بالتراحم فيما بينهم، كما قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الفتح:٢٩]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١)، فالرحمة مطلوبة، ولا تنزع إلا من شقي، وأما المؤمن فإنه رحيم؛ ولذلك تجد رحمته في زوجه وفي أبنائه وفي أصحابه، بل وفي المجتمع، يحذر من الشرور والآثام، ويدعوهم إلى طريق الجنان.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴾ أَيْ: أصحاب الجنة الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨ ﴾ [الواقعة:٢٧-٢٩]، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١ ﴾ [الواقعة:٨٨-٩١]، سموا بأصحاب اليمين؛ لأنهم يأخذون كتبهم بأيمانهم يوم القيامة، وفي الدنيا يقدمون اليمين في كثير من شؤونهم، وكان النبي ﷺ يناول، ويأخذ، ويأكل بيمينه، كما جاء من حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ، فِي تَنَعُّلِهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَطُهُورِهِ، وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ**»(٢)، فصفة اليمين صفة لأهل الإسلام، وصفة الشمال صفة لأهل الإجرام.

وبعد أن بين حال المؤمنين قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴾ الذين جحدوا الآيات وكذبوا بها وردوها وأبوها وأعرضوا عنها ﴿ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴾ أَيْ: أصحاب الشمال، وقد قال الله جَلَّ جَلَالُهُ في وصفهم: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ ﴾ [الواقعة:٩]، ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ٤٦ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ٤٨ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠ ﴾ [الواقعة:٤١-٥٠]، فهم أصحاب الشؤم، وأصحاب الشمال في دنياهم وأخراهم،

---

(١) أخرجه أحمد (٦٤٩٤).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

حتى في قيامتهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾ [الحاقة:٢٥-٢٧].

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ أَيْ: أصحاب المشأمة في نار، قد أغلقت وأطبقت عليهم أبوابها، زد على ذلك أنهم في عمد ممددة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الهمزة:٨-٩]، ولو تركوا على حالهم لكان عذابًا شديدًا؛ ولكنهم مع ذلك يكونوا أعمدة ممددة زيادة في العذاب والخزي، والنكال، سلمنا الله وجميع المسلمين.

والحمد لله رب العالمين.

الجزء الثلاثون سورة الشمس

مكية — آياتها ١٥

سورة الشمس، مكيّة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا
بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا
۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾ أقسم الله بهذا المخلوق العظيم الذي جعله الله عَزَّوَجَلَّ مضيئًا لهذا العالم الذي نحن فيه، فنستفيد من ضوئها وحرها، ومن شروقها وأفولها.

والأصل أن الله عَزَّوَجَلَّ يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ تعظيمًا لشأنها وبيانًا لمنزلتها، وأما المخلوق فلا يجوز له الحلف إلا بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١)، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِالطَّوَاغِيتِ**»(٢)، وعَنْ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَلَفْتُ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ انْفُثْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا، وَتَعَوَّذْ وَلَا تَعُدْ**»(٣)، إلى غير ذلك من الأدلة.

وقيل: بأن في الآية محذوفًا، وهو: ورب الشمس وضحاها، ورب الضحى، ورب العصر، والمعنى الأول أليق؛ لأن الأصل عدم التقدير؛ ولأن الله عَزَّوَجَلَّ فعال لما يريد.

فيقول ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ قيل المراد به الضوء الذي ينبعث منها، وقيل المراد به النهار الذي يكون بسببها، أَيْ: أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالشمس، وأقسم بضحاها وهو النور الذي يغطي البسيطة.

﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾ وأقسم بالقمر المخلوق العظيم الذي جعل فيه آيات ظاهرات بينات، به يعرف تعاقب الشهور والأعوام، وبه يعرف الحساب، ومن عجيب شأنه أنه يبدأ هلالًا وينتهي بذلك، فيرتقي من مطلع إلى مطلع حتى يكتمل ليلة الرابع عشر أو الخامس عشر ثم يعود كالعرجون

---

(١) متفق عليه، البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه أحمد (٢٠٦٢٤).
(٣) أخرجه أحمد (١٥٩٠)، وابن ماجه (٢٠٩٧).

القديم، حتى يصير هلالًا آخر لكن من جهة المشرق، فإذا ما ذهب نوره وصعد مرة أخرى من المغرب بدأ الشهر، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أَيْ: تلاها في الظهور والخروج، وقيل تلاها؛ لأنه يكون بعدها، والذي يظهر أن المعنى الأول هو المقارب؛ لأن النهار أولًا ويتلوه الليل، والقمر يكون في الليل.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ وأقسم أيضًا بالنهار الذي جعله لمعائش الناس، كما أنه جعل الليل لسبات الناس وراحتهم، وهذا من فضله عليهم، إلا أنهم اختلفوا في قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ هل المعنى يعود إلى الشمس؛ لأن بعض أهل العلم جعل المعنى يعود إلى الشمس في جميع هذه الآيات.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ جلَّا الظلمة وغشى البسيطة بنوره، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ يغشى الشمس بظلمته فيذهب بضوئها، وقيل يغشى البسيطة، وهذا هو الصحيح؛ لأن الشمس ربما تكون شارقة في موطن آخر.

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ أقسم بالمخلوق العظيم والجرم الكبير الذي جعله الله عَزَّوَجَلَّ سقفًا محفوظًا لهذه البسيطة، وأفرد السماء، ويدخل فيها جميع السموات، لأنها اسم جنس. حُلِّيَ بالألف واللام، فأفاد العموم، ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ قيل: والذي بناها، والمعنى والسماء والله، الذي بناها فكأنه حلف بالسماء وحلف بالذي بنى السماء، وقيل أيضًا والسماء وبنيانها، أَيْ: أنه أقسم بالسماء ذلك الجرم العظيم الذي ما بين أسفل كل سماء وأعلاه مسيرة خمسمائة عام، وأقسم ببنائها، أو وأقسم بنفسه المقدسة التي بنت تلك السماوات، وهذا دليل على قدرته العظيمة، فإنه لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض وهو العلي القدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: وأقسم بهذه البسيطة التي نحن عليها وما فيها من الجبال والوديان والوهاد والبحار والأنهار والصحاري والقفار، ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أَيْ: دحاها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات: ٣٠-٣١] وقد بسط الأرض وأعدها؛ لمصالح العباد ومنافعهم، وهذا ظاهر جلي، فلو كانت الأرض كلها على حالة واحدة ربما ما صلحت لسكنى الناس، ولوجدوا فيها العنت والتعب؛ لكن - سبحان الله - جعل فيها الجبال، وفيها من الثمار، والمياه، والمناخ ما يصلح به حال أهله، وخلق الأرض منبسطة، وفيها من التربة والمناخ ما يصلح به أهله، ويقع بها خير عظيم.

ثم قال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أَيْ: أقسم بنفسٍ وما سواها وقيل المراد نفس الإنسان المكلف

أقسم الله بها؛ لعجيب شأنها، فتفكر في نفسك أيها المخلوق، كيف تكون بين الحين والآخر تارة في فرح وتارة في حزن، وتارة في سرور وتارة في غضب وتشعر بتغيرات بداخلك وأنت جالس في موطنك، ربما تشعر بشدة حال وضيق نفس، وربما تشعر بانشراح صدر وسرور حال، وربما يغضبك ما لا يغضب، ويفرحك ما لا يفرح، وربما العكس.

فأقسم الله بهذه النفس ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أَيْ: والذي سواها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، خلقها على هذه الهيئة العظيمة، وقيل المراد جميع الأنفس المخلوقة، أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بجميع مخلوقاته التي لها نفس، ولولا أن الله عَزَّوَجَلَّ جعل في الإنسان نفسًا لكان كالتمثال.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أَيْ: فأرشدها إلى فجورها وتقواها وبين لها ذلك وليس فيه أن الله عَزَّوَجَلَّ يحب الشر ويرضاه، بل إنه يبغضه ويأباه، ولكن هذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣]، وكقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد:١٠]، فالله عَزَّوَجَلَّ خلق الناس على حالين: حال إيمان وبر وهدى، وحال إجرام وكفر وبغي. ومعنى ألهمها ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، أَيْ: أن هذه النفس سائرة إما إلى فجور إذا عصت الله عَزَّوَجَلَّ، وإما إلى هدى وتقى إذا لازمت شرع الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله عَزَّوَجَلَّ خالق كل شيء، إلا أنه خلق الخير وهو يحبه ويأمر به، وخلق الشر ولا يحبه وينهى عنه، فهذا هو المعنى، حتى لا يتبادر إلى الذهن معنى يخالف ما عليه اعتقاد أهل السنة والجماعة، فالمعنى جعل ما فيها من الفجور والتقوى، وذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الفجور قبل التقى؛ لأن أكثر الناس على مخالفة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وإعراض عن دين الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣].

ثم في الآية معنى عظيم: وهو أن الله هو الذي يهدي من يشاء إلى أقوم الطرق وأحسن السبل؛ فضلًا منه ومنة ورحمة، ويضل من يشاء عدلًا منه ونقمة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦].

وفيها بيان أن نفوس البشرية تنقسم إلى قسمين: نفوس طائعة، وهي الممدوحة، ونفوس فاسدة فاسقة، وهي المذمومة. وفيها أن صلاح العبد يعود إلى صلاح نفسه، فمن كان في نفسه صالحًا كان في ظاهره صالحًا، ومن كان في نفسه فاسدًا كان في ظاهره فاسدًا. وبهذا تعلم أيها المسلم أنه يجب عليك أن تعالج نفسك بإخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ وحسن المراقبة له، والمحبة لرسول الله ﷺ، ولأصحابه ولمن سار على سيره وهديه، والمحبة لكل كمال، والبغض لكل رذيلة.

فهذا أحد عَشرَ قسمًا، أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بها، والجواب لها.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ أفلح في الحياة الدنيا، من زكى نفسه بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والفلاح هو حصول المطلوب والسلامة من المرهوب.

والمعنى الثاني: أن المفلح هو من زكاه الله عَزَّوَجَلَّ، وكلا المعنيين صواب، فالموفق للطاعات هو الذي يوفقه الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور:٢١]، وقد قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأعلى:١٤] وفي دعوة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة:١٢٩] أَيْ: يطهرهم من درن الذنوب والمعاصي، وفي دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»(١).

وقوله: ﴿ قَدْ ﴾ تدل على التكثير وتدل على التحقيق وهو المراد هنا، ﴿ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ زكى النفس؛ لأن النفس إذا زكت زكت الأعمال، وإذا فسدت فسدت الأعمال كقول النبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(٢).

﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ خاب في الدنيا وفي الآخرة ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [طه:١١١] لحقته. الخيبة والخسارة.

﴿ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أَيْ: الذي أخملها، ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، وذلك بارتكاب المخالفات وبالمعاصي والسيئات، فأصبحت مخذولة سيئة غير محبوبة.

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ بعد أن أقسم هذه الأيمان: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ وبهذا تعلم عظم شأن هذه النفس وحاجة العبد إلى مراقبة الله فيها وإلى صلاحها والنفس صلاحها بغير ما يصلح البدن، نعم هناك تعلق، لكن البدن يصلحه الطعام والشراب والنوم ونحو ذلك، والنفس تصلح بقراءة القرآن، وبذكر الملك الديان، والوقوف بين يدي الرحمن، والعمل بوحي الله عَزَّوَجَلَّ المنزل على النبي العدنان ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (١٥٩٩)، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾

ثم أخبر الله جَلَّجَلَالُهُ عن حال ثمود مع نبيهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ أَيْ: أن قوم ثمود كذبوا بنبوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمره لهم بالكف عن الناقة، وكان سبب ما لحقهم من التكذيب هو الطغيان والفجور؛ لأن النفس إذا كان معها طغيان لا يصلح معها شيء، فلا تنفعها دعوة، ولا تذكير، وقيل معنى ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أَيْ: بأجمعها، فتمالؤوا جميعًا على عقر الناقة.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ أَيْ: قام أشقى القوم، رجلٌ عزيزٌ في رهطه كعبد ابن زمعه، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ النَّاقَةَ، وَذَكَرَ الَّذِي عَقَرَهَا، فَقَالَ: «**إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا: انْبَعَثَ بِهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ**»(١)، قام إلى تلك الناقة التي أمرهم الله بإكرامها، والشرب من لبنها، والقسمة للماء الذي بينهم وبينها، انبعث إليها وعقرها، وسماه الله شقيًا؛ لأنه أعرض عن أمر الله وأمر رسول الله ﷺ، وأضاف الله عَزَّوَجَلَّ الذبح إليهم جميعًا؛ لأنهم رضوا، والراضي كالآمر ففي قوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ أَيْ: قام مسرعًا إلى فجوره وظلمه وبغيه.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ اتركوا ناقة الله ولا تعترضوها ولا تمسوها بسوء، كما قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٤-٦٥].

وأضافها الله إلى نفسه إضافة تشريف.

ومن الفوارق بين إضافة الصفات وإضافة التشريف: أن الصفة معنى يقوم بغيره فإضافته إلى الله إضافة صفة: وجه الله، سمع الله، بصر الله، إرادة الله، محبة الله، غضب الله، أَيْ: أن الله موصوف بهذه الصفات، أما الناقة والبيت والعبد يقوم بنفسه، فإضافته إلى الله إضافة تشريف أو خلق وملك وإيجاد.

﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ يعني اتركوا سقياها لا تتعرضوها؛ لأنهم كانوا يشربون من لبنها يومًا وهي

---

(١) متفق عليه، البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥).

تشرب الماء يومًا، ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء:١٥٥]، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر:٢٨] فأبوا وخالفوا هذا الأمر، ولو التزموا الشرع لكان خيرًا لهم.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ أعرضوا عن أمره، وارتكبوا نهيه وزجره، كذبوا رسالته ونبوته ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقرها واحد، وأضاف الله العقر إليهم جميعًا؛ لأنهم تمالؤوا، ولذلك كان العذاب عليهم جميعًا ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أهلكهم وغطاهم بسبب تلك المعصية العظيمة والجرم الكبير؛ بتكذيب النبي ﷺ، وتكذيب ما أمر الله به، ومخالفة شرع الله عَزَّوَجَلَّ ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ سوَّى تلك القرية حيث أهلكها، فأخذتهم الصاعقة من فوقهم، والزلزلة من تحتهم، وبركوا على ركبهم يستغيثون فلا يغاثون، كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود:٦٤-٦٨]، وهذا هو بطش الله الذي لا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فزكِّ نفسك، فإن هؤلاء لم يزكوا أنفسهم فلحقهم هذا العذاب، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت:١٧-١٨].

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَخَافُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ تَبِعَةً؛ لأنه المالك المطلق، والقاهر الذي لا يغلب. وقيل: أَيْ: لَمْ يَخَفِ الَّذِي عَقَرَهَا عَاقِبَةَ مَا صَنَعَ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى؛ لِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ(١).

ففي هذه السورة آيات بينات ودلائل واضحات، وهي مرتكزة على ثلاثة أمور:

الأول: القسم من أجل تأكيد المحلوف عليه. والقسم يكون بالله عَزَّوَجَلَّ أو بصفة من صفاته، هذا في حق العبد، أما في حق الله عَزَّوَجَلَّ فله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

الثاني: أن زكاة النفس بطاعة الله وتوحيده وهي قطب رحي السعادة، وسبب الفلاح العظيم.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/٤١٤-٤١٥).

الثالث: قص الله عَزَّوَجَلَّ لنا ما لحق ثمود في اعتراضهم على شرع الله وأمره، فأهلكهم ودمدم عليهم، ولم يخف عاقبة ذلك الهلاك؛ لأنه القوي الذي لا يعجزه شيء، والغني الذي لا ينقصه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والحمد لله رب العالمين.

مكية الجزء الثلاثون سورة الليل آياتها ٢١

سُورَةُ اللَّيْلِ، مَكِّيَّةٌ، وهذه السورة من وسط المفصل، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في صلاة العشاء، وأمر بذلك معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين صلى بقومه، فعن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ الْبَقَرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ، فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟**». ثَلَاثًا، «**اقْرَأْ**: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس:١] **وَ**: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]. **وَنَحْوَهَا**»(١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أقسم بالليل ﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ يغشى البسيطة بظلامه ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ أقسم بالنهار ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ جلَّ ضوءه البسيطة وأشرق واستنار.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ لها معنيان: الأول: أنه أقسم بنفسه المقدسة، فقال: والذي خلق الذكر والأنثى، الثاني: أنه أقسم بالذكر والأنثى. كما في قراءة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه كان يقرأ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:٢]، وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى(٢).

وإذا تأملت هذه المقسومات الثلاثة وجدت أن الله عَزَّوَجَلَّ أقسم بالمتقابلات، فأقسم بالليل ويقابله النهار، وأقسم بالنهار ويقابله الليل، وأقسم بالذكر ويقابله الأنثى، وهذا عام في كل ذكر وأنثى من الحيوان.

وهنا فائدة: وهي ما جاء به دارون الملحد، وتابعه كثير من الناس بنظرية النشوء

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٦)، ومسلم (٤٦٥)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٤٢)، ومسلم (٨٢٤)، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والتطور، وهي أن الانسان كان مخلوقًا على غير هذا الخلقة، ثم تطور حتى صار قردًا، ثم تطور حتى صار إنسانًا بشريًا، وهذه النظرية كفرية؛ إذ أنها تُخالف الكتاب والسُنة والإجماع، فإن القرآن والسنة والإجماع قائم على أن الله خلق آدم أبا البشر عَلَيْهِ السَّلَامُ من تراب، كما قص الله عَزَّوَجَلَّ علينا قصته في سورة البقرة، والحجر، والإسراء، وص، والكهف، وطه، وفي غير ذلك من السور.

ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مبينًا المقسم عليه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ أَيْ: إن ما تعملونهُ يا معاشر الناس ﴿لَشَتَّىٰ﴾ متنوع ومتفرق، فمنهم من يعمل بأعمال أهل الصلاح والخير، ومنهم من يعمل بأعمال أهل الشر والضير، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، فكثير من الناس سلك سبيل الإجرام، وقليلهم الذين سلكوا سبيل أهل الإيمان. وإذا نظرت إلى من حولك تجد معنى هذه الآية: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ في أمور الدنيا والدين، فليس كل الناس في أمور الدنيا على معنى واحد، هذا يعمل في التجارة، وهذا في الزراعة، وهذا في الصناعة، وهذا يدرس، وهذا ينام، وهذا يفعل ويفعل. وفي أمور الدين، تجد هذا يقبل على طاعه الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده، وإفراده بما يجب له، وعلى الصلاة، والصوم، والحج، وهذا عنده نوع تفريط، ويوجد أشد من ذلك، من يكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، ورسله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وغير ذلك.

ثم يبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال كل طائفة، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ أَيْ: أعطى المال في سبله، وأعطى الأعمال الصالحة التي طلبت منه، وإن كانت الآية بمنطوقها يدخل فيها إعطاء المال أولًا في أوجه الخير، فكذلك هي شاملة لكل عمل صالح، فهو عطاء تتقرب به الى الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ما وجب عليه ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ راقب الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور وترك المحظور، فإن من معاني التقوى أن تجعل بينك وبين عقاب الله عَزَّوَجَلَّ وقاية. ومن أعظم أسباب التقوى: الإيمان، والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة:٢-٤]. وهكذا يتقي الله عَزَّوَجَلَّ بترك المحظور، فما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه أجتنبه وابتعد عنه.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ قيل: صدق بالوعد والجزاء، وقيل بالجنة، وقيل: بلا إله إلا الله، وقيل: غير ذلك، وكلها معاني مُتقاربه، بمعنى أنه صدق وعد الله للمؤمنين، بإثابتهم، ومجازاتهم الجزاء الأوفى؛ ولذلك بادر إلى العمل الصالح، والتزم لا إله إلا الله قولًا، وفعلًا، واعتقادًا.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أَيْ: أن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى جزاءه في الدنيا أن ييسره الله عَزَّوَجَلَّ ليسرى العمل، ويرفع عنه الأغلال والآصار التي كانت على من قبلنا، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»(١).

والمعنى الثاني: أنه ييسره لسلوك سبيل اليسرية في قبره، فَيُسأل فيجيب، وعلى الصراط يمر كمر البرق أو الريح أو الخيل أو غير ذلك، ويؤمن من الفزع الأكبر، فييسره الله عَزَّوَجَلَّ لكل خير، والتيسير بيد الله:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَونٌ مِنَ اللهِ لِلفَتَى ❁❁❁ فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيهِ اجتِهَادُهُ

فما تستطيع أن تصلي إلا إذا أعانك الله، أو تتصدق أو تتكلم أو تقوم أو تقعد إلا بتيسير الله عَزَّوَجَلَّ، فإذن الطائع يوفقه الله، والعاصي يخذله الله.

وبعد أن ذكر صنف أهل الإيمان ثَنَّاه بأهل الإجرام فقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ بخل بما أوجب الله عليه، فبخل بالزكاة المفروضة، وبالنفقات الواجبة، وبخل على نفسه بالطاعات فلم يأتِ بالصلاة والصيام، وقبل ذلك التوحيد وغير ذلك مما أوجب الله عليه، واستغنى عن الله، وإن كان لا يستطيع أن يستغني عن الله في الواقع، لأن ما من مخلوق إلا وهو فقير إلى الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، ولكنه يتكبر ويتجبر، ويظهر أنه مستغني عن الله، والله هو الغني الحميد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يضره أعراض المعرضين ولا تكبر المتكبرين. ما عساك أيها الإنسان فإذا نظرت إلى من حولك أنت فرد في أسرة، في مجتمع، في دولة، أنت لا تستطيع أن تعيش إلا بمن يعينك على هذه الحياة، تحتاج إلى زوجة، وولد، ودكان، وحمام، وغرفة نوم، وسيارة، وغير ذلك، أنت فقير، فلا تستطيع أن تستغني عن الله، لكن إذا استغنى ورأى نفسه متكبر جازاه الله عَزَّوَجَلَّ على سوء فعله.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أَيْ: كذب بالتوحيد، أو كذب بالوعد، أو كذب بالجنة، على المعاني السابقة: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ يجعله الله عَزَّوَجَلَّ في عسرٍ في جميع شأنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]، وبعد مماته ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩).

وكذلك تعسر عليه أعماله، فالدين يُسر والبدعة عُسر، والتوحيد يُسر والشرك عُسر، والطاعة يُسر والمعصية عُسر، لكن كثيرًا من الناس لا يفقهون، يتتبعون شهواتهم وأهواهم. فإذن أمور الدين الموافقة لشرع رب العالمين مبنية على اليسرية، ومُخالفة الإسلام، والسنة مبنيًا على العسرية.

ومعنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أَيْ: يُخذل، ليس معنى ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ يُعينه ويوفقه ويسدد، لا، المشرك لا يوفق ولا يسدد، والعاصي لا يوفق على معصيته ولا يسدد، بينما المؤمن يُعان من الله؛ ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ**»(١)، «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٢)، والمجرم يُخذل، ويسلط الله عليه شيطانه وهواه ونفسه، فيقع فيما وقع فيه من الضلال البعيد.

وفي هذه الآيات الإيمان بالقدر، ففي «الصحيحين»(٣) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «**لَا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٥-٦]، إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ١٠].

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

ثم يقول تعالى مبينًا ضعف المتكبرين: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أَيْ: أيها الإنسان لا يغني عنك مالك شيئًا إذا هلكت ومت ولقيت ربك، وإنما الذي ينتفع به العبد يوم القيامة العمل الصالح إذا قبله الله عَزَّوَجَلَّ. وقبول العمل مبني على شرطين: الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والثاني: والمتابعة لرسول الله ﷺ. فانظر لنفسك أيها المسلم قبل أن تتردى، ولا تجد من يُعينك في ذلك الأمر الذي وقعت فيه، قال النبي ﷺ: «**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ**»(٤)، فإن تردى لا يبقى

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٩٧)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه أحمد (٢٢١١٩)، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) البخاري (٤٩٤٦)، ومسلم (٢٦٤٧).
(٤) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

معه، إلا العمل، إن كان صالحًا فنعم هو، وإن كان غير ذلك فبئس ما هو، نسأل الله السلامة.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ الذي علينا أن نهدي الناس، ونبين لهم طريق الخير من طريق الشر والضير.

والهداية أنواع:

١ - **هداية التوفيق**، وهذه خاصة بالله جَلَّ جَلَالُهُ، ويعطيها الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين الموحدين الطائعين.

٢ - **وهداية الدلالة والإرشاد**، وهي عامة فإن الله أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ لهداية الناس، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى:٥٢].

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [الليل:١٢] أَيْ: البيان لطرق الخير والشر ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥].

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ يقول الله عَزَّوَجَلَّ وإن لنا الآخرة، فنجازي المؤمنين بإحسانهم، ونجازي الكافرين بإجرامهم، فيخلد المؤمنون في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ويخلد الكافرين في نار أُعدت للكافرين. وهذه الآية فيها معنى عجيب: إذا كانت الآخرة لله والأولى لله، فلماذا تكون على غير مراد الله؟!

فلو دخلت بيتك ووجدت ولدك يعمل على غير ما تُريد، ماذا سيكون خطابك له - أنا أحدثكم عن ما يقع منا جميعًا - خطابنا: هذا بيتي! لماذا تفعل فيه ما لم آذن لك؟! فهنا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ ﴾ يجازي المحسنين بأحسن الجزاء؛ والآخرة أكمل، والأولى هي ملك الله، وأرض الله، وخلق الله، فينبغي أن يكون المسلم على ما أراد الله، وإلا كان عاصيًا لله متصرفًا في ملك الله بما لم يأذن الله عَزَّوَجَلَّ به شرعًا؛ لأن الإذن الكوني يختلف عن الإذن الشرعي، الإذن الكوني كل يفعل ما كُتب عليه في الأزل، وأما الأذن الشرعي فهو الطاعة وترك المعصية.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ خوفتكم ﴿ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ نارًا ملتهبة مُحرقه، نسأل الله أن يجنبنا وإياكم من حرها وسمومها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ مسكنه النار ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:٧٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء:٥٦]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ:٢٤-٢٦]. وهنا يقول: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ ﴾ خوفتكم، والنبي ﷺ كان يقول «**أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ**،

أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ» حَتَّى لَوْ كَانَ رَجُلٌ كَانَ فِي أَقْصَى السُّوقِ، سَمِعَهُ، وَسَمِعَ أَهْلُ السُّوقِ صَوْتَهُ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ(١). وقد أرسل الله جَلَّجَلَالُهُ الرسل بالنذارة والبشارة، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾ أَيْ: بالخير والجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥] أَيْ: من النار والعذاب.

﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ مُحرقة، حرها شديد، وقعرها بعيد، ومن استغاث فيها أُغيث، لكن ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف:٢٩]، ماذا تقول في وصفها أبلغ مما وصفها الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر:٣٦-٣٧]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم:٦].

ثم قال في وصف هذه النار واهلها: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ أَيْ: أنه لا يسكن فيها ويخلد إلا الشقي والمراد به الكافر، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى:١٠-١٣]، وأما المسلم إذا دخلها لذنب اقترفه أو بسبب تفريطه، فإنه يخرج منها بعد ذلك، فقد جاء من حديث أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**»(٢).

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾ أَيْ: الأشقى هو الذي كذب بآيات الله الشرعية، وربما وقع منه التكذيب أيضًا بالآيات الكونية، لكن أغلب الناس يُؤْمِن أن الله هو الخالق الرزاق المالك المدبر لهذا العالم ولكنه يكفر ويكذب بآيات الله الشرعية، التي هي القرآن والسنة. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الكتاب والسنة علمًا وعملًا، وكل متولي له حظه من الآية، فبعضهم يتولى توليًا كليًا

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٩٩)، عَنْ النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (١٨٥).

كالكافرين، وبعضهم يتولى توليًا جزائيًا كعصاة المسلمين، فينبغي للمسلم أن يحتاط لنفسه.

ثم قال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أَيْ: النار التي تلظى، ينجو منها ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ الذي يفعل المأمور ويترك المحظور. فالتقوى لها حدان: الحد الأول: فعل المأمور، والثاني: ترك المحظور، قال النبي ﷺ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»(١). وإذا اجتمعت مع البر: فالبر الطاعة، والتقوى ترك المعصية.

والأتقى هو: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ ينفق في سبيل الله، ليزكي نفسه، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، فمن معاني الزكاة أنها تزكي المال، تنميه وتصفيه، وكذلك تزكي الأنفس عن البخل، والشح، والطمع، وغير ذلك. وذكر الله المال في هذه الآيات قبل الصلاة مع أن الصلاة أوكد في الفرض؛ لأن المجتمع المسلم في بداية إسلامه كان فقيرًا، يحتاج إلى الإعانة، ويحتاج إلى التكاتف والتعاون، ولأن الكفار كان قد انتشر عندهم الرباء، والبخل وغير ذلك، فأراد الله تميز المسلمين في سعة الإنفاق والتعاون على البر والتقوى.

وكان عطاؤه لله لا لجزاء، ولهذا قال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ قيل هذه الآيات نزلت في شأن أبي بكر الصديق، وعليها الإجماع، أَيْ: أنه يؤتي ماله يتزكى، يزكي نفسه، وكان إنفاقه قربة لله جَلَّجَلَالُهُ وليس مجازاة على فضل سابق ممن أنفق عليه. وبيانه: أن بعض الناس يعطيك لأنك أحسنت إليه، ابتسمت له، أعنته، جئته إلى غير ذلك، أما هذا ينفق في سبيل الله وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ له نعمه، وإنما هو تقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك أنفق أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أكثر من أربعين ألف دينار في اعتاق الرقيق، وفي الإنفاق على رسول الله ﷺ، حتى قال النبي ﷺ «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ»(٢).

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أَيْ: أن الذي حمله على هذا الإنفاق أنه يرجو الله، ويخلص لله، ويأمل ثواب الله، ويلتزم أمر الله.

وفي الآية إثبات صفة الوجه لله عَزَّوَجَلَّ، وهو من الصفات الذاتية فالله عَزَّوَجَلَّ يقول عن

---

(١) متفق عليه، البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٢) متفق عليه، البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

نفسه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧]، ويقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، ويقول النبي ﷺ: «**حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(١)، ويقول ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ**»(٢).

وفي الآية بيان عظم الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، فإن الإخلاص ينمي العمل ويجعله مقبولًا، والمخلص قد يُؤجر وهو لا يعمل، قال النبي ﷺ كما في حديث أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ**»، - وذكر منهم - «**وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ، يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ. فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ**»(٣).

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أَيْ: أن الله سيُعطيه في الآخرة ويرضيه، وهذا وعد لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ففي «الصحيحين»(٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ فِي الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ**» قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا عَلَى أَحَدٍ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**».

مع أن الرافضة يطعنون فيه مخالفين لكتاب الله جَلَّ جَلَالُهُ، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه مسلم (١٧٩)، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه النسائي (١٢٢٩)، عَنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه أحمد (١٨٠٣١)، والترمذي (٢٣٢٥).
(٤) البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧)، واللفظ له.

مكية الجزء الثلاثون سورة الضحى آياتها ١١

سُورَةُ الضُّحَىٰ ، مَكِّيَّةٌ، وفيها معاني بليغة، وفوائد بديعة، وقد ذكر بعضهم أنه يستحب عند قراءة الضحى وما بعدها من السور إلى آخر القرآن أن يكبر، فيقول: الله أكبر ولا إله إلا الله والله أكبر، لكن هذه السنة لم تروَا إلا من طريق أَبِي الْحَسَنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَزَةَ الْمُقْرِئِ، وهو من القراء كما ذكر ذلك ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)، إلا أنه ضعيف في الحديث.

وسبب نزول هذه السورة ما جاء عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: احْتَبَسَ جِبْرِيلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ: أَبْطَأَ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ فَنَزَلَتْ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى:١-٣](٢). وقد اختلف العلماء في فترة الوحي، فقيل: عشرة أيام وقيل: خمسة عشر، وقيل: أكثر أو أقل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالنهار، وقيل: بوقت الضحى، الذي هو من طلوع الشمس إلى قبل الزوال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨﴾ [الأعراف:٩٨]. قيل: نهارًا، فسمي النهار ببعض وقته.

﴿وَٱلَّيْلِ﴾ وأقسم بالليل ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ غطى البسيطة. ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ هذا هو المقسم عليه أن الله ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أَيْ: ما تركك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أَيْ: لم يبغضك، ففترة الوحي لم تكن تركًا من الله عَزَّوَجَلَّ لعبده ولا بغضًا له، وإنما لله عَزَّوَجَلَّ الحكمة البالغة والحجة الدامغة، وكان في فترة الوحي تشوق من النبي ﷺ لما يأت بعد ذلك، وقد ثبت القول بفترة الوحي من حديث جابر في «الصحيحين»(٣)، وأما ما جاء من أن النبي ﷺ جعل يصعد على الجبال

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨/٤٢٣).
(٢) متفق عليه، البخاري (١١٢٥)، ومسلم (١٧٩٧).
(٣) البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).

يريد أن يتردى[١]، فهذا لفظ ضعيف ومنكر، ضعيف؛ لأنه لم يأت من طريق متصل وإنما جاء مرسلًا. ومنكر؛ لأن النبي ﷺ ما كان له أن يتخلق بأخلاق أصحاب الوساوس والأمراض النفسية الذين يعالجون أنفسهم بالانتحار والقتل، ثم إن النبي ﷺ قد أمره الله بالصبر في غير ما موطن، وهو صاحب الخلق النبيل.

ثم بشره بشاره عظيمة: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ وهذا لفظ عام في كل متأخر من أمور الدنيا وفي شأن الآخرة، ليس هو فقط أن الآخرة يا محمد خير لك من الدنيا، بل إن ما يأتي من الليالي والأيام والسنين والأعوام سيكون خيرًا لك من هذا الحال الذي أنت عليه، وفعلًا ما مر يوم على رسول الله ﷺ إلا وفيه من التمكين والعز ما لم يكن في اليوم الذي قبله، وما زال الإسلام يظهر حتى قبض النبي ﷺ وقد أتمه الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. وقد خيره الله قبل موته بين زهرة الحياة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده، كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]. فمن سلك سبيل النبي ﷺ يرجى له هذا. ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ الأيام الأخيرة الآتية، والآخرة التي هي دار القرار ﴿خَيْرٌ لَّكَ﴾ أيها المستقيم على دين الله وشرعه ﴿مِنَ الْأُولَىٰ﴾ من الحياة الدنيا، ومما سلف من أوائل الأمور.

ثم قال مبشرًا له ببشارة أخرى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وهذا أيضًا عامة في شأن الدنيا والآخرة أن الله عَزَّوَجَلَّ سيعطي محمدًا ﷺ، ومن سار سيره واقتفى على أثره، في الدنيا، والآخرة حتى يرضى. ومن أعظم شأن الآخرة: أن الله يرضى عن عبده المؤمن رضًا لا غضب عليهم بعده: «**يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟**»، - ومن عظيم شأن الآخرة، أن يرى المؤمن ربه - «**قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** عَزَّوَجَلَّ»[٣]، ومن عظيم ما يرضي الله به المؤمنين في الآخرة، الشرب من الحوض المورود الذي اختص الله به محمدًا ﷺ، وهكذا ما يلحقه من الشفاعة، والمرور على الصراط بأمن وأمان.

وفي قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وعد الله لمن حقق التوحيد وأتى بالصلاة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٢)، وأحمد (٢٥٩٥٩)، وفيه «وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ، فِيمَا بَلَغَنَا، حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ»، وهو من بلاغات الزهري.

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٨١)، عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحافظ على الأركان أن الله عَزَّوَجَلَّ سيعطيه من خيري الدنيا والآخرة ما يرضيه عن الله وما يرضيه بهذه الحياة، فلماذا نترك هذا الوعد العظيم ممن لا يخلف الميعاد وتتعلق أنفسنا بدنيا زائلة ووعود كاذبة من الشيطان؟! ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٨].

وقد أرضاه الله، فهاجر إلى المدينة فأمن فيها، وقاتل المشركين فانتصر عليهم، وكان ضعيفًا فقواه الله، وقليلًا فكثره الله، ومحتقرًا عند الناس فعظمه الله عند المؤمنين ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح:٩].

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا عظيم نعمته عليه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ ألم تكن تُربَّى في بيت جدك ثم في بيت عمك بدون أب ولا أم. واليتيم يلحقه من الضعف والهوان ما الله به عليم، من احتقار الناس، وتسلطهم عليه، وانكسار قلوبهم، ومع ذلك جعل الله محمدًا ﷺ في مأوى عظيم، أحاطه جده ورعاه كأنه ابنه، ثم أحاطه عمه أبو طالب ورعاه أعظم من رعاية الابن، وكان يغضب لغضبه ويرضى لرضاه، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول لنبيه ﷺ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا ﴾ واليتيم يلحقه ما يلحقه ﴿ فَـَٔاوَىٰ ﴾ فأواك وحفظك ورزقك.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ أَيْ: لم يكن يعلم الكتاب والحكمة فعلمه الله بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:١١٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى:٥٢]. فأنزل الله عليه الوحي الشريف، والآيات البليغات، والحجج البديعات، فعجز الكفار أن يأتوا بمثلها أو بُعشرها.

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا ﴾ فقيرًا لا مال لك ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ أغناه بالغنائم، وفتح على أمته، حتى سيقت لهم كنوز كسرى وقيصر، وليس الغنى عن كثرة العرض فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»(١)، فجمع الله لمحمد ﷺ بين غنى النفس وغنى الحال، إلا أنه كان كثير الإنفاق ربما لا يبقى معه شيء في بعض الأيام؛ لأنه كان يعطي الرجل الغنم بين الجبلين(٢)، وما سُئل ﷺ شيئًا وقال: لا، فعَنْ جَابِرِ بْنِ

(١) متفق عليه، البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٢).

عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «مَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ فَقَالَ: لاَ»(١).

ثم أمره الله بعد أن ذكر له منته عليه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ كما كنت فقيرًا فآواك فإياك أن تقهر اليتيم بقول أو فعل؛ لأن اليتيم يحتاج إلى مزيد رعاية وعناية ورفق.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ كما كنت فقيرًا فأغناك الله وجاءك السائل فإياك أن تنهره بالطرد ونحوه.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أَيْ: كما أنعم الله عليك حدِّث بنعمة الله، كساك تُرى نعمة الله عليك، وسع عليك في الرزق يُرى أثر نعمة الله عليك بالتوسيع على أبنائك وعلى أهلك، وبالإنفاق في أوجه الخير، وبالتحدث بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليك، وفي حَدِيثِ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيَّ أَطْمَارٌ، فَقَالَ: «**هَلْ لَكَ مَالٌ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟**» قُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ، قَدْ آتَانِي اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الشَّاءِ، وَالْإِبِلِ، قَالَ: «**فَلْتُرَ نِعَمُ اللَّهِ، وَكَرَامَتُهُ عَلَيْكَ**»(٢).

والحمد لله رب العالمين.

(١) متفق عليه، البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).
(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٨٧)، والنسائي (٩٤٨٥).

مكية الجزء الثلاثون سورة الشرح آياتها ٨

سُورَةُ الشَّرْحِ ، مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾

يقول الله لمحمد ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أَيْ: قد شرحنا لك صدرك، شرحه بالتوحيد والوحي والعلم والإيمان، فرزقه الطمأنينة والسكينة، وهدوء الحال والمآل، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢]. وانشراح الصدر يتحصل بالتوحيد والإسلام وبطلب العلم وبذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨]، وقيل: أن المعنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أَيْ: ألم نشق لك صدرك في ليلة الإسراء، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، فَأَتَاهُ آتٍ فَأَخَذَهُ فَشَقَّ بَطْنَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَرَمَى بِهَا، وَقَالَ: هَذِهِ نَصِيبُ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ فَأَقْبَلَ الصِّبْيَانُ إِلَى ظِئْرِهِ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَاسْتَقْبَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَدِ انْتَقَعَ لَوْنُهُ» قَالَ أَنَسٌ: «فَلَقَدْ كُنَّا نَرَى أَثَرَ الْمِخِيطِ فِي صَدْرِهِ»(١)، وقد شُقَّ صدر النبي ﷺ مرتين مرة في صغره وهو يلعب مع الغلمان وشق صدره ليلة المعراج، والصحيح أن المعنى الأول هو الأكمل.

وفي هذا دليل على أن من أعظم النعم انشراح الصدر؛ فإن كثيرًا من الناس إذا ضاقت صدورهم ضعف إيمانهم ولحقهم الحرج، وكان من دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه:٢٥-٢٨]، فكم من إنسان لم يعرف السنة والتوحيد؛ بسبب ما على صدره من الران الذي يغطي الصدر بكثرة الذنوب والمعاصي نسأل الله السلامة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤]، ويُزيل هذا الران الاستغفار، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٢١).

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]»(١).

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أَيْ: كفرنا عنك سيئاتك وما لحقك، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ١-٢].

﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أَيْ: أن الذنوب والمعاصي كالحمل الشديد على الإنسان، لاسيما يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥]. فتب إلى الله أيها المسلم قبل أن تتحمل هذه الأوزار، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ»(٢).

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ من أن الله لا يذكر إلا وذكر معه محمد ﷺ، لا سيما في الشهادة عند دخول الإسلام، وعند الأذان. فمن رفع ذكر محمد ﷺ أنه يحبه كل مسلم، ويصلي عليه كل مسلم، بل إن كثيرًا من الكفار يعظمونه لما فتح الله جَلَّ جَلَالُهُ عليه وإنما منعهم من الاستجابة إما الكبر أو الحسد، أو غير ذلك، فهذه فضائل رسول الله ﷺ تتلى عليك أيها المسلم؛ لتعلم حقه، وتؤديه على الوجه الذي شرعه الله عَزَّوَجَلَّ من غير غلو، فإن النبي ﷺ سمع جَارِيَةً

(١) أخرجه أحمد (٧٩٥٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) متفق عليه، البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).

تقول: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ - أنكر عليها ذلك - وقَالَ ﷺ: «**لاَ تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**»(١)، وعَنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ**»(٢)، ولما قالوا: يَا سَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَيَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَرَسُولُ اللهِ، وَاللهِ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللهُ**»(٣). فإذا كان هذا حال النبي ﷺ، فكيف بمن يدعو العيدروس، والهادي، والجبرتي، وابن العجيل، وابن علوان، وغير ذلك من القبور التي اتخذت أوثانًا تُدعى من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فالله رفع ذكر محمد ﷺ، ومع ذلك أخبر أنه بشر لا ينفع ولا يضر، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف:١٨٨].

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مبشرًا جميع المؤمنين: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ عسرًا وذكر يسرين، فما من عسر إلا ويعقبه يسران، وقد قال النبي ﷺ: «**وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»(٤)، فمهما ضاقت بك فانتظر فرج الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف:٨٧]، وكما قيل:

وَلَرُبَّ نازِلَةٍ يَضيقُ بها الفَتى ❁❁❁ ذَرعًا وَعِندَ اللهِ مِنها المَخرَجُ
كَمُلَت فَلَمّا استحكَمَت حَلَقاتُها ❁❁❁ فُرِجَتْ وَكانَ يظُنُّها لا تُفرَجُ

وقيل:

عَسَى الكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتُ فِيهِ ❁❁❁ يَكُونُ وَرَاءُه فَرَجٌ قَرِيبُ

وقيل:

دَعِ المقاديرَ تجري في أعنَّتها ❁❁❁ ولا تَبيتَنَّ إلا خاليَ البالِ
ما بين غمْضةِ عينٍ وانتباهتِها ❁❁❁ يُغيِّرُ اللهُ مِنْ حالٍ إلى حالِ

﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧﴾ أي: إذا فرغت من جميع أعمالك الدنيوية فانصب إلى عبادة ربك،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠١)، عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).
(٣) أخرجه أحمد (١٣٥٢٩)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٤) أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

والصلاة. فإذا فرغت من عملك فانصب إلى ربك، وقم بين يديه، شاكرًا لنعمه عليك، متضرعًا متذللًا متخشعًا، رزقك، أعطاك، وحفظك، وكساك، وأطعمك، إلى غير ذلك، فإذا فرغت فانصب. وقيل المعنى: فإذا فرغت من عبادة فانصب إلى عبادة أخرى.

﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾ أَيْ: كن راغبًا فيما عند الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الرغبة عبادة جليلة ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠ ﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠ ﴾ [الأنبياء:٩٠]. والآية دالة على فضيلة الدعاء، فإن من أعظم طرق الرغبة وإظهار الفقر هو التذلل بين يدي الله بدعائه ورجائه، في تفريج الهموم، وقضاء الديون، وصلاح الأبناء، وحصول الخير العظيم.

والحمد لله رب العالمين.

مكية الجزء الثلاثون سورة التين آياتها ٨

سُورَةُ التِّينِ، مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ﴾ أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالتين، وهو الشجرة المعروفة التي تسمى في بعض البلدان: بالبلس التركي، ومن عجيب شأنها أنه لا نوى فيها صلب، ويمكن أن تُدَّخر، وهي طعام وعلاج.

﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ وهو الشجرة المعروفة، وأصل زراعتها في الشام، وهي شجرة مباركة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون:٢٠] وقال بعض أهل العلم: بأن «التين والزيتون» المراد بها دمشق، وقيل: بيت المقدس، وقيل: جبل يقال له التين والزيتون، والمعنى الأول أصح.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ جبل الطور الذي أوحى الله فيه إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنبوة والرسالة. والطور: هو كل جبل مغطى بالشجر.

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أَيْ: مكة التي حرمها الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّنها شرعًا، وفي هذا القسم إقسام من الله عَزَّوَجَلَّ بثلاثة بلدان، كان في كل بلد منها رسول من أولي العزم من الرسل:

❖ **الأول في قوله:** ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾، إقسام ببلد الشام وبيت المقدس، وهو المكان الذي بعث فيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

❖ **الثاني في قوله:** ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ إقسام بالجبل الذي أوحى الله فيه إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

❖ **الثالث في قوله:** ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ هو المكان الذي أوحى الله فيه إلى محمد ﷺ.

وهؤلاء الرسل هم أولوا العزم من الرسل، الذين قال الله عنهم: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وهم: محمد ﷺ، وهو أفضلهم، ويليه في الفضل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويليهما في الفضل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم عيسى ونوح عليهم السلام، والله أعلم.

واستدل العلماء على أنهم المقصودون بالآية بقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب:٧].

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ هذا هو المقسم عليه أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق هذا الإنسان في أكمل هيئة وأحسن صفة، ولو تأملتم جميع الحيوان لرأيتم أنه يعجز عن تغطية سوءته إلا الإنسان؛ فأن الله عَزَّوَجَلَّ أكرمه بتغطية عورته، وأكرمه بلسان يفصح به عما في مكنونه، وأكرمه أن جعل له السمع والبصر والفؤاد، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل:٧٨]، وحملهم في البر والبحر بخلاف غيره ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الإسراء:٧٠]، وميزه بالعقل دون سواه من الحيوان، وهذه مكرمة عظيمة، إلى غير ذلك من الميزات التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ لهذا المخلوق المكلف، فخلقه في أكمل هيئة وصفة.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ فأسفل سافلين الصحيح أنها النار فرده الله إليها، وبئس القرار، ولم يسلم من العودة إلى أسفل السافلين إلا خلص المؤمنين، ففي حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة الفاجر والكافر «**فَيَقُولُ اللَّهُ** عَزَّوَجَلَّ: **اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا**»(١)، فبعد أن كان معظمًا في الدنيا مبجلًا محترمًا صار في أسفل سافلين، عنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، فَتَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ؛ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ**»(٢). قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ۖ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء:١٤٥]، أَيْ: معينًا وظهيرًا.

وقيل: ﴿ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ أَيْ: إلى أرذل العمر، لكن هذا القول لا يستقيم؛ لأن كثيرًا

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٧٧).

من المؤمنين يصابون بأرذل العمر، وربما وقع لهم الهرم وعادوا إلى ضعف الحال، ويرميهم الأطفال بالبعر، ويضحك عليهم النساء والولدان.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أَيْ: استثنى الذين أقروا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، واستجابوا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ وأمر رسوله ﷺ.

﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ اعتقدوا الإيمان وبادروا إلى العمل، وهذا دليل لمذهب أهل الحق في دخول الأعمال في مسمى الإيمان، فالصلاة، والحج، والزكاة، وجميع أنواع البر من الإيمان ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧٧]، فالمؤمن المبادر بالعمل الصالح حياته طيبة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لهم أجر غير منقطع، مستمر كقوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد:٣٥]، وقوله: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الواقعة:٣٣]، وقوله: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ق:٣٥]، فأكرم نفسك أيها المؤمن بامتثال أمر الله عَزَّوَجَلَّ حتى تكون من هذا الصنف ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس:٦٢]. ولو كان أجرهم مقطوع لوقع عليهم الخوف والحزن من زوال هذا النعيم، لكن كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨]. وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود:١٠٨]، وهذا الأجر هو فضل من الله عَزَّوَجَلَّ سببه العمل فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني تقول: أنا مؤمن بلسانك وأنت مفرط في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ومضيع لحقه أو تقول: الإيمان في القلب وأنت مضيع لحق الله عَزَّوَجَلَّ، بل الإيمان في القلب وفي اللسان وفي الجوارح.

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ أَيْ: أيها الإنسان المعرض المكذب باليوم الآخر ما الذي يكذبك

بالجزاء؛ لأن الدين هو الجزاء، وقال بعضهم: أن الخطاب لمحمد، وهذا قول ضعيف جدا؛ فإن النبي ﷺ من المقرين بالبعث والنشور، والمحققين للإيمان بالله وما يتعلق بذلك على أكمل الوجوه، وما نحن إلا متبعون له مقتفون لأثره، ولكن هذا خطاب للمعرضين. وما يحملك على التكذيب بالجزاء والبعث بعد الموت مع أن الله هو الذي خلقك من العدم: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة:٣٧-٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٨-٧٩].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ أليس الله هو الحاكم الحكيم، الذي يقضي ويفعل ما يشاء، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، ومن حكمته: أن يعلي درجات المؤمنين الموحدين، وأن يذل المشركين والمنددين، ومن حكمته: أن يجازي المؤمن بإحسانه، ويضاعف له المثوبة كرمًا وفضلًا منه، ويجازي الكافر بأنه يرده إلى أسفل السافلين؛ لأنه رضي بذلك حين أبى أن يكون عبدًا لله عَزَّوَجَلَّ وكان عبدًا لغير الله عَزَّوَجَلَّ، فرده الله الى السفل المطلق الذي لا يمكن أن يخرج منه إلى غيره، وجاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ، فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين:٨]، فَلْيَقُلْ: بَلَى، وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة:١]، فَانْتَهَى إِلَى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾** [القيامة:٤٠]، **فَلْيَقُلْ: بَلَى، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾** [المرسلات:١]، **فَبَلَغَ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾** [المرسلات:٥٠]، **فَلْيَقُلْ: آمَنَّا بِاللَّهِ**»، قَالَ إِسْمَاعِيلُ: ذَهَبْتُ أُعِيدُ عَلَى الرَّجُلِ الْأَعْرَابِيِّ، وَأَنْظُرُ لَعَلَّهُ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، أَتَظُنُّ أَنِّي لَمْ أَحْفَظْهُ، لَقَدْ حَجَجْتُ سِتِّينَ حَجَّةً، مَا مِنْهَا حَجَّةٌ إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفُ الْبَعِيرَ الَّذِي حَجَجْتُ عَلَيْهِ(١)، فهو حديث لا يثبت عن النبي ﷺ، لإبهام الراوي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه أبو داود (٨٨٧).

مكية الجزء الثلاثون سورة العلق آياتها ١٩

سُورَةُ الْعَلَقِ ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ، أول ما نزل من القرآن لاسيما الخمس الآيات الأول منها، وكان في ذلك ما أخرجه الشيخان، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق:١-٣]»(١).

وفي هذه الآية دليل على أهمية العلم قبل كل شيء؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ قبل أن ينزل الدعوة إلى التوحيد والأحكام والمعاملات أنزل العلم، وأمر به دلالة على فضله وعلو منزلته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱقْرَأْ﴾ أَيْ: تعلم ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أَيْ: حال كونك مستعين بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أعان العبد يسر له من العلوم والفهوم ما يكون مميزًا به على غيره. ثم إننا بحاجة إلى الاستعانة بالله في جميع شأننا، وكما قيل:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَونٌ مِنَ اللهِ لِلفَتَى ❁❁❁ فَأَوَّلُ مَا يَجنِي عَلَيهِ اجتِهَادُهُ

وذكر اسم الرب دون غيره؛ لأنه اسم بمعناه الخاص يدل على حفظ وعناية وغير ذلك من معاني الربوبية، لاسيما والإضافة هنا إضافة التشريف.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أَيْ: خلقك وخلق غيرك، والخلق هو الإيجاد من العدم، قال الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْضُ ❁❁❁ الْقَـوْمِ يَخْلُـقُ ثُـمَّ لَا يَفْـرِي

(١) متفق عليه، البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

وإثبات الخلق يلزم أن يكون عالما قادرا، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤]، وكان مبدأ خلق الإنسان من طين، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص:٧١]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ هذه الخلقة الأخرى، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٦].

وأوله نطفة: وهو ما يخرج من مني الرجل والمرأة، ثم من علقة: وهو ما يكون كهيئة العلقة، وهي حيوان صغير مركبة من دم، ثم من مضغة: قطعه لحم، ثم يتدرج، فجعله عظامًا ثم يكسو العظام لحمًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ اقرأ وأبشر من الله بالخير هو الكريم الأكرم، ومن معاني الكريم: الذي يعطي الكثير مجازاة على القليل، وربما أعطى الكثير دون جزاء، ومن معاني الكريم: أنه شديد الانتقام ممن أعرض عنه، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار:٦-٨].

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أَيْ: علم الخط والكتابة وذكر القلم دون غيره معًا أن العلم يكون بالقول والحفظ؛ إلا أن القلم يحفظ به العلم إلى أعصر متأخرة؛ ولذلك انتصر الإسلام بالسنان والبنان، وقد تكلم ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ على أنواع الأقلام في كتابه «التبيان في أقسام القرآن»، فقال: **والأقلام متفاوتة في الرتب:**

فأعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق، الذي كتب الله به مقادير الخلائق، كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال يا رب وما أكتب قال أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»، واختلف العلماء هل القلم أو المخلوقات أو العرش على قولين: ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام عرشه على الماء**» فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا، ولا يخلو قوله: «**إن أول ما خلق الله القلم**» إلى آخره إما أن يكون جملة أو جملتين فإن كان جملة وهو الصحيح كان معناه أنه عند

أول خلقه قال له أكتب كما في لفظ «**أول ما خلق الله القلم قال له أكتب**» بنصب أول والقلم، فإن كانا جملتين وهو مروى برفع أول والقلم فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان إذ حديث عبد الله بن عمر صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «**لما خلق الله القلم قال له اكتب**»، فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها وقد قال غير واحد من أهل التفسير أنه القلم الذي أقسم الله به.

فصل: القلم الثاني: قلم الوحي وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم والعالم خدم لهم وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدم لأقلامهم وقد رفع النبي ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي.

فصل: والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمفتين وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه فإليه التحاكم في الدماء والأموال والفروج والحقوق وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام وأقلام العالم خدم لهذا القلم.

فصل: القلم الرابع: قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة وترد إليها صحتها المفقودة وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة.

فصل: القلم الخامس: التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياس الملك ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام والمشاركون للملوك في تدبير الدول فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

فصل: القلم السادس: قلم الحساب: وهو القلم الذي تضبط به الأموال مستخرجها ومصروفها ومقاديرها وهو قلم الأرزاق وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب ومبناه على الصدق والعدل فإذا كذب هذ القلم وظلم فسد أمر المملكة.

فصل: القلم السابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا وتراق به الدماء وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص فهذا له النفوذ واللزوم

وذاك له العموم والشمول وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

فصل: القلم الثامن: قلم الشهادة وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق وتصان به عن الإضاعة وتحول بين الفاجر وإنكاره ويصدق الصادق ويكذب الكاذب ويشهد للمحق بحقه وعلى المبطل بباطله وهو الأمين على الدماء والفروج والأموال والأنساب والحقوق ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد وباستقامته يستقيم أمر العالم ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

فصل: القلم التاسع: قلم التعبير وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره وما أريد منه وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي كاشف له وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته وأمانته وتحريه للصدق والطرائق الحميدة والمناهج السديدة مع علم راسخ وصفاء باطن وحس مؤيد بالنور الإلهي ومعرفة بأحوال الخلق وهيآتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام وأعمها جولانا وأوسعها تصرفاً وأشدها تشبثاً بسائر الموجودات علويها وسفليها وبالماضي والحال والمستقبل فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه.

فصل: القلم العاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال وينقشه في النفس حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده فهو قلم المعاد الروحاني وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك.

فصل: القلم الحادي عشر: قلم اللغة وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها وأنواع دلالتها على المعاني وكيفية الدلالة وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها.

فصل: القلم الثاني عشر: القلم الجامع وهو قلم الرد على المبطلين ورفع سنة المحقين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق ودخولهم في الباطل وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل المحاربون لأعدائهم وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل وعدو لكل مخالف للرسل فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به وأن الله سبحانه أقسم به في

كتابه وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا بواسطة القلم[١]. اهـ.

فالله عَزَّوَجَلَّ علم بالقلم، فحفظ بالقلم القرآن، والسنة، وما زال الناس يستخدمون هذا القلم في طاعه الله عَزَّوَجَلَّ، ومنهم من يعرض وهم الأكثر.

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أَيْ: من أنواع الهدى والبيان، فعلمه أمور الدين الشرعية، فأنزلها وحيًا إلى محمد ﷺ، وعلمه كثيرًا مما يصلح حاله، من مأكله ومشربه وملبسه ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه:٥٠]، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة:٣١]، وعلم الدين هو أشرف أنواع العلم، وأما علم المشارب، والمآكل، والملابس، والمناكح، يحسنه كل أحد، لكن علم الكتاب والسنة يختص الله عَزَّوَجَلَّ به من شاء من عباده قال النبي ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[٢]، وعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[٣]. وقد امتن الله على نبيه ﷺ بهذا المعنى في آية أخرى ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى:٧].

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

ثم قال: ﴿كَلَّآ﴾ أَيْ: حقًا ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أَيْ: جنس الإنسان يقع منه الطغيان، وهو مجاوزة الحد الذي شرعه الله وأمر، والطغيان مأخوذ من المجاوزة ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة:١١]، ويقع منه الطغيان ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أَيْ: إذا رأى نفسه غنيًا فإذا منَّ الله عليه بشيء من المال، أو الولد، أو الجاه، ظن أنه في مرتبة علية، وفي درجة سنية، فيقع منه الإعراض إلا من رحم الله، كما قال تعال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم:٧٧-٧٨] وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (٢٠٧).

(٢) متفق عليه، البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٧٣)، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٢٧).

صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف:٣٧-٣٨].

فقال تعالى مهددًا له: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أَيْ: في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة:١١] فكيف يستغني ويعرض عن الله عَزَّوَجَلَّ، وعن طاعته وهو راجع ومحشور إلى الله فيجازيه على عمله، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١]. وهذا فيه من الوعيد ما الله به عليم، فإن الإنسان إذا علم أنه راجع ومحاسب على عمله كان ذلك من دواعي توبته واستغفاره، والله المستعان.

ثم انتقل إلى معنى آخر رادًا على أبي جهل - لعنه الله - حين زعم أنه يمنع محمدًا ﷺ من الصلاة في جانب البيت، بل لقد عزم على أن يطأ على عنقه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**» قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ - لَا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ -: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [العلق:٧-١٣] - يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ - ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [العلق:١٤-١٩][(١)].

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ منكرًا على هذا الصنف: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ ألا تعجب على حاله كيف ينهى عن الصلاة وعن طاعة الله مع أن الزنا، والقتل، والربا، والشرك موجود، ولم ينكر شيئًا من ذلك ولما رأى المصلي يصلي قام ينكر عليه. وهذا المعنى حاصل فإن كثيرًا من الناس يرى السُّرَّاق، والزناة والزواني، وأكلة الربا، وفاعلي الحرام والإجرام، ولا ينكر عليهم، وإذا رأى المستقيم الذي عفَّ لحيته، وقصر ثوبه، ولزم مسجده، وإذا به

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩٧).

يسخر منه حتى أن بعض السلف قيل له: لماذا لا تنهى فلان عن الصلاة بعد العصر، قال: ما أريد أن أكون من الذي ينهى عبدًا إذا صلى، مع أن النصيحة مطلوبة؛ لأن الصلاة بعد العصر منهي عنها إلا لقضاء أو استخارة، أو لذات سبب.

﴿ عَبْدًا ﴾ أَيْ: لله عَزَّوَجَلَّ ﴿ إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ أقبل عليه بالطاعة والعبادة ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أَيْ: هذا المصلي كان على الهدى، كان على العلم والعمل؛ لأن الهدى يطلق على معنيين العلم والعمل، فكيف ينكر على من هذا حاله، بل هذا يثنى عليه، ويدعى له، ويستفاد منه.

﴿ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾ أَيْ: هذا المصلي كان على الهدى وكان يأمر بالتقوى بالإخلاص والتوحيد ويدخل فيها الأمر بفعل المأمور وترك المحظور، ومراقبه الله عَزَّوَجَلَّ في السر والعلن.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ عن هذا الناهي ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ أَيْ: أخبرني إذا كان أبو جهل الذي ينهي المصلي عن صلاته: ﴿ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ كذب بخبر الله عَزَّوَجَلَّ وخبر رسوله ﷺ، وتولى عن فعل ما أمر الله به وأمر به رسوله ﷺ، فقال مهددًا له: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم ﴾ هذا الذي ينهى المصلي عن الصلاة، والمستقيم عن الاستقامة ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ يرى ما يفعل من نهيه عن طاعة الله، ومن أمره بمعصية الله، والله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢٢٠]، والله يراك على كل حال، كما قال: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٦].

والإنسان إذا علم أنه مراقب قل شره وخشي من مراقبته، فهنا يقول: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ يراه في أمره ونهيه، ويراه في فعله، وتركه، فإذن لماذا يتجرأ هذه الجرأة حتى وصل به الحال إلى أن ينكر على المصلين صلاتهم، وعلى المزكين زكاتهم، وعلى الصائمين صيامهم، وعلى المستقيمين استقامتهم.

﴿ كَلَّا ﴾ أَيْ: حقًا ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ لئن لم يترك ما هو فيه من الباطل وينزجر عما هو فيه من الأذى لمحمد ﷺ ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ لنأخذنه بالناصية وهي مقدمة الرأس، وهذا سبب لهلاكه ونزع حياته، ثم قال: ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ كاذب في قوله، وخاطئ في فعله. ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ لأن أبا جهل هدد بدعوة النادي والأتباع الذين كانوا يجلسون في المجلس. والنادي هو المجلس العام الذي يجتمع فيه الناس.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ أَيْ: لنصرته وإعانته ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ أَيْ: خزنة النار؛ لتأديبهم ومنعهم

من باطلهم، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء لكنه يربط الأسباب بمسبباتها، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، ولكن أنت يا أبا جهل ومن إليك من الكافرين حين تتكثرون بأتباعكم وأنصاركم فاعلموا أن الله مسلط عليكم الزبانية، إما في الدنيا وإما في الآخرة. وهذا الوعيد لو أنه وقع من أبي جهل لسلط الله عليه الزبانية ولكنه رجع بعد أن رأى هولًا وخندقًا وأجنحة، فقال النبي ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**».

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه وهو أمر لمن سلك هذا السبيل: ﴿كَلَّا﴾ أَيْ: حقًا، ليس الأمر كما هو عليه أبو جهل ومن معه ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ في ترك الصلاة ولا تكن طائعًا للمخاصمين المعارضين، في جميع الدين فإن طاعتهم سبب للضلال، قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم:١٠]، ﴿وَٱسْجُدْ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ ويدخل فيه جميع الصلاة، وإنما ذكر السجود؛ لأنه أشهر أفعال الصلاة ﴿وَٱقْتَرِب﴾ من ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تنال منه الجزاء الأوفى، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»(١)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «**سَجَدْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي** ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق:١]، **وَ** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١]»(٢).

والحمد لله رب العالمين.

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).
(٢) أخرجه مسلم (٥٧٨).

مكية الجزء الثلاثون سورة القدر آياتها ٥

سُورَةُ القَدْرِ ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، يخبر الله عَزَّوَجَلَّ فيها أنه أنزل القرآن في ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان:٣-٥]، وسميت بليلة القدر؛ لعظيم قدرها، وعلو منزلتها. وقد أكرم الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الليلة هذه الأمة إذ قصرت أعمارها، وقلت سنونها، فكان في قيام ليلة واحدة، والمحافظة على الطاعة فيها كأربعة وثمانين سنة، والحال كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة:٤]، وهي في العشر الأواخر من رمضان، في الوتر منه كما تواترت بذلك الأدلة، وأرجى ليلة؛ هي ليلة سبعة وعشرين، فقد صح من حديث مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ»(١).

وإنزال القرآن يعتبر من النعم العظيمة، والمنن الكريمة من الكريم المنان، إذ أن القرآن كتاب أخرج الله عَزَّوَجَلَّ به الناس من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن البدعة إلى السنة، ومن المعصية إلى الطاعة، قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأنه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨]. والقرآن منزل من عند الله تكلم به حقيقة، منه بدأ وإليه يعود، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلُ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت:٢]، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الزمر:١]، واعتقاد أن القرآن كلام الله من المهمات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة:٦]، وأول ما نزل منه خمس آيات، من أول سورة اقرأ كما تقدم، ثم تلاها خمس آيات من أول سورة المدثر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ﴾ بتعظيم نفسه المقدسة، وهو العظيم المتعال، الكبير الواسع

(١) أخرجه أبو داود (١٣٨٦).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر:١]، ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣﴾ [الحجر:٢٣] فيعظم نفسه في الخطاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو من أساليب اللغة، وليس هو على التعدد والتنوع كما يظنه البعض. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أَيْ: القرآن، ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أَيْ: ذات الشرف والرفعة، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ تعظيم شأنها، أَيْ: أي ليلة هذه تظنونها في الفضل والشرف.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أَيْ: أن هذه الليلة الواحدة في رمضان خير عند الله وأفضل من ألف شهر، والخيرية للعمل الصالح فيها، فيعطى لأهلها مكرمات وهبات، وقد حرص النبي ﷺ بأخبار أمته بليلة القدر فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ مِنْ رَمَضَانَ، يَلْتَمِسُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَبْلَ أَنْ تُبَانَ لَهُ، فَلَمَّا انْقَضَيْنَ أَمَرَ بِالْبِنَاءِ فَقُوِّضَ، ثُمَّ أُبِينَتْ لَهُ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَأَمَرَ بِالْبِنَاءِ فَأُعِيدَ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهَا كَانَتْ أُبِينَتْ لِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَإِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِهَا، فَجَاءَ رَجُلَانِ يَحْتَقَّانِ مَعَهُمَا الشَّيْطَانُ، فَنُسِّيتُهَا، فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، الْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ**»(١).

وكان في هذا نعمة عظيمة بحيث لا يترصد الناس تلك الليلة ويفرطون في بقية العام، لكن من قام رمضان أدرك ليلة القدر، ومن قام العام أدرك ليلة القدر كما قال بعض السلف رضوان الله عليهم. وأفضل ما يتقرب به في هذه الليلة الصلاة، فإن النبي ﷺ صلى ليلة سبعة وعشرين من بعد صلاة العشاء حتى كاد أن يدرك الناس الفلاح، أَيْ: السحور، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صُمْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ، فَلَمْ يَقُمْ بِنَا حَتَّى بَقِيَ سَبْعٌ مِنَ الشَّهْرِ، فَقَامَ بِنَا حَتَّى ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ، ثُمَّ لَمْ يَقُمْ بِنَا فِي السَّادِسَةِ، فَقَامَ بِنَا فِي الْخَامِسَةِ حَتَّى ذَهَبَ شَطْرُ اللَّيْلِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ نَفَّلْتَنَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِنَا هَذِهِ، قَالَ: «**إِنَّهُ مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ، كُتِبَ اللَّهُ لَهُ قِيَامَ لَيْلَةٍ**»، ثُمَّ لَمْ يُصَلِّ بِنَا وَلَمْ يَقُمْ حَتَّى بَقِيَ ثَلَاثٌ مِنَ الشَّهْرِ، فَقَامَ بِنَا فِي الثَّالِثَةِ، وَجَمَعَ أَهْلَهُ وَنِسَاءَهُ حَتَّى تَخَوَّفْنَا أَنْ يَفُوتَنَا الْفَلَاحُ، قُلْتُ: وَمَا الْفَلَاحُ؟ قَالَ: السُّحُورُ(٢).

وعن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «**قُمْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ لَيْلَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قُمْنَا مَعَهُ لَيْلَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قُمْنَا مَعَهُ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ لَا نُدْرِكَ الْفَلَاحَ**»، وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ السُّحُورَ(٣). ويكثر فيها من

(١) أخرجه مسلم (١١٦٧).
(٢) أخرجه النسائي (١٦٠٥)، أحمد (٢١٤١٩)، ابن ماجه (١٣٢٧)، وأبو داود (١٣٧٥)، والترمذي (٨٠٦).
(٣) أخرجه أحمد (١٨٤٠٢)، والنسائي (١٦٠٦)، والحديث في «الصحيح المسند» (١١٦٠) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

الدعاء، والذكر، وقراءة القرآن، وغير ذلك من أنواع القربات.

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ أَيْ: من بركتها أنه يكثر تنزل الملائكة إلى الأرض، ومعهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو الروح الآمين، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، وهذا من عطف الخاص على العام، فهو داخل في تنزل الملائكة، ولكن لشرفه، ومنزلته ذكره الله عَزَّوَجَلَّ على الخصوص. وتتنزل الملائكة في تلك الليلة بالبركات، والهبات، والبشارات، وتشارك المؤمنين في ذلك الخير العظيم، فلا يكون تنزلهم على المتلفزين، والمدشدشين، والغافلين، والمعرضين، وإنما تتنزل إلى أماكن الطاعات، والعبادات، كما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ، فُضُلًا عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ، فَإِذَا، وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ، تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى بُغْيَتِكُمْ، فَيَجِيئُونَ، فَيَحُفُّونَ بِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**»(١).

﴿ فِيهَا ﴾ ويكون تنزلهم من غروب شمس يومها وحتى طلوع الفجر في صبيحتها، ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ أَيْ: أن تنزلهم بأمر الله جَلَّجَلَالُهُ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم:٦٤]، وقال: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم:٦]. فهم خلق مبارك طائع ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٧].

﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أَيْ: سلام هي من كل أمر، وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: تُقْضَى فِيهَا الْأُمُورُ، وَتُقَدَّرُ الْآجَالُ وَالْأَرْزَاقُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [الدخان:٤](٢). اهـ.

أما من ذهب إلى أن ليلة النصف من شعبان هي التي تقدر فيها المقادير في العام فقوله بعيد؛ مبني على أحاديث ضعيفة، لا يثبت منها شيء، فإن القرآن تنزل في رمضان، والأدلة دالة على فضيلة الليلة التي أنزل الله جَلَّجَلَالُهُ فيها القرآن لا ليلة النصف من شعبان فتخصيصها بصلاة، وقيام، ونهارها بصيام من المحدثات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

﴿ سَلَٰمٌ هِىَ ﴾ أَيْ: فيها سلامة، وقيل تسلم الملائكة على أهل المساجد المقيمين لها، والمبادرين إلى الطاعات فيها ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ إلى أن يطلع الفجر.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٤٢٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٤٤).

فاحرص أيها المسلم على الحفاظ على هذه الليلة المباركة، فإن النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا - بفضلها - وَاحْتِسَابًا - أَيْ: لأجرها -، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(١).

وقد اعتكف النبي ﷺ العشر الأوسط من رمضان، ثم العشر الأواخر من رمضان؛ متحريًا لها فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ الأُوَلِ مِنْ رَمَضَانَ وَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، فَاعْتَكَفَ العَشْرَ الأَوْسَطَ، فَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيبًا صَبِيحَةَ عِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ فَقَالَ: «**مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلْيَرْجِعْ، فَإِنِّي أُرِيتُ لَيْلَةَ القَدْرِ، وَإِنِّي نُسِّيتُهَا، وَإِنَّهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ، فِي وِتْرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ**» وَكَانَ سَقْفُ المَسْجِدِ جَرِيدَ النَّخْلِ، وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ شَيْئًا، فَجَاءَتْ قَزَعَةٌ، فَأُمْطِرْنَا، فَصَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ وَالمَاءِ عَلَى جَبْهَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَرْنَبَتِهِ تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ(٢).

والحمد لله رب العالمين.

(١) متفق عليه، البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٨١٣)، ومسلم (١١٦٧).

مدنية الجزء الثلاثون سورة البينة آياتها ٨

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ ، سُورَةٌ مَدَنِيَّةٌ، حين أنزلها الله على نبيه وصفيه، ورسوله محمد ﷺ أمره أن يقرأها على أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُبَيٍّ: «**إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ** ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البينة:١]» قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» فَبَكَى(١). ولم تكن قراءة النبي ﷺ على أُبَي إلا فضيلة لأُبَي، وفيها أهمية عرض القرآن، فإن أُبَي ابن كعب كان من حملة القرآن وأهله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝٥﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾، أَيْ: اليهود والنصارى. ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أَيْ: منزجرين مرعوين عن باطنهم ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

وفي قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ليس معناها أن ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، وإنما لبيان الجنس، وذكرهم دون غيرهم؛ لأنهم قد وجدوا البشارة بمحمد ﷺ في كتبهم، وذكر صفته، ومبعثه، وموطنه، ومع ذلك حملهم الحسد على عدم الإيمان. وسمو بأهل الكتاب؛ لأن اليهود كتابهم التوراة، والنصارى كتابهم الإنجيل، وأما ما يقوله كثير من الناس الآن: هؤلاء أصحاب كتب سماوية فلا يُسلم لهم فقد غيروا وبدلوا الكتب، فلا يجوز أن يضاف دينهم إلى السماء، فالدين الذي يضاف إلى السماء هو دين الله: الإسلام، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء:٤٦].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة الجلية، ثم فسر البينة بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أَيْ: أن البينة التي أتى بها رسول من الله وهو محمد ﷺ. ﴿يَتْلُو صُحُفًا﴾ أَيْ: يقرأ مكتوبًا في الصحف وهو القرآن ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ منزهة عن الأدناس وغيرها.

(١) متفق عليه، البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ فيها مكتوب قيم واضح جلي، لا اعوجاج فيه، ولا لبس، ولا كذب.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ، مبينا اختلاف أهل الكتاب: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أَيْ: ما حصل التفرق في اليهود، والنصارى، حيث صاروا فرقًا وأحزابًا، حتى قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم:٣١-٣٢]، وقال النبي ﷺ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**»(١). وجاء في حديث مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»(٢).

والتفرق مذموم لأمور:

- **أولا:** أنه مخالف لأمر الله الشرعي.
- **ثانيًا:** أنه سبب للضعف.
- **ثالثًا:** أنه سبب للجدل.
- **رابعًا:** أنه سبب للتنافر، والتشاحن، والتباغض، والتقاطع، والتدابر.
- **خامسًا:** أنه سبب للخوض في آيات الله بالباطل، فلو كان الناس ملتزمين لشرع الله ظاهرًا وباطنًا ما وقع فيهم التفرق، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ [النساء:٥٩]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [الأحزاب:٣٦].

وأما قول النبي ﷺ: «**وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ**»(٣)، فمعناه: أنه ببعث محمد ﷺ ظهر التمايز بين الناس؛ مؤمن وكافر، وبر وفاجر، ويحكم على صلاح العبد من فساده بالنظر إلى ملازمته لشرع النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ إلا بعد أن جاءهم الوحي المبين، فأعرضوا عنه؛ لكثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم، كما قال النبي ﷺ: «**فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**»(٤) ولكثرة جدلهم، ومن ذلك قصة البقرة، قال تعالى:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث في «الصحيح المسند» (١٣١٧) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٣٧)، وابن ماجه (٣٩٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٨١)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) متفق عليه، البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة:٦٧]، يكلمهم رسولهم بأمر الله، فيجادلونه كما يجادل بعضهم بعضًا بقوله: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ ﴾ ثم بعد ذلك يبين لهم أوصافها الوصف بعد الوصف بعد الوصف، وهم يجادلون ويعرضون، وهذا في كثير من أمورهم، وتفرقوا في محمد ﷺ ولم يؤمنوا به، مع ظهور الحجج الدالة على صدقه، ويجدون في كتبهم: بأن الله أشرق من ساعير - أي: بيت المقدس -، وتجلى في الطور - أي: المكان الذي أوحى الله عَزَّوَجَلَّ به إلى موسى -، ويظهر في فاران - وجبال فاران: هي جبال مكة -. والمراد به وحي الله يتلونه في كتبهم ومع ذلك أبوا الإيمان به.

وقد ذكر عبد الله الكاتب وهو أحد النصارى الذين أسلموا: أنه كان ملازم لراهب من رهبان النصارى، وأحبه وتتلمذ عليه سنين عديدة، وأعوام مديدة، وفي يوم من الأيام مرض هذا القسيس أو الراهب، فتذاكر الطلاب شيئًا مما في الإنجيل فوجدوا وصف محمد ﷺ، فما دروا بالمعنى، فدخل عبد الله الكاتب على هذا القسيس، فقال له: لقد وقع بيننا اليوم اختلاف في مسألة كذا وكذا، فقال: له وماذا قالوا؟ قال: فلان قال كذا، وفلان كذا، قال: وأنت؟ قال: أنا انتظر الجواب منك، فقال: له أعذرني، قال له: يا سيدي تعلم حبي لك، وأنا قد تركت الأهل، والمال، والولد؛ رغبة في مجاورتك، وأخذ العلم منك، وقد أعطيتني شيئًا كثيرًا ألا تعلمني هذه - وما زال يستحلفه - حتى قال: أخبرك لكن بشرط أن لا تحدث عني؟ قال: نعم، قال: هذا وصف محمد ﷺ مبشر به في الإنجيل، قال: يا سيدي ولماذا لم تؤمن به إن كان كذلك؟ قال: يا بني إن المسلمين إذا أسلمت وأنا شيخ كبير لا يزيدون على أن يقولون: جزاك الله خيرًا أخرجت نفسك من النار، وتسببت في إسعادها، وأنا لا استطيع أن أعمل فبقيت على هذا الحال عند هؤلاء يأتوني بالمال، والأرزاق، قال: هذا الرجل فأخذت نفسي وركبت إلى تونس، فاستقبلني النصارى، وعظموا شأني، ورفعوا قدري؛ لعلمهم بمنزلتي، ولتتلمذي على هذا الشيخ، ثم قال: دعاني ملك المسلمين فأخبرته بخبري، وأخبرته أني قد دخلت في الإسلام، ولكن مع ذلك طلبت منه أن يجمع النصارى؛ حتى يعرف منزلتي عندهم، فجمعهم وقال: ما تقولون في هذا الرجل؟ قالوا: هذا خيرنا تتلمذ على خيرنا، وهو من أعرف الناس بكتابنا، فقال: لهم أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله، قالوا: إنما فعلت هذا لما أعطاك هذا الملك من الأموال.

وهكذا حصل لعبد الله بن سلام، فإن اليهود زعموا أنه خيرهم وابن خيرهم، فلما شهد

أن لا إله إلا الله قالوا: شرنا وابن شرنا فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلاَمٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ المَدِينَةَ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ» قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلاَئِكَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الوَلَدِ: فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ المَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا**» قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ، فَجَاءَتِ اليَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ البَيْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ**» قَالُوا أَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ**» قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ»(١).

وهرقل، علم وصف محمد ﷺ، وقَالَ لأَبِي سُفْيَانَ: إِنْ يَكُ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ، وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ، وعرض على الروم الإسلام، فلما ثاروا عليه آثر الملك على الإسلام(٢)، والنجاشي آمن بمحمد ﷺ؛ لعلمه بأوصافه(٣)، والمقوقس حين جاءه رسول محمد ﷺ أهدى له جاريتين، وعبدًا، وبغلة، وغير ذلك من الهدايا.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أَيْ: اليهود والنصارى، وجميع المكلفين ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ليوحدوا ويخلصوا له العمل، فدعوة الرسل كلها دعوة إلى إفراد الله بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

﴿مُخۡلِصِينَ﴾ حال كونهم مخلصين في عبادتهم له، لا يشركون معه ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا، فإن الله لا يرضى ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٤٠)، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ.

[الجن:١٨]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة:٧٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر:٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ [الزمر:٣]، وقال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(١)، وقال النبي ﷺ: «**قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢).

وفي هذه الآية معنى لا إله إلا الله، فقد جمعت بين النفي والاثبات، وشروطها ثمانية:

فالأول: العلم، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ [محمد:١٩].

ثانيها: اليقين، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

ثالثها: الإخلاص، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر:٢].

رابعها: الصدق، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩].

خامسها: المحبة، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]. وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة:١٦٥].

سادسها: الانقياد، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

سابعها: القبول، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

ثامنها: الكفر بالطاغوت، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

---

(١) متفق عليه، البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهدي القرآن إلى هذه الشروط على أكمل وجه وأتمِّ بيان حتى لم يدع لمحتجٍّ حجةً ولأحدٍ لبسٍ إذ أنَّ تحقيق هذه الكلمة يعني تجرد العبد لله عَزَّوَجَلَّ.

وكم ساق من الأدلة والشواهد الموضحة لمعناها وسائرة على مبناها من تضمن النفي والإثبات. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨]، وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ [الممتحنة:٤]، وغير ذلك مما في بابه.

هذه الكلمة العظيمة دعا إليها القرآن فقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣]، في موضعين [البقرة:٢٥٥] و [آل عمران:٢]، وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد:١٩]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:٦٢]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [المائدة:٧٣]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون:١١٦]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ ﴾ [الكافرون:١-٥].

﴿ حُنَفَآءَ ﴾ أَيْ: مائلين عن الشرك إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل:١٢١]، فلا بد من الجمع بين النفي والإثبات لتحقيق معنى لا إله إلا الله.

﴿ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ هذا من التفصيل بعد الإجمال، والصلاة والزكاة قد دخلتا في الدين

الذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، ولكن ذكرهما تفصيلًا؛ لفضلهما، وعلو منزلتهما. ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والمراد بها الصلاة المفروضة، وهي خمس صلوات في اليوم الليلة. ﴿وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ وهي الزكاة المفروضة، والمكتوبة، وتكون ربع العشر في المال الصامت، والعُشُر فيما يخرج من الأرض إذا كان سقيه بماء المطر، ونصف العُشُر إذا كان سقي بالسانية، ويكون في بهيمة الأنعام الغنم والبقر والإبل على تفصيل مذكور في موطنه.

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أَيْ: ما تقدم من إفراد الله بالعبادة، والتقرب إليه بجميع أنواع الطاعات، والبعد عن الشركيات، والبدع، والخرفات، هو الدين القويم الذي ارتضاه رب العالمين للناس أجمعين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

ثم قال عَزَّوَجَلَّ مخبرًا بحال الناس مع هذا الدين: من أنهم انقسموا إلى قسمين لا ثالث لهما ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من اليهود والنصارى، ومن إليهم من عباد الأوثان والأصنام ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أَيْ: يوم القيامة. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾ خلود لا خروج بعده، كما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف:٧٥]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة:٢٧٠]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ﴾ [النساء:٥٦]، وقد جاء مبينًا في غير هذا الموطن ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ وما جاء أن النار تفنى فقول ضعيف، فالنار لا تفنى ولا تبيد، والجنة لا تفنى ولا تبيد، خلقهما الله عَزَّوَجَلَّ للبقاء لا للفناء، وهذا هو معتقد أهل السنة قاطبة من أن الجنة والنار موجودتان الآن وأنهما لا يفنيان ولا يبيدان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أَيْ: اليهود والنصارى ومن إليهم من المشركين شر البرية، أشر من القرود، والخنازير، والكلاب، ومن كل شر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، فلا تغتر أخي المسلم بيهودي، أو نصراني، أو مجوسي، أو عابد وثن أو صنم مهما علت رفعته، مهما كثرة أمواله، مهما تنوعت صناعاته ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم:٧]، وليكن فرحك بالمسلم وإن قل ماله، وحصل منه ما حصل، فإن الإسلام دين العزة، والمكنة، والرفعة، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»(١).

فلما ذكر حال الكافرين في الدنيا والآخرة ذكر حال أهل الإيمان فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أَيْ: إن الذين آمنوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبحمد ﷺ نبيًا، وأقروا بذلك ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أَيْ: لازموا الأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ خير الخلقية الذين برئهم الله، فهو البارئ الخالق المتصرف في هذا العالم. ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ ثوابهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ جمعت لكثرة منازلها، جنات عظيمات فيها من كل خير، وقد وصفها الله في مواطن من كتابه، ومن أجلِّ الآيات في وصفها آيات سورة الرحمن، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٥ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٧).

﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ [الرحمن:٤٦-٧٦] وهكذا في أوائل سورة الواقعة، قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ [الواقعة:١٧-٣٨]، وفي سورة الصافات، قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات:٤٤-٤٩] وفي غير ذلك من السور.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أَيْ: تجري فيها الأنهار؛ لأن أنهار الجنة ليس لها أخاديد، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد:١٥] إلى غير ذلك مما أمتن الله به على المسلمين.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ﴾ أَيْ: أنه من دخل الجنة ينعم ولا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يبلى شبابه. وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا**»(١).

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ أَيْ: سبب هذا الجزاء العظيم؛ أن الله رضي عنهم وعن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ [الزمر:٧]. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ أَيْ: بما أكرمهم به، ورضوا به في الدنيا حيث قدموا طاعته على كل طاعة، وقدموا أمره على كل مأمور به، وأجلى من وصف بهذا الوصف هم الصحابة ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾، وقد ذكرهم في مواطن من كتابه؛ وذلك؛ لشرفهم،

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٧).

ومنزلتهم، وعلو قدرهم، خلافًا لما تزعمه الرافضة فيهم؛ بأنهم خانوا أمر النبي ﷺ، أو أنهم ضيعوا وصية النبي ﷺ، فقول الرافضة مبني على الخرس، والكذب، فإن الصحابة قاموا بأمر رسول الله ﷺ على خير قيام، وأحسن حال، ولذلك قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ أَيْ: هذا الجزاء الذي تقدم لمن خشي ربه، والخشية تصدر من العلماء، ومن استفاد منهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ وهي الخوف مع التعظيم. ففي هذا بيان أن الجنة جزاء من خشي الله، وخافه وعظمه، وجرته هذه الخشية إلى فعل الطاعات، والابتعاد عن المعاصي والسيئات، ولذلك كان في الدعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ**»(١).

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مكية الجزء الثلاثون سورة الزلزلة آياتها ٨

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ ، مَكِّيَّةٌ، وقد ذهب بعضهم إلى أنها مدنية، وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ فيها عن بعض شأن يومِ القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أَيْ: اهتزت من تحتِها وتَزلزلت جِبالُها وما فيها ولو تأملنا ما يقع من الزلازل، وما هو إلا مثل مما سيكون يوم القيامة لعلمنا شدةِ الحال الذي سيصير إليه الناس، فلو وقعت زلزلة ستةٌ بِمقياس رختر الذي وضعوه لمقياس الزلازل، لدمرت البنيان وقطعت الطرق، وسقطت الصخور، فكيف بزلزلةَ يومِ القيامة التي تتنافر معها الجبال، وتُدك ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه:١٠٧].

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أخرجت ما فيها من الكنوزِ، وما فيها من المدفونين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج:٤٣-٤٤]، ولا يضيع شيء مما استُودع في الأرض، وينبت الإنسان من عجب الذنب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، «**ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ، كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ**» قَالَ: «**وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ يتعجب من هذهِ الزلزلة، وهذا الخروج، ما شأن هذا الحادث الذي حصل للإنسان، وقد يكون قُولهم بلسان الحالِ، ولسان المقال، كما قال عَزَّوَجَلَّ مُخبِرًا عنهم: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢].

(١) متفق عليه، البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ تُخبر بما وقع فيها من خيرٍ أو شرٍ، وتشهد عليك أيُها الإنسان، وهيَ من جُملتِ الشهود ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ وهذِهِ والله مُصيبة، كم من إنسان يتعاطى معصيةً في ليلةٍ ظلماء، وفي مكان قفرٍ لا يراهُ أحد، وإذا به يوم القيامة يُفضح على الأشهاد، وتشهد عليهم تلك البقع التي استتر واختفى فيها، زد على ذلك: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُبلي سريرته، فلا يبقى شيء من أمرِه إلا وتحدثت به، مع أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليمٌ بذاتِ الصدور، ولا تخفى عليه خافية. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة:٤]، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟**» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلْتَ عَلَيَّ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا**»، قَالَ: «**فَهُوَ أَخْبَارُهَا**»(١).

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ هذا الحديث الذي صدر منها؛ لِسببِ أمر الله لها بالشهادةِ والكلام، فالأرض خلق لله، تفعل ما أمر الله، فهي حِجارةٌ صماء، فإذا أذن الله لها بالكلام تكلمت ونطقت، ولا يُعجزهُ شيء في الأرض ولا في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وليس المراد بالإيحاء هنا إيحاء الوحي، وإنما المراد به الإذن والأمر. ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ: في ذلك اليوم يوم القيامة حين تزلزل الأرض ﴿ يَصْدُرُ النَّاسُ ﴾ أَيْ: يخرج الناسُ من قبورهم ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ متفرقين وجماعات، ولكلٍ منهم عملُة وفعلُه، وسبب خروجهم؛ ﴿ لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ لينظروا ويجدوا جزاء تلك الأعمال التي تعاطوها في الدُنيا.

ثم أخبر بحالِ الناس مع هذهِ الأعمال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ وهذا في حق المؤمنين والموحدين، يجد ذلكَ أمام عينه، ويفرح به، وإن كان في وزن الذرة.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ وإن كانت في الحقارة مثقال ذرة ولم يغفرها الله عَزَّوَجَلَّ فهي ثقيلة على الإنسان ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران:٣٠]، ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧]، فكم عندنا من ما مثاقيل الذر ومما هو فوق ذلك من المعاصي والتقصير والذنوب إذا لم يتجاوز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٨٦٧)، والنسائي (١١٦٢٩)، والترمذي (٢٤٢٩).

واللهِ لو أن كل واحد منا يحاسب نفسهُ لرأى الهلكة إلا أن يشاء الله، ما هيَ الطاعات التي نتقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ؟ ما هيَ العبادات التي تبذل لأجل الله عَزَّوَجَلَّ؟ وما هو التقصير الذي يحصل منا في جناب الله عَزَّوَجَلَّ؟!

وقد ذكر النبي ﷺ الزكاة، والفضيلة في البقرِ والغنمِ والإبل والخيل، وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الحُمُرِ، فَقَالَ: «**مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الآيَةُ الجَامِعَةُ الفَاذَّةُ**»: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧-٨](١).

وجاء عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، عَمِّ الْفَرَزْدَقِ، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧-٨]، قَالَ: حَسْبِي، لَا أُبَالِي أَنْ لَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا(٢).

وهذه الآية دالة على عدل الله جَلَّجَلَالُهُ، وهو القائل: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف:٤٩]، وقد ثبت أن النبي ﷺ صلى بسورة الزلزلة في ركعتي الفجر، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ رَجُلًا، مِنْ جُهَيْنَةَ أَخْبَرَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ «**يَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ كِلْتَيْهِمَا**»(٣).

وأما ما جاء من أنها تعدل ربع القرآن، من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ: حَدَّثَنِي سَلَمَةُ بْنُ وَرْدَانَ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]، **رُبُعُ الْقُرْآنِ**، وَ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الزلزلة:١]، **رُبُعُ الْقُرْآنِ**، وَ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر:١]، **رُبُعُ الْقُرْآنِ**»(٤)، فإسناده ضعيف؛ لضعف سلمة بن وردان، ولا يثبت في ذلك شيء، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أحمد (٢٠٥٩٣).
(٣) أخرجه أبو داود (٨١٦)، والحديث في «الصحيح المسند» (١٥٠٠) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٤) أخرجه أحمد (١٢٤٨٨).

الجزء الثلاثون سُورَةُ العَادِيَاتِ

مكية — آياتها ١١

سُورَةُ العَادِيَاتِ، مكيّةٌ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١﴾

يقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالخيل في أشد قوته، فيقول: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾ أَيْ: الجاريات ﴿ضَبۡحٗا﴾ فيصدر منها صوتٌ حين جريها وعدوها.

﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ﴾ أَيْ: المشعلات ﴿قَدۡحٗا﴾ حين تضرب أرجلها في الحجارة، فلصلابة الحجر، وصلابة الرجل تنقدح من الحجارة مثل الشرر، وذلك أن الخيل يوضع في رجلهِ حدوة من حديد؛ لتقيه ضرب الحجارة ونحو ذلك، فتجتمع صلابة ما في رجل الخيل مع صلابة الحجر مع سرعة العدو، فيخرج منها قدح مثل النار.

﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ﴾ أَيْ: الخيل التي تغير على الأعداء ﴿صُبۡحٗا﴾ وهذا على الغالب، فإن النبي ﷺ كان يبيت الناس، ثم يغير عليهم في الصباح، فإن سمع الأذان أمسك وإلا أغار، وربما تقع الغارة في غير هذا الوقت.

﴿فَأَثَرۡنَ﴾: أَيْ: من الإثارة لكثرة جريهن ﴿نَقۡعٗا﴾ أَيْ: الغبار.

﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾ أَيْ: تتوسط بالمقاتلين وجموع الأعداء، وهذا من عجيب شأن الخيل، فإنه يهجم مع مقاتله حتى في حال المسايفة، ربما تجد المبارز يبارز والخيل يقدم معه، لاسيما الخيل العربية الأصيلة، ولذلك يستخدم الناس البراذين والخيول الأوربية وما في بابها؛ للعدو والسباق، ويستخدمون الخيل العربية للقتال ونحوه، فإنه يبقى مع صاحبه في أشد اللحظات وأحنك الأوقات.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ هذا هو المقسم عليه، أقسم الله بالخيل وصفاته لهذا الأمر ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ أَيْ: إن جنس الإنسان لجحود لنعمةِ الله عَزَّوَجَلَّ عليه، وقد يجحدها

بلسانه، أو بفعاله. والواجب على الإنسان أن يكون شاكرًا لأنعم الله عليه، لكن الوقع أن كثيرًا من الناس كفروا بالله وجحدوا نعمته. ﴿لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ إشعار بأن الله هو الذي يرزقه ويحوطه ويعطيه، ومع ذلك يكفر النعمة ولا يشكرها ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ **لها معنيان:**

❖ **الأول:** بأن الله شهيدٌ على كنود الإنسان، وعلى بخله، وجحوده، والله مطلع على كل شيء، ويكون هذا على التهديد.

❖ **الثاني:** أن الإنسان على كنودِهِ لشهيد، إما بلسان حاله وإما بلسان مقاله، يشهد أنه جحودٌ، وأنه مفرط في حق الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا يكون في يوم القيامة.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أَيْ: أن الإنسان لحب المال لشديد، وهذا هو السبب الذي أورده الموارد، فإنه يأخذ المال من حله ومن حرامه، ويعادي ويوالي؛ من أجله، فإذا زادت محبة المال في الإنسان أهلكتهُ، وكما قيل:

أَنْـــتَ لِلْـــمَالِ إِذَا أَمْسَـــكْتَهُ ❁❁❁ فَـــإِذَا أَنْفَقْتَـــهُ فَالْمَـــالُ لَـــكْ

فكثير من الناس بسبب محبتهم للمال يقعون في الهلكة، وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟**» قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ**»(١).

والمعنى الثاني: أن الإنسان بخيل بما أوجب الله عَزَّوَجَلَّ عليه، فيعاقب على ذلك، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ، وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا؛ إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ، وَجَبِينُهُ، وَظَهْرُهُ**»(٢)، قيل يكوى جبينه؛ لأن السائل حين يأتيه يتمعر وجهُه، ويكوى جنبُه؛ لأن السائل حين يلح عليه يعرض عنه ويوليه جنبه، ويكوى ظهرُه؛ لأنه إذا أتاه في الثالثة قد يوليه ظهره ويمشي، فيكون الجزاء من جنس الصنيع في الدنيا. فحب المال، إن كان لا يؤدي إلى ترك الواجبات وفعل المحرمات، فهو رزقٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ النبي ﷺ: «**يَا عَمْرُو، نِعِمَّا بِالْمَالِ**

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٢).
(٢) أخرجه مسلم (٩٨٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»(١)، وأما إذا كان يؤدي إلى غير ذلك فهذه هلكة، نسأل الله السلامة، فكثير من الناس من حبهم للمال يمنعون المسكين حقه، قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ [القلم:١٢]، بل لا يحضوا على طعام المسكين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون:٣]، إذا كان يعاقب على عدم الحض على طعام المسكين، فكيف بمن لا يطعم المسكين، وبعضهم يقطع أرحامه، ويهجر جيرانه؛ من أجل المال، وقد قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي الْمَالُ**»(٢).

ثم قال عَزَّوَجَلَّ مهددا لما سيقع للإنسان في يوم القيامة: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أَيْ: هلَّا يعلم هذا الإنسان ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أثير وأخرج ﴿مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ من المدفونين والمقبورين.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أَيْ: وجمع ما في صدورهم وأظهر للعيان، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق:٩]. وذكر الصدور دون غيرها؛ لأنه إذا جمع عليك ما في صدرك فمن باب أولى جمع الظاهر الواضح. وفي هذا دليل على خطر النيات، فإن كانت صالحة يرجى لصاحبها الخير وإن كانت غير ذلك يخشى على صاحبها الشر والضير.

﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ خالقهم ورازقهم ﴿بِهِمْ﴾ وبأعمالهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ القيامة ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ مطلع على كل ما فعلوا وتركوا. وذكر يوم القيامة على التهديد، والوعيد ، ومعنى خبير: أَيْ: عليم بِبَواطن الأمور، هذا إذا اجتمع مع العلم، وأما إذا افترق عن العلم: فالخبير بمعنى العليم بظواهر الأمور وبواطنها، واللهُ المستعان.

والحمد لله رب العالمين.

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٤٧١)، والترمذي (٢٣٣٦)، عَنْ كَعْبِ بْنِ عِيَاضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث في «الصحيح المسند» (١٠٩٣) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

مكية الجزء الثلاثون سورة القارعة آياتها ١١

سُورَةُ القَارِعَةِ ، مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ من أسماء القيامة كالصاخة، والحاقة، والوقعة، وغير ذلك. وسميت بالقارعة؛ لأنها تقرع الآذان والأسماع من شدة أهوالها وعظيم شأنها.

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تكرار للسؤال عن معناها؛ من أجل أن يكون زاجرًا ورادعًا لمن يسمع هذا الوعيد العظيم، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تعظيم لشأنها؛ لأن القارعة شأنها عظيم جدًا، فبعدها إما سعادة أبدية أو شقاوة أبدية، ولو جمعت هذه الآيات مع وصف الله عَزَّوَجَلَّ لها بالواقعة ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة:١-٦]، وقوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة:١-٣]، وغير ذلك من الأسماء ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس:٣٣-٣٧]، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦﴾ [النازعات:٣٤-٣٦].

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ أَيْ: يكون الناس في يوم القارعة كالفراش، والفراش كائن صغير ينتشر في الليل أكثر منه في النهار لاسيما إذا رأى ضوءً، فيخرج لا يدري إلى أين يتجه، وإذا وجد نارًا تقاعد فيها وسقط؛ لأنه لا يتحكم بنفسه، ولا يملك عقلًا يتقي فيه شر ذلك، ففي يوم القيامة يكون الناس كالفرش المبثوث؛ من شدة الأهوال التي يرونها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ

﴿تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج:١-٢]، يومًا مهولًا يخرج الناس حفاة عراة غرلًا، لا ينظر الرجال إلى النساء، ولا النساء إلى الرجال؛ لشدة الحال، فعن عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**»(١)، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟، قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج:٢]**»(٢).

فيكون الناس من شدة هذه الأهوال كالفراش المبثوث المنتشر هاهنا وهاهنا، لا يلوي بعضهم على بعض، ولا ينظر بعضهم لبعض، ولا يستقر لأحدهم قرار؛ لأنهم لا يعلمون ما الذي يجري لهم، وما الذي سيكونون فيه، ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ﴾ العظيمة الشاهقة الثابتة ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ كالصوف ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ الذي يتبدد في الهواء، وتسوقه الريح، هذه الجبال العظيمة، إذا أنت تريد الآن أن تكسر حجرة صغيرة من الجبل، تأتي بآلات شديدة، وتعالجها علاجًا شديدًا من أجل أن تكسرها، فهذه الجبال تصير كالصوف المنفوش المتطاير من شدة ذلك اليوم، حيث تنسف الجبال، وتبقى الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه:١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾ [النمل:٨٨].

ثم يقول مخبرًا عن حال الناس في ذلك اليوم أنهم ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أَيْ: بالأعمال الصالحة، وفيها إثبات الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة، خلافًا لما ذهب إليه المعتزلة، فهو ميزان حقيقي له كفتان ولسان، توضع فيه أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩)، واللفظ له.
(٢) متفق عليه، البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

﴿مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون ١٠٢-١٠٣]، والموازين تثقل بالطاعات والحسنات وتخف بالسيئات، ولعظم شأن التوحيد يكون أثقل شيء، ففي حديث عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ**»(١).

❖ **ويوزن في ذلك اليوم العمل**، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ**»(٢).

❖ **ويوزن العامل**، فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**»(٣).

❖ **وتوزن الصحف**، كما تقدم حديث عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وجمعت الموازين؛ لكثرة الموزونات وإلا هو ميزان واحد، وما منا إلا وله أعمال كثيرة، إما صالحة، وإما طالحة، وإلا من مجموعهما.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ فهو في جنة يحيى ويعيش عيشةٍ هنية يرضى بها؛ وذلك بسبب رضى الله عَزَّوَجَلَّ عنه. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ لكثرة المعاصي والسيئات، ومن أشدها الشرك.

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ **لها معنيان:**

المعنى الأول: أنه يسقط على رأسه في النار، وهذه مصيبة عظيمة، أن الإنسان يهوي على

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، والحديث في «الصحيح المسند» (٧٨٧) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) متفق عليه، البخاري (٦٦٨٢)، ومسلم (٢٦٩٤).
(٣) أخرجه أحمد (٣٩٩١)، والحديث في «الصحيح المسند» (٨٣٧) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

رأسه في النار، ومعلوم أن النبي ﷺ سمِعَ وَجْبَةً، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**»(١).

والمعنى الثاني: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾ أَيْ: صارت له النار كالأم إذ لا مأوى له غيرها.

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رَوْحِ اللهِ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ مِسْكٍ حَتَّى إِنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَأْتُوا بِهِ بَابَ يَعْنِي السَّمَاءِ فَيَقُولُونَ: مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ فَيَسْأَلُونَهُ مَا فَعَلَ فُلَانٌ مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟، فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا فَإِذَا قَالَ أَمَا أَتَاكُمْ؟، قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمِسْحٍ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَى عَذَابِ اللهِ فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ الْأَرْضِ فَيَقُولُونَ: مَا أَنْتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ حَتَّى يَأْتُوا بِهِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ**»(٢).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ أَيْ: الهاوية، وهذا لتعظيم شأنها ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ نار شديدة الحرارة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «**نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**»، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً قَالَ: «**فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**»(٣)، وانظروا إلى شده حرارتها وعظيم خطرها، ولو عذب الناس بها لكفتهم وأحرقتهم، وأوجعتهم، ولكن مع ذلك هذه النار ليست بشيء أمام تلك النار، شديدة الحرارة، مظلمة الحال، وكل ما فيها حار: كالزقوم، والحميم، وغير ذلك مما يقع فيه الناس.

ففي هذه السور من الوعد والوعيد ما يكون دافعا للإنسان إلى التوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والاستغفار مما بدر منه، وملازمة الطاعة حتى يلقى الله عَزَّوَجَلَّ.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي (١٩٧٢)، والحديث في «الصحيح المسند» (١٣١٥) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٦٥).

الجزء الثلاثون سورة التكاثر

مكية آياتها ٨

سُورَةُ التَّكَاثُرِ، مَكيَّةٌ، وفيها إخبار من الله عَزَّوَجَلَّ أن الناس ألهاهم التكاثر في الأموال، والأولاد، والضيعات عن كثير من أمور دينهم، وهذه السورة وإن كان يدخل فيها دخولًا أوليًا الكفار، إلا أنها عامة فتشمل كل من أضاع حظه من الآخرة بحظ من الدنيا زائل، وفيها تحقير الدنيا إذ أنها تشغل عن الآخرة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أَيْ: شغلكم ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ بجميع شؤون الدنيا، أَيْ: عن الآخرة التي هي دار البقاء والقرار، والسعادة فيها لا تكون إلا بعمارة الدنيا بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وطاعته، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح:١١]. وكم من إنسان أفسده التكاثر، هذا يُفسد عن طريق الحق بسبب مالٍ، وآخر بسبب ولد، وثالث بسبب زوجةٍ، وآخر بسبب أصحابه، فما لم يكن مبلغًا لك إلى سعادة الدارين فكن زاهدًا فيه.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أَيْ: زيارة الموت لا الزيارة المعهودة من الذهاب إلى المقبرة والنظر إليها، فكم من إنسان يأتي المقبرة وهو غافل، وهو لاهٍ عن حالها، مع أن زيارة القبور سبب لتذكر الموت، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**»(١)، ومما يدل على ما ذكرت حديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ، قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ قَالَ: «**لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**» فَقَالَ لَهُ: «**لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**» قَالَ: قُلْتَ: طَهُورٌ؟ كَلَّا، بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ، أَوْ تَثُورُ، عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ القُبُورَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَنَعَمْ إِذًا**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٦).

والشاهد: قوله: «تُزِيرُهُ القُبُورَ» فالزيارة التي يعرف الإنسان أنه كان مفرطًا قبلها هي زيارة الموت، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾ [المنافقون:١٠].

فأنت الآن في فسحة تستطيع العمل، فلا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم تمنيت الرجوع، بل إن المؤمن إذا بلغت الحلقوم تعجل المضي فيما هو فيه. فإن النبي ﷺ حين كان في سكرات الموت جعل يرفع إصبعه ويقول: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»(١)، وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»(٢)، من أحب لقاء الله أحب الله لقاؤه، وسبب محبة المسلم للقاء الله؛ أنه يبشر بروح وريحان، ورب راض غير غضبان، وسبب كراهية الكافر للموت عند ذلك؛ أنه يبشر بسخط من الله وغضب.

﴿ٱلۡمَقَابِرَ﴾ والمقابر: جمع مقبرة وهي ما يوارى فيها الناس عند موتهم.

واستدل بهذه الآية ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾ على عذاب القبر، وفيها ما جاء عند الترمذي، قال: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا حَكَّامُ بْنُ سَلْمٍ الرَّازِيُّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي قَيْسٍ، عَنْ الحَجَّاجِ، عَنْ المِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «مَا زِلْنَا نَشُكُّ فِي عَذَابِ القَبْرِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾ [التكاثر:١]» قال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ»(٣)، والأدلة على إثبات عذاب القبر متواترة في القرآن والسنة الصحيحة، فمن القرآن:

قال الله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥-٤٦]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ وَهُوَ: الْغَرَقُ فِي الْيَمِّ، ثُمَّ النَّقْلَةُ مِنْهُ إِلَى

(١) أخرجه البخاري (٤٤٣٧)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٤).
(٣) برقم (٣٣٥٥)، ضعيف الإسناد، وسيأتي بيان علته.

الْجَحِيمِ. فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ اجْتَمَعَتْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ فِي النَّارِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٦] أَيْ: أَشَدَّهُ أَلَمًا وَأَعْظَمَهُ نَكَالًا. وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي اسْتِدْلَالِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى عَذَابِ الْبَرْزَخِ فِي الْقُبُورِ(١). اهـ.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ الْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْعَرْضَ يَكُونُ فِي الْبَرْزَخِ وَهُوَ حُجَّةٌ فِي تَثْبِيتِ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَقَالَ غَيْرُهُ وَقَعَ ذِكْرُ عَذَابِ الدَّارَيْنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُفَسَّرًا مُبَيَّنًا لَكِنَّهُ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ عَذَابَ الْقَبْرِ مُطْلَقًا(٢). اهـ.

وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور:٤٥-٤٧]، قال ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ عَذَابُهُمْ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ يُرَادَ بِهِ عَذَابُهُمْ فِي الْبَرْزَخِ، وَهُوَ أَظْهَرُ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَاتَ وَلَمْ يُعَذَّبْ فِي الدُّنْيَا، أَوِ الْمُرَادُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ(٣). اهـ.

وقد بوب البخاري في «صحيحه»: بَابُ مَا جَاءَ فِي عَذَابِ القَبْرِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: الهُونُ: هُوَ الهَوَانُ، وَالهَوْنُ: الرِّفْقُ وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة:١٠١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥-٤٦].

قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح الآية الأولى: وَهَذَا وَإِنْ كَانَ قَبْلَ الدَّفْنِ فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْعَذَابِ الْوَاقِعِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ الْعَذَابُ إِلَى الْقَبْرِ لِكَوْنِ مُعْظَمِهِ يَقَعُ فِيهِ، وَلِكَوْنِ الْغَالِبِ عَلَى الْمَوْتَى أَنْ يُقْبَرُوا. وَإِلَّا فَالْكَافِرُ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعْذِيبَهُ مِنَ الْعُصَاةِ يُعَذَّبُ بَعْدَ مَوْتِهِ وَلَوْ لَمْ يُدْفَنْ؛ وَلَكِنَّ ذَلِكَ مَحْجُوبٌ عَنِ الْخَلْقِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ. قَوْلُهُ: وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [التوبة:١٠١] وروى الطَّبَرِيّ، وابن أَبِي حَاتِمٍ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» أَيْضًا: مِنْ طَرِيقِ السُّدِّيِّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ

(١) «تفسير القرآن» (٧/١٤٦).
(٢) «فتح الباري» (٣/٢٣٣).
(٣) «شرح الطحاوية» (٣٩١).

الْجُمُعَةِ، فَقَالَ: «**اخْرُجْ يَا فُلَانُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ**» فَذَكَرَ الْحَدِيثَ. وَفِيهِ فَفَضَحَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ، فَهَذَا الْعَذَابُ الْأَوَّلُ، وَالْعَذَابُ الثَّانِي عَذَابُ الْقَبْرِ. وَرَوَيَا أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ نَحْوُهُ، وَمِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الْحسن: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [التوبة:١٠١] عَذَابُ الدُّنْيَا، وَعَذَابُ الْقَبْرِ.

وقال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَالَ الطَّبَرِيُّ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اخْتِلَافًا عَنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ: وَالْأَغْلَبُ أَنَّ إِحْدَى الْمَرَّتَيْنِ عَذَابُ الْقَبْرِ، وَالْأُخْرَى تَحْتَمِلُ أَحَدَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْجُوعِ، أَوِ السَّبْيِ، أَوِ الْقَتْلِ، أَوِ الْإِذْلَالِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ(١). اهـ.

وقول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:٢٧]، قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ بِهَذَا - وَزَادَ - ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [إبراهيم:٢٧] نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ(٢).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: وأما نعيم القبر، فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩](٣). اهـ. وأقول: وعذاب القبر يدل عليه في هذه الآية أيضًا: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة:٩٢-٩٤].

واستدل كذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الروح» على النعيم والعذاب في القبر، فقال: وَمِنْهَا قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة:٢١]، وَقد احْتج بِهَذِهِ الْآيَة جمَاعَة مِنْهُم عبد الله بن عَبَّاس على عَذَاب الْقَبْر.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمِنْهَا قَوْله تَعَالَى ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾، وَقد اخْتلف السّلف مَتَى يُقَال لَهَا ذَلِك، فَقَالَت طَائِفَة: يُقَال لَهَا عِنْد الْمَوْت، وَظَاهر اللَّفْظ مَعَ هَؤُلَاءِ؛ فانه خطاب للنَّفس الَّتِي قد تجردت عَن الْبدن وَخرجت مِنْهُ، وَقد فسر ذَلِك النَّبِي ﷺ بقوله فِي حَدِيث البَرَاء وَغَيره: «**فَيُقَال لَهَا: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ**» وَقَوله تَعَالَى ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾﴾ [الفجر:٢٩] مُطَابق لقَوْله «**اللَّهُمَّ الرفيق الْأَعْلَى**»، وَأَنت إِذا تَأَمَّلت أَحَادِيث عَذَاب الْقَبْر ونعيمه وَجدتهَا تَفْصِيلًا وتفسيرا لما دلّ

---

(١) (٣/٢٣٣).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١)، عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) «أهوال القبور» (٦١).

عَلَيْهِ الْقُرْآن وَبِاللَّهِ التَّوْفِيق[(١)]. اهـ.

وقد استدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر:١-٢]، لكن من باب الفائدة الحديث الذي أخرجه الترمذي، من طريق الحَجَّاج - بن أرطأة -، عَنِ الْمِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا زِلْنَا نَشُكُّ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر:١][(٢)]، والحديث ضعيف، حجاج بن أرطأة الراجح ضعفه، والمنهال بن عمرو لم يسمع من زر كما في «التهذيب»، والحديث قد تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]، استدل بها على عذاب القبر.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون:١٠٠] قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكر الآية: تَهْدِيدٌ لِهَؤُلَاءِ الْمُحْتَضَرِينَ مِنَ الظُّلْمَةِ بِعَذَابِ الْبَرْزَخِ[(٣)]. اهـ.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: حقًا سوف تعلمون إذا زرتم المقابر زيارة الموت أنكم كنتم في غفلة عن طاعة الله. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تأكيد لعلمهم للحال الواقع، ولكنه علم لا يستفيدون منه؛ لأنه كما يقال: علم جاءهم في الوقت الضائع، في الوقت الذي لا يستطيعون الرجوع فيه. وأما أهل الإيمان فهذا عندهم مذكور في كتاب ربهم وفي سنة نبيهم ﷺ، وأجمع عليه السلف، فهم يؤمنون بالقبر وما فيه من النعيم والعذاب، ويؤمنون بالبعث والنشور؛ ولذلك يبادرون بالطاعات والقربات، ويمتثلون شرع الله، وتوحيده، بخلاف الكافر، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۝٨٣ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۝٨٤ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾ [مريم:٧٧-٨٦].

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ علمًا يقينيًا وأن هذا واقع، وذلك حين رؤية الجحيم.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ أَيْ: يقع لكم علم اليقين حين رؤية الجحيم، لكن هذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ

---

(١) «كتاب الروح» (٧٦).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٥٥).
(٣) «تفسير القرآن» (٥/٤٩٥).

فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ [الأعراف:٥٣]، وسميت بالجحيم؛ لأنها توقد بالجمر ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]، نسأل الله السلامة.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ وهذه هي أكبر أنواع الرؤى، أن الكافر يرى النار رؤية عين يقين، فيتيقن وجودها، ويتيقن عذابه فيها.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وهذه آية عامة في حق المؤمن والكافر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ - أَوْ لَيْلَةٍ - فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**» قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا**»، فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيْنَ فُلَانٌ؟**» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِيَّاكَ، وَالْحَلُوبَ**»، فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**»(١).

وانظر إلى هذه الآية المشعرة لمعنى حديث أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**»(٢).

فجلوسنا في هذا المسجد يعتبر من النعيم، وأكلنا وشربنا من النعيم، والجلوس تحت المراوح والمكيفات من النعيم، فكل هذا مسؤول عنه، والله المستعان.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٨).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٧).

مكية الجزء الثلاثون سورة العصر آياتها ٣

سُورَةُ الْعَصْرِ ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، والمؤمنون جميعًا رجالهم، ونساءهم، وشبابهم، وشيوخهم، وجنُّهم، وانسهم، يجب عليهم ويتحتم أن يعملوا بهذه السورة العظيمة؛ وذلك لأن الدين قائمٌ على ما دلت عليه، ولأن سلامة العبد المؤمن من العطب، ومن الخسارة الدنيوية والأخروية، لاحقٌ لذلك والله عَزَّوَجَلَّ كما تعلمون وتعتقدون أنه أحسن قيلًا وأصدق حديثًا، وقد أقسم قسمًا بمخلوق من مخلوقاته وله ذلك ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣]، يقسم بما شاء تعظيمًا لذلك المخلوق، ولا يجوز للمخلوق أن يحلف بغير الله تعالى، **وملخص ما يقسم به يعود إلى قسمين:**

الأول: الحلف بأسماء الله وصفاته وهذا هو الذي لا ينعقد إلا هو.

الثاني: الحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ، والحلف به محرم وصاحبه بين عظيمتين: أحدها: الشرك الأكبر إن قرنه تعظيمًا للمحلوف به والآخر: شرك أصغر.

وأما الحلف في القرآن بغير الله عَزَّوَجَلَّ فالجواب عليه ما قال ابن الملقن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عنه جوابان:

أحدهما: أنه على حذف مضاف كما سلف في الحديث، - يشير: إلى تقدير ورب الشمس ورب مواقع النجوم -.

ثانيهما: أن الله تعالى يقسم بما شاء للتنبيه على شرفه؛ فإنه المتصرف في ملكه كيف يشاء ونحن لا نتصرف إلا كما أذن لنا وقد أبلغنا نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقال: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١). اهـ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ العَصْرُ: الزَّمَانُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ حَرَكَاتُ بَنِي آدَمَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُوَ الْعَشِيُّ، وَالْمَشْهُورُ الْأَوَّلُ(٢). اهـ.

(١) «الإعلام بفوائد عمدة الأحكام» (٩/٢٥٨).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/٤٨٠).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ أكد خسارة الإنسان بحرف التوكيد إِنَّ وباللام الداخلة في خبره كما أكده بالقسم، وهذه التوكيدات الثلاث تدلك دلالة واضحة على أهمية هذا الأمر الذي فيه صلاحك، وصلاح معادك، وصلاح حياتك ومماتك، والمراد بالإنسان جنس الإنسان فكل إنسان في خسارة وضياع إلا من استثناه الدليل على ما يأتي.

قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ استثنى الله عَزَّوَجَلَّ طائفة واحدة من هذه الخسارة، والناس يتفاوتون منهم من يخسر بشهوته، ومنهم من يخسر بشبهته، ومنهم من يخسر بهما جميعا ويتبع هواه، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص:٢٦]، وإنما ينسى يوم الحساب أهل الخسارة، أهل البعد والإعراض، أهل الجحود، أهل الكفر والعناد، فالسالمون من الخسارة الدنيوية والأخروية صنفٌ واحدٌ، وكلٌّ يقول: أنا هو.

وَكُـلٌّ يَـدَّعِي وَصْـلًا لِلَيْلَى ❁❁❁ وَلَيْلَى لَا تُقِـرُّ لَهُـمْ بِـذَاكَا

فالدَّعاوى ما لم يقيموا عليها بيِّنات أصحابها أدعياء، والنبي ﷺ يقول كما في حديث ابْنِ عَبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ وَدِمَاءَهُمْ ، وَلَكِنَّ الْبَيِّنَةَ عَلَى الْمُدَّعِي ، وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ**»(١).

فما هي الصفات التي يوصف ويتميز بها أهل السلامة من الخسارة؟

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ هذا بيان لمن استثناه الله تعالى من صنف الخسارة في الدارين.

فالشرط الأول: الإيمان: ويشمل أركان الإيمان الستة، الإيمانُ بِاللَّه، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

الإيمان بالله: يتضمن الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته.

الإيمان برسول الله ﷺ: يتضمن الإيمان بما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

الإيمان برسل الله عليهم الصلاة والسلام: يستلزم الإيمان بما أخبر من الرسل فنؤمن بمن عرفنا

(١) حديث حسن رواه البيهقي (٢١٢٠١) وغيره هكذا، وبعضه في «الصحيحين».

من أسماءهم ونؤمن بمن لم نعرف، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء:١٦٤] ونؤمن ونقر ونعترف ونعتقد أن محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء، ودينه ناسخٌ لجميع الشرائع والأديان، فمن زعم أنه يسعه الخروج من شريعة محمدٍ ﷺ كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى فقد كفر.

ونؤمن أن من لم يؤمن بمحمدٍ ﷺ من اليهود والنصارى وغيرهم فهو كافر، لحديث النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١).

الإيمان بكتب الله: فنؤمن بأن الله عَزَّوَجَلَّ انزل التوراة والإنجيل وأنزل صحفًا على إبراهيم وصحفًا على موسى وأنزل على داود الزبور وأنزل كتبًا غير ذلك، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ [الحديد:٢٥] فنؤمن بها إجمالًا على أنها من عند الله، وأنها قد حُرفت وبُدلت وغُيرت بخبر الله الحق إلا القرآن.

ثم نؤمن أن هذا القرآن ناسخ لجميع الكتب، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ ﴾ [المائدة:٤٨]، مهيمنٌ على جميعها وناسخ لها وأنه محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩]، فنعمل بمحكمه ونؤمن به وما أشكل وأشتبه علينا منه نرده إلى أهل العلم لعلمهم به وإن لم نجد فنقول كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧]

الإيمان بالملائكة: فنؤمن بملائكة الله وبمن سمى منهم ومن لم يسم وبأنهم خلق ولهم صفات، خلقهم الله من نور كما خلق الجن من نار وخلق الإنسان من طين كما في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**»(٢).

وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وأن لهم وظائف منهم ملك الجبال، وجبريل، وميكائيل، وحملة العرش، وإسرافيل، وغير ذلك مما هذا ليس موطن بسطه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

الإيمان باليوم الآخر: فنؤمن باليوم الآخر وما فيه من الصراط، والميزان، والحوض، وتطاير الصحف، ويدخل فيه عذاب القبر ونعيمة، والضمة والفتنة، وغير ذلك. والنظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ، ونؤمن بالجنة والنار، وأنهما مخلوقتان لا تبيدان.

ونؤمن بما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ من المغيبات فنؤمن بخبر الله عَزَّوَجَلَّ، ونؤمن بخبر رسول الله ﷺ.

ونؤمن بالقدر خيره وشره، وأن ما أصابك لم يكن ليُخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليُصيبك جف القلم بما هو كائن.

ومراتب القدر أربعة:

العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق دل عليها أدلة الكتاب والسنة، والقدر سر الله عَزَّوَجَلَّ وعلمه، وأعظم الناس جهلًا به من تعمق في الخوض فيه، وأعظم الناس علمًا به من أمنوا به وجمعوا بين الآيات بعيدًا عن أفكار المجبرة من الجهمية والأشاعرة وأفكار النُفاة من المعتزلة.

فالإيمان بالله والإيمان بما ذُكر يُنمي في الإنسان محبة الخير ويدعوه إلى نشر الخير، ويحذره من الشر والضير، لأنه يعلم أنه عبد مخلوق مربوب، وبأن الله عَزَّوَجَلَّ أمره ونهاه، وبأن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل إليه ملائكة حافظين، وأرسل إليه رسلا يعلمونه ما جهل، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥].

والإيمان بالقدر فيها الاستسلام والانقياد لله عَزَّوَجَلَّ والرضا بقضاء الله تعالى، والإيمان باليوم الأخر فيه الحث على ملازمة الطاعات والقربات فإن العمر قصير وما نقدم عليه عسير.

قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي لازموا فعل الطاعات والقربات فكل ما أمر الله تعالى به فهو من الصالحات.

فالشرط الثاني للسلامة من الخسارة: ملازمة العمل الصالح: فمدعي الإيمان كثير؛ لكن ينبغي أن يقرن القول بالعمل، ولهذا قرن الله عَزَّوَجَلَّ بين الإيمان والعمل في ستة وخمسين موضعًا من القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف:٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]،

في آيات طيبات مباركات كثيرة.

ويعرف الإيمان عند أهل السنة والجماعة بأنه قول باللسان وعمل بالجوارح واعتقاد بالقلب، وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ: «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ، وَشَرَائِعَ، وَحُدُودًا، وَسُنَنًا، فَمَنِ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ»(١).

والأعمال داخلة في مسمى الإيمان وليست بخارجة عنه كما زعم المرجئة الذين يزعمون أن الذي لا يعمل والذي يعمل سواء حتى قال قائلهم والإيمان أهله في أصله سواء أو كما قال الطحاوي، وقال قائلهم لما رأى امرأة ترقص هذه على إيمان امرأت عمران، وقال الأخر أنا على إيمان جبريل وميكائيل.

فالصلاة والحج والزكاة والجهاد وصلة الرحم وغيرها من الطاعات كلها من الإيمان، والإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات والقُربات وينقص بالمعاصي والسيئات والبدع والشركيات وأدلة زيادة الإيمان ونقصانه ليس هذا موطن بسطها، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر:٣١]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤]، وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران:١٧٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي أن دينهم قام على النصيحة.

الشرط الثالث من شروط السلامة: التواصي بالحق، فالله عَزَّوَجَلَّ حق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢]، والقران حق كما اخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، والنبي ﷺ حق، كما قال ﷺ في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ**»(٢) الحديث.

---

(١) ذكره البخاري (١/ ١٠) في كِتَابِ الإِيمَانِ.

(٢) متفق عليه، البخاري (١١٢٠) ومسلم (٧٦٩).

فنؤمن بهذا كله ونتواصى بالحق الذي هو القرآن والسنة؛ لأنه جاء من عند الحق سبحانه وتعالى؛ ولأن الذي جاء به الداعي إلى الحق محمد ﷺ؛ ولأن ما يضاد القرآن والسنة باطل وإذا تزاحم الباطل مع الحق ذهب الباطل، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف:٢٩]، وهذا ليس بالتخيير وإنما هو بالتهديد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ ﴾ [الكهف:٢٩]، أي من تخلف عن الحق وعن أصحابه وأهله ولازم سبيل المجرمين: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف:٢٩]. لما كانوا ليسوا بأصحاب حق اغيثوا بنظير ما كانوا فيه يزيدهم شدة إلى شدتهم، وعناء إلى عناءهم، وعذاب إلى عذابهم.

فالله عَزَّوَجَلَّ أقسم أنه الحق وبالحق يقول، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ ﴾ [ص:٨٤] فالله الله بالتواصي بالحق والدعوة إلى الحق والحق هو الكتاب والسنة فادع إليهما تفلح، وتربح، وتنجح، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف:١٠٨].

وطريقة النبي ﷺ الدعوة الى الحق، ﴿ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف:١٠٨] أي على علم ومعرفة بالحق ومعرفة بالباطل الذي يحذر منه، والذي ما عنده معرفة بالحق ومعرفة بالباطل يدخل على الناس ما ليس من الحق ويدخل على الناس الباطل؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف:١٠٨] أي على حق ومعرفة وبيان أنا ومن اتبعني، كلنا ندعو إلى الله على بصيرة وحق نعرفه ونعتقده وندين به. فالحق الحق لازمه على نفسك، لازمه على غيرك، لازمة بحضرك، لازمه بسفرك، واحذر من تلبيسات الشيطان أن يعظم نفسك إليك فلا تظن أن الحق إلا فيه أو أن يعظم بعض الناس إليك لا تظن أن الحق إلا فيه.

فالحق هو الكتاب والسنة، والناس يصيبون ويخطئون، ويعلمون ويجهلون، فالواجب على المسلم أن يكون ذهابه وإيابه وقيامه وقعوده على طريقة الكتاب والسنة ففيهما السلامة من العطب وفيهما طريق الوصول، قال النبي ﷺ كما في حديث زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ ... ثُمَّ قَالَ وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨).

فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به فهو حبل الله المتين من تمسك به نجا، ومن تركه ضل وغوى، انصر الحق الذي هو سنة رسول الله ﷺ وامش به وادع به وهذا يحتاج إلى علم وإلى عمل، والدليل هو أن الله عَزَّوَجَلَّ إنما أمر بالتواصي بالحق لما ذكر قبل ذلك الإيمان والعمل.

فالإنسان العامل ربما تكون دعوته الفعلية أبلغ بكثير من دعوته القولية، والإنسان غير العامل ضرره كثير وكبير، فَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»(١).

فعلماء السوء وقفوا على أبواب الجنة يدعون الناس بأقوالهم ويصدونهم عنها بأفعالهم إلا أن تكون عالمًا عاملًا فلازم الخير مع صديقك وعدوك، ومع موافقك ومخالفك، لتكن إرادة الخير منك للمسلمين حاصلة، هذا دين الله، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَادِمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(٢).

وعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).
(٢) متفق عليه، البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).
(٣) متفق عليه، البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣) واللفظ له.

عَيْنَاهُ»(١)، فالشاهد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه من أجل الحق وفي الحق وبالحق، إذا لم يكن هذا هو ديدنك وهذه طريقتك، والرسول ﷺ كان يحب للناس الخير وملازمة الحق حتى اشتد ذلك عليه فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ⑧﴾ [فاطر:٨].

والحق ثقيل على الأنفس لأن أعداء الحق كثير ومنهم أهل الباطل بأنواعهم، والهوى، والنفس الأمارة، والشيطان، إذًا أعداء الحق كثير فإن لم تجاهد نفسك من أجل العمل بالحق ومحبة الحق ومحبة الخير للمسلمين فأنت صيد لما تقدم من الأعداء.

ولهذا أهل السنة أرحم الناس بالناس، لماذا؟ لأنهم يدعونهم إلى الحق اعتقادًا وعلمًا وعملًا وإلى دار الحق التي هي إلى الجنة، وإلى إرضاء الحق الذي هو الله عَزَّوَجَلَّ، والابتعاد عما يسبب لهم العطب والنار الذي هي حق وعذاب القبر الذي هو حق. ومن أسباب انتشار الدعوة بين الناس محبته الله تعالى لما هو حق، ومحبته لهداية الناس للحق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور من ظلمات الشر وظلمات البدع من ظلمات المعاصي من ظلمات الأهواء إلى النور الذي قال الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، أي يخرجهم من الباطل إلى الحق ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧] أي يخرجهم الشيطان من الحق الواضح الجلي البيِّن الظاهر إلى الباطل الصرف.

فليكن حالك الدعوة إلى الحق، والترغيب فيه، والبيان للحق، الحق يحتاج إلى بيان لأن صورة الحق تُشوه بسبب كثرة المخالفين، وداعي الحق يُشَوه بسبب كثرة الأعداء؛ فلهذا الحق يحتاج إلى بيان بالصبر والرفق واللطف بالعباد وعدم الانتقام للنفس، لو أن الإنسان ينتقم لنفسه ما خرج ولا تكلم ولا ألف ولا صنف ولا أمر ولا نهى، كم من الناس تنصح له وهو يتتبع زلة منك وهفوة وكلمة ليطير بها فرحًا وما يحرص على سماع الحق والاستفادة من الحق وعلى ملازمة الحق، وإنما قد فرخ الشيطان في رأسه فيحاول دائمًا في أذية الحق في طريقة أو بأخرى بينما الذي يجب على المسلم أن يصبر ويتصبر من أجل هذا الحق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [الأعراف:٥٩]، ركز معي صاحب حق أرسله الحق لماذا؟ ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾

(١) متفق عليه، البخاري (٦٦٠) واللفظ له، ومسلم (١٠٣١).

[الأعراف:٥٩]، دعاهم إلى عبادة الحق سبحانه وتعالى فـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف:٦٠]، لكن لما كان هذا القول منهم باطل، ولما كان نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عنده همة عالية في الدعوة إلى الحق حتى صبر عليهم ألف سنة إلا خمسين عاما قال: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف:٦١]، يا ليت نستطيع أن نسلك مثل هذا السلوك العظيم يقولون له أنت ضال، أنت منحرف، فلم يعَنِّف ولم يشتد حتى ينفذ، وإنما قال: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف:٦١]، هذا الاتهام الذي اتهمتموني به ليس بصحيح، لست من أهل الباطل، ولست من أهل الخنا، ولست من دعاة الزور، ولست من دعاة الفجور ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف:٦١-٦٢]، انظر إلى هذا الخير العظيم حرص على الهداية مع أنه إذا قال لهم أنتم المعرضون، أنتم المبطلون، أنتم الضالون، أنتم المخالفون، ما أُنكِر عليه لكنه حريص على بث الخير، وهكذا ثمود قالوا لنبي الله هود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف:٦٦] فيرد عليهم بنفس الرد اللطيف: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف:٦٧-٦٨].

والنبي ﷺ يسبونه ويشتمونه ويكسرون المغفر على رأسه وتكسر البيضة وتكسر رباعيته وهو يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**»(١)؛ لأن صاحب الحق مراده رد الناس إلى الحق لا التشفي والتلهي والصد وإنما مراده الخير والبر، ولهذا لما دعا عليهم عاتبه الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران:١٢٨]، فالأمر كله لله عَزَّوَجَلَّ؛ فإذًا عباد الله، الواجب علينا أن نتواصى بالحق بعد عِلمَنَا وعَمَلنَا، نوصي غيرنا ونوصي أنفسنا لأن الوصية من أعظم الوسائل لنشر الحق ونشر الخير ونشر البر.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾

ثم الشرط الرابع: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ وهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا تواصي بالحق، وهل النصيحة التي قال عنها النبي ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»(٢)، إلا تواصي بالحق، وهل

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٥٥) عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الخطابة والتصنيف والتأليف إلا تواصي بالحق، وهل التدريس إلا تواصي بالحق، كل ذلك من الحق الذي يتواصى به أهل السنة أهل الحق أهل الاستقامة، وأيضًا التواصي بالصبر فالحق كما تقدم ثقيل والشيء الثقيل يحتاج إلى صبر.

والحق أيضًا له أعداء والأعداء يؤذون، يؤذون بالأقوال، يؤذون بالأفعال، يؤذون بالباطل الذي هم عليه، فتحتاج إلى صبر عليه، ولهذا قال موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]. لأنهم بلغوا في التحمل مبلغًا من حيث أذية فرعون وقومه لهم؛ ولهذا دلهم موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على طريق يوصلهم إلى انتشار الحق الذي يدعون إليه، وإلى ثباتهم على الحق الذي يدلون عليه ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف:١٢٨]، وأخبرهم أن الأرض لله يورثها أهل الحق من عباده ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨]، العاقبة لأهل الحق أهل التقى أهل الصلاح، والتواصي بالصبر أمر مطلوب ومرغب فيه ومحبوب لأن الله عَزَّوَجَلَّ يحب الصابرين على ملازمة الحق، والصابرين عن البعد عن الباطل، والصابرين الذين يصبرون على أذية أهل الباطل، فالله يحب الصابرين بأصنافهم الثلاثة.

فالمطلوب منا إيمان وعمل، ومن تمام الإيمان والعمل التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهذه الدعوة المباركة دعوة أهل السنة والجماعة إنما انتشرت بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ما قالوا: نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.

ولا قالوا: منهجنا واسع أفيح يسع الأمة ويسع أهل السنة، ولا قالوا: لا نجعل خلافنا في غيرنا بسبب الخلاف بيننا، ولا قالوا: نصحح ولا نهدم، وإنما قالوا: نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر.

إننا في زمن كثُر شره وقل خيره، كثُر باطله وقل حقه، وإننا بحاجة إلى المراجعة لأنفسنا لعودتنا إلى كتاب ربنا وإلى سنة نبينا ﷺ وملازمة ذلك في جميع أوقاتنا ولحظاتنا، وحركاتنا وسكناتنا، ولنتحاب فيما بيننا، ولنتناصح فيما بيننا، ولندعو لبعضنا، ولنرحم بعضنا، فإن الشر كثير وأنت غريب فإذا لم يقع بيننا ذلك فمن الذي سيقوم بنا ومن الذي سيرحمنا ونحن غرباء، والغرباء يتعاطفون ويتزاورن ويتراحمون ويتناصحون، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»، فَقِيلَ: مَنِ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أُنَاسٌ صَالِحُونَ، فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٦٦٥٠)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالغريب يلازم الدعوة إلى الحق والذين يعصونه كثير، والغريب يقبل على الله، ويقبل على الخير، ويقبل على البر.

والسلفية ليست قميص يتقمص فيه من شاء وينزعه من شاء.

السلفية ليست ادعاء.

السلفية علمٌ وعملٌ واعتقادٌ ونيةٌ.

السلفية هي دين الله الحق الذي انزله على محمد ﷺ.

السلفية هي دعوة النبي ﷺ بفهم أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير وسعد، وسعيد رضي الله عنهم، وغيرهم من الرعيل الأول ومن تبعهم بإحسان.

لنكن كلنا أدوات بناء لهذه الدعوة، لنبنيها بالطاعات، بالقربات، لبث الخير والعلم، والبعد عن كل ما يناقض الكتاب والسنة، والبعد عن كل ما يخالف الكتاب السنة.

الإنصاف مع أنفسنا ومع خصومنا، فعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رضي الله عنه، أنه قال: «ثَلَاثٌ مَنِ اسْتَكْمَلَهُنَّ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ بِهِنَّ الْإِيمَانَ: إِنْصَافٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ»(١). لا تنصف لنفسك وتجور على غيرك، انصف لغيرك وانصف لنفسك، فإن هذا من أسباب انتصار وظهور الدعوة السلفية.

هذه السورة العظيمة التي تكلمنا عن بعض فوائدها والتقصي يطول، والعمل بالصالحات التي دلت عليها مطلوب منا جميعًا فالله الله في الخير وملازمته، والدعوة إليه، وعدم الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فلنقبل على العلم والتعليم والدعوة، وليكن قائدنا وإسوتنا ودليلنا في ذلك هو الكتاب والسنة، نعم المتمثلة في فهم سلف الأمة رضوان الله عليهم أجمعين عباد الله، وكما قيل: «هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ»(٢)، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [التوبة:١٠٥]، فالعمل بماء جاءنا في كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ هو من أعظم أسباب الرفعة في الدنيا والآخرة ومن أسباب الفلاح.

اعْمَلْ بِعِلْمِكَ تَغْنَمْ أَيُّهَا الرَّجُلُ ❁❁❁ لا يَنْفَعُ العِلْمُ إِنْ لَمْ يَحْسُنِ العَمَلُ

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٧١٣).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «ذم من لا يعمل بعلمه» (١٤)، والخطيب في «اقتضاء العلم بالعمل» (٤٠)، عَنْ عَلِيِّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه.

فاستفد من الذي يحثك على الحق، ويدلك عليه، وإياك من تتبع العثرات والزلات والكلمات خصوصًا السني السلفي، الخطأ مردود ممن قاله، وممن عمله، لكن تحضر عند رجل عند شيخ عند مدرس وأنت لا تريد الإصغاء والاستفادة وإنما تريد مما يخرج من فيه فإذا ما خرج طرت مشرقًا ومغربًا، سبحان الله! ليكن حالنا إذا خرج الخير نشرناه، وإذا وقع من الإنسان الذي هو معروف بسلامة المعتقد وحسن المقصد ما نظنه يخالف الخير نصحناه وبيَّناه إذا عُلم أنه إنما هي كلمة خرجت أو كذا النصيحة للمسلمين، «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»(١).

وإن عُلم أنه خطأ فادح في العقيدة حُذر من الخطأ، ولا يسابق العلماء، ولا يستعجل بالأحكام، بل يلازم العلماء: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:٤٣]، فما أمر الله بسؤالهم والعودة إليهم إلا لفضلهم ومنزلتهم وتعقلهم وتفهمهم ووضعهم للأمور في موطنها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣].

فالله الله بالتفقه وطلب العلم استغلوا أوقاتكم واستغلوا لحظاتكم في ذلك، فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ قِيلَ لَهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: مَا تَشْتَهِي؟ قَالَ: «بَيْتٌ خَالٍ، وَإِسْنَادٌ عَالٍ»(٢).

وفي حديث عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، وابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أن النبي ﷺ عند موته جعل يمسح عن وجهه، ويضع الخُمرة على وجهه فإذا اغتم كشفها - وهو يبث العلم ويدعو إليه - وهو يقول: «**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(٣).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «**يَا خَالُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»، فَقَالَ: أَخَالٌ أَمْ عَمٌّ؟ فَقَالَ: «**لَا، بَلْ خَالٌ**»، قَالَ: فَخَيْرٌ لِي أَنْ أَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَعَمْ**»(٤).

ولما جاء إلى ذلك اليهودي الغلام كما في حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «**أَسْلِمْ**»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥) عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه ابن الصلاح في «مقدمته» (٢٥٦).
(٣) متفق عليه، البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).
(٤) أخرجه أحمد (١٢٥٤٣).
(٥) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

وعن عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ شَابٌّ يُثْنِي عَلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَدْ طُعِنَ وَالنَّاسُ يُثْنُونَ عَلَيْهِ - فَلَمَّا أَدْبَرَ إِذَا إِزَارُهُ يَمَسُّ الْأَرْضَ، فَقَالَ: «يَا ابْنَ أَخِي، ارْفَعْ إِزَارَكَ فَإِنَّهُ أَتْقَى لِرَبِّكَ وَأَنْقَى لِثَوْبِكَ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: يَرْحَمُ اللَّهُ عُمَرَ لَمْ يَمْنَعْهُ مَا كَانَ فِيهِ أَنَّهُ رَأَى حَقًّا لِلَّهِ يَتَكَلَّمُ فِيهِ(١).

فنحن مطالبون جميعًا بالعلم والعمل والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ونسأل الله ذلك، نسأل الله الهداية والتوفيق والسداد، نحن في الله وبالله فإذا خالفنا ذلك فإن العطب مصيرنا ومآلنا.

وسبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٣٥).

الجزء الثلاثون سورة الهمزة

مكية — آياتها ٩

سورة الهمزة، سورة مكيَّة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣
كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى
ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ﴾ عذاب موجع، وقيل وادي في جهنم، ولا يثبت في ذلك شيء.

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الهمز يكون بالفعال: كغمزة العين، وإشارة اليد، ونحو ذلك، واللمز يكون باللسان: كالتنقص، والتنابز بالألقاب، والشتم، ونحو ذلك، وقد ذكر بعضهم عند هذه الآية أن الله عَزَّوَجَلَّ توعد صنفين مما يتعلق بتعامل الإنسان مع غيره فقد حرم الله أكل مال الناس بالباطل، كما حرم الهمز، واللمز، والاحتقار للغير:

❖ **الأول:** الذي يلمز الناس بالقول والفعل.

❖ **الثاني:** الذي يأكل أموال الناس بالباطل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ [المطففين:١-٢].

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أَيْ: هذا اللمزة الذي يسخر من الناس جمع مالًا كثيرًا وعدده، لكن هذا المال لم يغنِ عنه شيئًا؛ لأنه جمعه من غير حله، واستخدمه في غير حله، والمال كثرته وبال إن كان قد أخذ من الحرام، فإن الإنسان يسأل عنه، ويحاسب عليه، وقد قال بعضهم: حلاله حساب وحرامه عقاب. وفي هذا دليل أن كثيرًا من الناس يبطرون إذا رزقهم الله مالًا، وولدًا، وإذا افتقر ربما تواضع، فإذا أعطاك الله مالًا فهو مِنَّة منه وفضل، فاشكره عليه وأدِّ حق الله تعالى فيه.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أَيْ: هذا الهماز اللماز جماع الأموال ﴿يَحْسَبُ﴾ يظن، أَيْ: يظن أنه سبب في خلوده، وما هو إلا وبال عليه.

﴿كَلَّا﴾ أَيْ: حقًا ليس ماله بمخلد له ولا بنافع له.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ أَيْ: أنه سيلقى في النار، وسميت حطمة؛ لأنها تحطم من يلقى فيها؛ لشدة حرارتها، وحالها.

ثم قال معظمًا لشأنها: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ أَيْ: ما تدري ما هذه النار التي تسمى بالحطمة إنها ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ أضافها إلى نفسه إضافة ملك وتصرف، ﴿ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ التي تتقد ولا تنطفئ ولا تخمد، ومن صفاتها أنها: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ وهذا وصف يبين شدة هذه النار، حيث تصل إلى أفئدتهم، وتحرق الأفئدة والأجسام حية، فيتألم الإنسان ظاهرًا وباطنًا، بخلاف نار الدنيا، فإنها لاتصل إلى الفؤاد إلا وقد أحرقت البدن، وربما لحقه الهلاك، بينما هذه النار تصل إلى الفؤاد من الداخل، وما زال الجسم متألمًا من الخارج، والله المستعان.

وبهذا تعلم أن شأن نار الآخرة غير شأن نار الدنيا، فنار الدنيا من أحرق فيها مات، ونار الدنيا تبدأ بأحراق الظاهر قبل الباطن، بينما نار الآخرة من دخلها لا يموت فيها لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة المنعمين، وهذا في حق المخلدين فيها.

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾ أَيْ: مع شدة حرارتها، وعظيم شأنها توصد على أصحابها، مع أنهم لو تركوا ما فروا.

أيــنَ المَفَــرُّ؟ والإلهُ الطَّالــب ❁❁❁ والأشرمُ المغلوبُ غَيْرُ الْغَالِبْ

﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ قيل في سلاسل، وقيل في أبواب تغلق عليهم، وقيل بأنهم يوضعون في مثل الصهاريج وتكون ممددة، فهذا وصف عظيم لذلك العذاب، فلو كان في النار يجري جريًا لكان عذابه شديدًا، فكيف وهو مع ذلك مقيد، ومصفد، ومضيق عليه، نسأل الله السلامة والعافية من هذه النار وبأس القرار.

والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

الجزء الثلاثون سورة الفيل

مكيّة آياتها ٥

سورة الفيل ، سورة مكيّة، يقول الله عز وجل لمحمد ﷺ ولأمته:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

هَذِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي امْتَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى قُرَيْشٍ، فِيمَا صَرَفَ عَنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى هَدْمِ الْكَعْبَةِ وَمَحْوِ أَثَرِهَا مِنَ الْوُجُودِ، فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ، وَأَرْغَمَ آنَافَهُمْ، وَخَيَّبَ سَعْيَهُمْ، وَأَضَلَّ عَمَلَهُمْ، وردهم بِشَرِّ خَيْبَةٍ. وَكَانُوا قَوْمًا نَصَارَى، وَكَانَ دِينُهُمْ إِذْ ذَاكَ أَقْرَبَ حَالًا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ. وَلَكِنْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِرْهَاصِ وَالتَّوْطِئَةِ لِمَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ وُلِدَ عَلَى أَشْهَرِ الْأَقْوَالِ، وَلِسَانُ حَالِ الْقَدَرِ يَقُولُ: لَمْ نَنْصُرْكُمْ - يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ- عَلَى الْحَبَشَةِ لِخَيْرِيَّتِكُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ صِيَانَةً لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ الَّذِي سَنُشَرِّفُهُ وَنُعَظِّمُهُ وَنُوَقِّرُهُ بِبَعْثَةِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَهَذِهِ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ عَلَى وَجْهِ الْإِيجَازِ وَالِاخْتِصَارِ وَالتَّقْرِيبِ، قَدْ تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ أَنَّ ذَا نُوَاس - وَكَانَ آخِرَ مُلُوكِ حِمْيَرَ، وَكَانَ مُشْرِكًا - هُوَ الَّذِي قَتَلَ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ، وَكَانُوا نَصَارَى، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا دَوس ذُو ثَعْلَبَانِ، فَذَهَبَ فَاسْتَغَاثَ بِقَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ - وَكَانَ نَصْرَانِيًّا - فَكَتَبَ لَهُ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ؛ لِكَوْنِهِ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ مَعَهُ أَمِيرَيْنِ: أَرِيَاطَ وَأَبْرَهَةَ بْنَ الصَّبَاحِ أَبَا يَكْسُومَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَدَخَلُوا الْيَمَنَ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَاسْتَلَبُوا الْمُلْكَ مِنْ حِمْيَرَ، وَهَلَكَ ذُو نُوَاسٍ غَرِيقًا فِي الْبَحْرِ. وَاسْتَقَلَّ الْحَبَشَةُ بِمُلْكِ الْيَمَنِ وَعَلَيْهِمْ هَذَانَ الْأَمِيرَانِ: أَرِيَاطُ وَأَبْرَهَةُ، فَاخْتَلَفَا فِي أَمْرِهِمَا وَتَصَاوَلَا وَتَقَاتَلَا وَتَصَافَّا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى اصْطِدَامِ الْجَيْشَيْنِ بَيْنَنَا، وَلَكِنِ ابْرُزْ إِلَيَّ وَأَبْرُزُ إِلَيْكَ، فَأَيُّنَا قَتَلَ الْآخَرَ، اسْتَقَلَّ بَعْدَهُ بِالْمُلْكِ. فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ فَتَبَارَزَا، وخلف كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَنَاةٌ، فَحَمَلَ أَرِيَاطُ عَلَى أَبْرَهَةَ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ، فَشَرَمَ أَنْفَهُ وَفَمَهُ وَشَقَّ وَجْهَهُ، وَحَمَلَ عَتَوْدَة مَوْلَى أَبْرَهَةَ عَلَى أَرِيَاطَ فَقَتَلَهُ، وَرَجَعَ أَبْرَهَةُ جَرِيحًا، فَدَاوَى جُرْحَهُ فَبَرأ، وَاسْتَقَلَّ بِتَدْبِيرِ جَيْشِ الْحَبَشَةِ بِالْيَمَنِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ

يَلُومُهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَيَتَوَعَّدُهُ وَيَحْلِفُ لَيَطَأَنَّ بِلَادَهُ وَيَجُزَّنَّ نَاصِيَتَهُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبْرَهَةُ يَتَرَقَّقُ لَهُ وَيُصَانِعُهُ، وَبَعَثَ مَعَ رَسُولِهِ بِهَدَايَا وَتُحَفٍ، وَبِجِرَابٍ فِيهَا مِنْ تُرَابِ الْيَمَنِ، وَجَزَّ نَاصِيَتَهُ فَأَرْسَلَهَا مَعَهُ، وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ: لِيَطَأَ الْمَلِكُ عَلَى هَذَا الْجِرَابِ فَيَبَرُّ قَسَمَهُ، وَهَذِهِ نَاصِيَتِي قَدْ بَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ. فَلَمَّا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِ أَعْجَبَهُ مِنْهُ، وَرَضِيَ عَنْهُ، وَأَقَرَّهُ عَلَى عَمَلِهِ. وَأَرْسَلَ أَبْرَهَةُ يَقُولُ لِلنَّجَاشِيِّ: إِنِّي سَأَبْنِي لَكَ كَنِيسَةً بِأَرْضِ الْيَمَنِ لَمْ يُبْنَ قَبْلَهَا مِثْلُهَا. فَشَرَعَ فِي بِنَاءِ كَنِيسَةٍ هَائِلَةٍ بِصَنْعَاءَ، رَفِيعَةِ الْبِنَاءِ، عَالِيَةِ الْفِنَاءِ، مُزَخْرَفَةِ الْأَرْجَاءِ. سَمَّتْهَا الْعَرَبُ الْقُلَّيس؛ لِارْتِفَاعِهَا؛ لِأَنَّ النَّاظِرَ إِلَيْهَا تَكَادُ تَسْقُطُ قُلْنُسُوَتُهُ عَنْ رَأْسِهِ مِنَ ارْتِفَاعِ بِنَائِهَا. وَعَزَمَ أَبْرَهَةُ الأشرمُ عَلَى أَنْ يَصْرِفَ حَجّ الْعَرَبِ إِلَيْهَا كَمَا يُحَج إِلَى الْكَعْبَةِ بِمَكَّةَ، وَنَادَى بِذَلِكَ فِي مَمْلَكَتِهِ، فَكَرِهَتِ الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَّةُ وَالْقَحْطَانِيَّةُ ذَلِكَ، وَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى قَصَدَهَا بَعْضُهُمْ، وَتَوَصَّلَ إِلَى أَنْ دَخَلَهَا لَيْلًا. فَأَحْدَثَ فِيهَا وَكَرَّ رَاجِعًا. فَلَمَّا رَأَى السَّدَنَةُ ذَلِكَ الْحَدَثَ، رَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى مَلِكِهِمْ أَبْرَهَةَ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّمَا صَنَعَ هَذَا بَعْضُ قُرَيْشٍ غَضَبًا لِبَيْتِهِمُ الَّذِي ضَاهَيْتَ هَذَا بِهِ، فَأَقْسَمَ أَبْرَهَةُ لَيَسِيرَنَّ إِلَى بَيْتِ مَكَّةَ، وَلَيُخَرِّبَنَّهُ حَجَرًا حَجَرًا.

وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَنَّ فِتْيَةً مِنْ قُرَيْشٍ دَخَلُوهَا فَأَجَّجُوا فِيهَا نَارًا، وَكَانَ يَوْمًا فِيهِ هَوَاءٌ شَدِيدٌ فَأَحْرَقَتْهُ، وَسَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ.

فَتَأَهَّبَ أَبْرَهَةُ لِذَلِكَ، وَصَارَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَرَمرم؛ لِئَلَّا يَصُدَّهُ أَحَدٌ عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ فِيلًا عَظِيمًا كَبِيرَ الْجُثَّةِ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، يُقَالُ لَهُ: مَحْمُودٌ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ لِذَلِكَ. وَيُقَالُ: كَانَ مَعَهُ أَيْضًا ثَمَانِيَةُ أَفْيَالٍ. وَقِيلَ: اثْنَا عَشَرَ فِيلًا. وَقِيلَ غَيْرُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. يَعْنِي لِيَهْدِمَ بِهِ الْكَعْبَةَ، بِأَنْ يَجْعَلَ السَّلَاسِلَ فِي الْأَرْكَانِ، وَتُوضَعَ فِي عُنُقِ الْفِيلِ، ثُمَّ يُزْجَرَ لِيُلْقِيَ الْحَائِطَ جُمْلَةً وَاحِدَةً. فَلَمَّا سَمِعَتِ الْعَرَبُ بِمَسِيرِهِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ جِدًّا، وَرَأَوْا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِمُ الْمُحَاجَبَةُ دُونَ الْبَيْتِ، وَرَدّ مَنْ أَرَادَهُ بِكَيْدٍ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ، يُقَالُ لَهُ «ذُو نَفْر» فَدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَى حَرْبِ أَبْرَهَةَ، وَجِهَادِهِ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ، وَمَا يُرِيدُ مِنْ هَدْمِهِ وَخَرَابِهِ. فَأَجَابُوهُ وَقَاتَلُوا أَبْرَهَةَ، فَهَزَمَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ، عَزَّوَجَلَّ، مِنْ كَرَامَةِ الْبَيْتِ وَتَعْظِيمِهِ، وَأُسِرَ «ذُو نَفْر» فَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ. ثُمَّ مَضَى لِوَجْهِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَرْضِ خَثْعَم، عَرَض لَهُ نُفَيل بْنُ حَبيب الخَثْعمي فِي قَوْمِهِ: شَهْرَانُ وَنَاهِسُ، فَقَاتَلُوهُ، فَهَزَمَهُمْ أَبْرَهَةُ، وَأَسَرَ نُفَيل بْنُ حَبِيبٍ، فَأَرَادَ قَتْلَهُ ثُمَّ عَفَا عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ لِيَدُلَّهُ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ. فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ، خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا ثَقِيفٌ وَصَانَعُوهُ خِيفَةً عَلَى بَيْتِهِمْ، الَّذِي عِنْدَهُمْ، الَّذِي يُسَمُّونَهُ اللَّاتَ. فَأَكْرَمَهُمْ وَبَعَثُوا مَعَهُ أَبَا رِغَال دَلِيلًا. فَلَمَّا انْتَهَى أَبْرَهَةُ إِلَى

المُغَمِّس - وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ - نَزَلَ بِهِ وَأَغَارَ جَيْشُهُ عَلَى سَرْحِ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الْإِبِلِ وَغَيْرِهَا، فَأَخَذُوهُ. وَكَانَ فِي السَّرْحِ مِائَتَا بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَكَانَ الَّذِي أَغَارَ عَلَى السَّرْحِ بِأَمْرِ أَبْرَهَةَ أَمِيرِ الْمُقَدِّمَةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: الْأَسْوَدُ بْنُ مَفْصُودٍ فَهَجَاهُ بَعْضُ الْعَرَبِ - فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ - وَبَعَثَ أَبْرَهَةُ حُنَاطَةَ الْحِمْيَرِيَّ إِلَى مَكَّةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِأَشْرَفِ قُرَيْشٍ، وَأَنْ يُخْبِرَهُ أَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَجِئْ لِقِتَالِكُمْ إِلَّا أَنْ تَصُدوه عَنِ الْبَيْتِ. فَجَاءَ حُنَاطَةُ فَدُلَّ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ وَبَلَّغَهُ عَنْ أَبْرَهَةَ مَا قَالَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَاللَّهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامُ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْتُهُ وَحَرَمُهُ، وَإِنْ يُخَلِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَوَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا دَفع عَنْهُ. فَقَالَ لَهُ حُنَاطَةُ: فَاذْهَبْ مَعِي إِلَيْهِ. فَذَهَبَ مَعَهُ، فَلَمَّا رَآهُ أَبْرَهَةُ أَجَلَّهُ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ رَجُلًا جَمِيلًا حَسَنَ الْمَنْظَرِ، وَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ، وَجَلَسَ مَعَهُ عَلَى الْبِسَاطِ، وَقَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: حَاجَتُكَ؟ فَقَالَ لِلتُّرْجُمَانِ: إِنَّ حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي. فَقَالَ أَبْرَهَةُ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: لَقَدْ كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهِدت فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ، وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ قَدْ جِئتُ لِهَدْمِهِ، لَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟! فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ. قَالَ: مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي! قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ ذَهَبَ مَعَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَعَرَضُوا عَلَى أَبْرَهَةَ ثُلُثَ أَمْوَالِ تِهَامَةَ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ عَنِ الْبَيْتِ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ، وَرَدَّ أَبْرَهَةُ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِبِلَهُ، وَرَجَعَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، وَالتَّحَصُّنِ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ، تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ. ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللَّهَ وَيَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَى أَبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ، وَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ آخِذٌ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ:

لاهُمَّ إِنَّ المرء يمـ ـنَعُ رَحْلَه فامنع حِلالَك ❁❁❁

لَا يغلبنَّ صَليبُهم ومحالُهم غَدْوًا محالك ❁❁❁

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ أَرْسَلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حلقة الْبَابِ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى رُءُوسِ الْجِبَالِ.

وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَنَّهُمْ تَرَكُوا عِنْدَ الْبَيْتِ مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدة، لَعَلَّ بَعْضَ الْجَيْشِ يَنَالُ مِنْهَا شَيْئًا بِغَيْرِ حَقٍّ، فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيَّأَ لِدُخُولِ مَكَّةَ، وَهَيَّأَ فِيلَهُ - وَكَانَ اسْمُهُ مَحْمُودًا - وَعَبَّأَ جَيْشَهُ، فَلَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ نَحْوَ مَكَّةَ أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِهِ ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ وَقَالَ ابْرُكْ مَحْمُودُ

وَارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ. ثُمَّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ، فَبَرَكَ الْفِيلُ. وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشتد حَتَّى أُصْعِدَ فِي الْجَبَلِ. وَضَرَبُوا الْفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَى. فَضَرَبُوا فِي رَأْسِهِ بالطَّبرزين وَأَدْخَلُوا مَحَاجِنَ لَهُمْ فِي مَرَاقه فَبَزَغُوهُ بِهَا لِيَقُومَ، فَأَبَى؛ فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَامَ يُهَرْوِلُ. وَوَجَّهُوهُ إِلَى الشَّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ. وَوَجَّهُوهُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ وَوَجَّهُوهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ. وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالَ الْخَطَاطِيفِ وَالْبَلَسَانِ.

مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ، وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، أَمْثَالُ الْحُمُّصِ وَالْعَدَسِ، لَا تُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ. وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلٍ لِيَدُلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ هَذَا. وَنُفَيْلٌ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ مَعَ قُرَيْشٍ وَعَرَبِ الْحِجَازِ، يَنْظُرُونَ مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ مِنَ النِّقْمَةِ، وَجَعَلَ نُفَيْلٌ يقول:

أَيـنَ الْمَفَـرُّ؟ والإلهُ الطَّالـب ❁❁❁ والأشرمُ المغلوبُ غَيْرُ الْغَالِبْ

لَا يغلبـنَّ صَـلِيبُهم ❁❁❁ ومحـالُهم غَـدْوًا مِحَالـك

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ نُفَيل فِي ذَلِكَ أَيْضًا:

أَلَا حُييـت عَنـا يَـا رُدَيْنـا ❁❁❁ نَعِمْنـا كُـم مَـعَ الأصبَاح عَيْنَـا

رُدَيْنـةُ لَـوْ رَأَيْـتِ وَلَا تَرَيْـه ❁❁❁ لَدَى جَنْب الْمُحَصَّبِ مَا رَأَيْنَا

إِذًا لَعَـذَرتني وَحَمَـدت أَمْـري ❁❁❁ وَلَمْ تَـأْسَيْ عَـلَى مَـا فَـاتَ بَيْنَـا

حَمِـدتُ اللَّهَ إِذْ أَبصَـرتُ طَـيْرًا ❁❁❁ وَخِفْـتُ حَجـارة تُلقَـى عَلَينـا

فَكُـلّ الْقَـوْمِ يَسـأَلُ عَـن نُفَيـل ❁❁❁ كَـأَنَّ عـلَيَّ للحُبْشَـان دَيْنَـا!

وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ بِأَسَانِيدِهِ أَنَّهُمْ لَمَّا تَعَبَّئُوا لِدُخُولِ الْحَرَمِ وَهَيَّئُوا الْفِيلَ، جَعَلُوا لَا يَصْرِفُونَهُ إِلَى جِهَةٍ مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ إِلَّا ذَهَبَ فِيهَا فَإِذَا وَجَّهُوهُ إِلَى الْحَرَمِ رَبَض وَصَاحَ. وَجَعَلَ أَبْرَهَةُ يَحْمِلُ عَلَى سَائِسِ الْفِيلِ وَيَنْهَرُهُ وَيَضْرِبُهُ، لِيَقْهَرَ الْفِيلَ عَلَى دُخُولِ الْحَرَمِ. وَطَالَ الْفَصْلُ فِي ذَلِكَ. هَذَا وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِ مَكَّةَ، مِنْهُمُ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ، وَعَمْرُو بْنُ عَائِذِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومٍ، وَمَسْعُودُ بْنُ عَمْرٍو الثَّقَفِيُّ، عَلَى حِرَاءَ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا الْحَبَشَةُ يَصْنَعُونَ، وَمَاذَا يَلْقَوْنَ مِنْ أَمْرِ الْفِيلِ، وَهُوَ الْعَجَبُ الْعُجَابُ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، أَيْ قَطَعًا قِطَعًا صُفْرًا دُونَ الْحَمَامِ، وَأَرْجُلُهَا حُمْرٌ، وَمَعَ كُلِّ طَائِرٍ ثَلَاثُ أَحْجَارٍ، وَجَاءَتْ فَحَلَّقَتْ عَلَيْهِمْ، وَأَرْسَلَتْ تِلْكَ الْأَحْجَارَ عَلَيْهِمْ فَهَلَكُوا.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: جَاءُوا بِفِيلَيْنِ فَأَمَّا مَحْمُودٌ فَربض، وَأَمَّا الْآخَرُ فَشَجُع فحُصِب.

وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه: كَانَ مَعَهُمْ فِيلَةٌ، فَأَمَّا مَحْمُودٌ - وَهُوَ فِيلُ الْمَلِكِ - فَرَبَضَ، لِيَقْتَدِيَ بِهِ بَقِيَّةُ الْفِيلَةِ، وَكَانَ فِيهَا فِيلٌ تَشَجَّع فَحُصِبَ، فَهَرَبَتْ بَقِيَّةُ الْفِيلَةِ.

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ يَسَار، وَغَيْرُهُ: لَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَهُ الْعَذَابُ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ سَرِيعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا وَهُمْ هَارِبُونَ، وَكَانَ أَبْرَهَةُ مِمَّنْ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا، حَتَّى مَاتَ بِبِلَادِ خَثْعَم.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَيَهْلَكُونَ عَلَى كُلِّ مَنْهَلٍ وَأُصِيبَ أَبْرَهَةُ فِي جَسَدِهِ، وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ يَسْقُطُ أَنْمُلة أَنْمُلة، حَتَّى قَدِمُوا بِهِ صَنْعَاءَ وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّائِرِ، فَمَا مَاتَ حَتَّى انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ فِيمَا يَزْعُمُونَ.

وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: أَنَّ قُرَيْشًا أَصَابُوا مَالًا جَزِيلًا مِنْ أَسْلَابِهِمْ، وَمَا كَانَ مَعَهُمْ، وَأَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ أَصَابَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الذَّهَبِ مَا مَلَأَ حُفْرَةً[1]. اهـ.

قد يقول قائل: كيف دافع الله عَزَّوَجَلَّ عن الكعبة من أبرهة، ولم يدافع عن الكعبة في آخر الزمان من ذي السويقتين الذي يهدمها حجرًا حجرًا؟ قال أهل العلم: دافع عن الكعبة في مبدئها توطئة لمبعث النبي ﷺ؛ ولأنها ستكون قبلة المسلمين وستعظم، وأما آخر الزمان فإن أهلها يضيعونها وينتهكونها، فيسلط الله عليها ذو السويقتين.

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ أَيْ: أصحاب أبرهة، أهلكهم وبددهم ، سموا بأصحاب الفيل؛ للفيل العظيم الذي حملوه معهم لقصد هدم الكعبة.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾ أَيْ: أنه تعالى جعل كيدهم في ذهاب ولم يفلحوا أبدًا، والحال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾، وقد أحسن من قال:

يَـــا رَبِّ إِنَّ الْمَـــرْءَ يَمْنَـــعُ ❁❁❁ رَحْلَـــهُ فَـــامْنَعْ حَلَالَـــكْ
لَا يَغْلِـــبَنَّ صَـــلِيبُهُمْ ❁❁❁ وَمِحَـــالُهُمْ عَـــدْوًا مِحَالَـــكْ
إِنْ كُنْـــتَ تَـــارِكَهُمْ وَقِبْلَتَنَـــا ❁❁❁ فَـــأْمُرْ مَـــا بَـــدَا لَـــكْ
وَلَـــئِنْ فَعَلْـــتَ فَإِنَّـــهُ ❁❁❁ أَمْـــرٌ يُـــتِمُّ بِـــهِ فِعَالَـــكْ

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أرسل عليهم طيرًا كثيرًا أتى على شكل جماعات ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾ أَيْ: أسقط عليهم حجارة من السماء ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين قد يبس، وهي حجارة كالحمص.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/٤٨٣).

﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ أَيْ: أهلكتهم، حتى كانوا: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ كالعلف الذي تأكله الدواب وتناثره هاهنا وهاهنا؛ لكثرة من هلك في هذه الوقعة، والله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

والحمد لله رب العالمين.

الجُزْءُ الثَّلاثُونَ سُورَةُ قُرَيْشٍ

مَكيَّة آياتها ٤

سُورَةُ قُرَيْشٍ، سُورَةٌ مَكيَّةٌ، بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قصة الفيل وبين النعمة التي أنعم بها على قريش، كأنه يقول: فعلنا ذلك ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ من أجل اجتماع قريش، ومن أجل النعمة التي أنعم الله بها عليهم من رحلتهم في الشتاء والصيف، وهذا قول لبعض أهل العلم؛ حيث جعل سورة الفيل وسورة قريش كالسورة الواحدة.

والمعنى الثاني: أن الله عَزَّوَجَلَّ امتنَّ على قريش بما أنعم عليهم من النعم ومزيد المِنن حيث خصَّهم بحرمٍ آمن، وبطريق لرحلتهم آمن، فكانوا يرحلون إلى اليمن في الشتاء، ويرحلون إلى الشام في الصيف؛ للتجارة ونحوها، وكانت لا تعترضهم قبيلة من قبائل العرب؛ لاعتقاد فضلهم؛ لأنهم سكان البيت الحرام، بل إن من دخل في حلفهم صار آمنًا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ ثم بين هذا الإيلاف ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ أَيْ: أن هذا الاجتماع وهذا الإيلاف هو رحلة الشتاء ورحلة الصيف.

وكانوا يجمعون ما لديهم من الأموال ثم يؤمِّنون عليها رجالًا منهم كالمضاربة، فإذا ذهبوا إلى اليمن اشتروا من لباسها وسلاحها وأنواع ما فيها من الحبوب وغيرها، وإذا ذهبوا إلى الشام اشتروا من حللها ومجوهراتها، ونحو ذلك مما يحتاجونه لأكلهم ولبسهم وتجارتهم، ولذلك لما خرج النبي ﷺ لالتقاء العير في بدر، خرجوا بحدهم وحديدهم حتى وقعت المعركة المشهورة.

وبما أن الله أمتن عليهم بهذا الإيلاف والأمن والنعمة، فالواجب عليهم شكر الله ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ أن يوحدوا الله عَزَّوَجَلَّ بأقوالهم، وأفعالهم، ومعتقداتهم، ولكن الواقع أنهم عبدوا الحجارة الصماء، والأصنام البكماء، فعبدوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ونصبوا حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنمًا، حجارة نقصها ظاهر فيها، ومع ذلك تسلط عليهم الشيطان فعبدوها، وتركوا عبادة الله جَلَّجَلَالُهُ.

وقد امتن الله عَزَّوَجَلَّ على قريش بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢]، وهذه القرية هي مكة.

﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ أمر لأهل مكة ولجميع الناس ﴿ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ صاحب هذا البيت، والمراد به البيت العتيق، الكعبة المشرفة، أضيف إلى الله عَزَّوَجَلَّ لعظيم منزلته، ولجليل رفعته، وهو أول بيت وضع للناس، وهو قبلة المسلمين، وفيه من الآيات البينات والمقامات العظيمات ما يعرف قدرها كل مسلم وموحد، كما قال تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران:٩٧]، وقيل المراد بمقام إبراهيم: المكان الذي يُصلى فيه عند البيت، وقيل: جميع مقامات إبراهيم ويدخل فيها الصفا والمروة ومنى ومزدلفة وعرفات، وهذا معنى مقارب ومقبول.

﴿ الَّذِى أَطْعَمَهُم ﴾ أَيْ: رب هذا البيت هو الذي أطعمهم، وذكر الطعام تنبيهًا إلى غيره وهو الشراب، ولا قيام للإنسان إلا بطعام وشراب، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يطعم الناس جميعًا ولا يُطعم؛ لكمال غناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام:١٤].

ولم يطعمهم فقط الطعام الذي تقوم به الأبدان، بل وسع لهم في غير ذلك، وكانت تأتيهم الفواكه وكل ما لذ وطاب، وكان من عجيب قدرة الله أن جعل الطائف التي هي بلد زراعي ومناخه لطيف قريب من مكة، يبعد عنها بمقدار مرحلتين، فكانت تأتي مكة من الطائف جميع أنواع الفاكهة، من أعنابها ورمانها ونحوها، ولو تأملنا البيت العتيق في هذه الأيام لرأينا تحقيق هذا الأمر، فإن الله عَزَّوَجَلَّ سخر جبي جميع الثمرات إلى البيت، فتجد كل ما لذ وطاب من المأكول والمشروب والملبوس.

﴿ مِّن جُوعٍ ﴾ لأن الجوع شديد، وإذا تسلط على الإنسان أضعف قواه، وأسهر ليله، ولحقه الضرر، ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ أَمَّنهم من أعدائهم، فلم تغزى مكة ومن غزاها هلك، فقد جاءها أبرهة الأشرم بجيش لا يدان لأحد بقتاله، فسلط الله عليه الطير الأبابيل التي ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول.

وأباح الله لمحمد ﷺ مكةَ ساعة من النهار، حتى كفروا وتمردوا على دين الله جَلَّ جَلَالُهُ، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلاَ تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحْلِلْ لِي قَطُّ إِلَّا سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ، لاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلاَ يُعْضَدُ شَوْكُهَا، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا، وَلاَ تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ**»(١).

فمن أراد دوام نعمة الله عليه فليشكر ربه عليها، ومن أعظم شكر الله أن يوحد ويفرد بحقه، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا مُعَاذُ**» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ**» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»(٢).

ونجد أن المجتمعات الإسلامية تأن من الحروب والويلات والفقر والدمار، ولو تأملنا إلى سبب ذلك لوجدناه البعد عن الدين، وإلا فوعد الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥]، وتجد كثيرًا من بلاد الإسلام تعج بالقبور والقباب والسحرة والمشعوذين والكهان والعرافين، ثم بعد ذلك يطلبون الأمن والأمان، أنَّى يكون له الأمن ولم يحصل منهم الإيمان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢]، هكذا جعل الله عَزَّوَجَلَّ الأمن للمؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف:١٣]. وهذه قريش التي كانت منيعة حصينة سلط الله عليها أهل الإسلام حين أبوا إلا الكفر والعناد والإجرام، فقتل النبي ﷺ منهم في بدر سبعين وأسر سبعين، ثم غزا مكة وفتحها في السابع عشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البخاري (١١٢، ٤٣١٣)، ومسلم (١٣٥٥).
(٢) متفق عليه، البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

مكية الجزء الثلاثون سورة الماعون آياتها ٧

سُورَةُ الْمَاعُونِ ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ أَيْ: أخبرني عن الذي يكذب بيوم الجزاء والبعث والنشور، وهذا حاصل في كفار قريش وغيرهم ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، وكانوا يستبعدون البعث بعد الإماتة ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الصافات:١٦].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «**لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**»(١)، وعَنْ خَبَّابٍ قَالَ: كُنْتُ قَيْنًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، قَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. فَقُلْتُ: لَا أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللَّهُ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ وَأُبْعَثَ فَسَأُوتَى مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَ. فَنَزَلَتْ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم:٧٧-٧٨](٢).

وقد جعل الله لهم من الدلائل الظاهرة، والآيات القاهرة ما تدل على أن الله لا يعجزه أن يعيد الإنسان بعد الإماتة كما أنه لم يعجز عن البدأة، كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان:٢٨]، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس:٨١].

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥).

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أَيْ: أن الذي يكذب بالدين والبعث والنشور هو الذي يدفع اليتيم وينهره، ويظلمه، ويقهره، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى:٩]، وعَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا». وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا(١). واليتيم هو الذي مات أبوه، فيحتاج إلى رعاية وعناية؛ فإنه يعيش مكسور القلب، فقير البدن، بينما هذا المجرم يدفعه ويطرده.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ومن صفات هذا المكذب بالدين أنه لا يحض على طعام المسكين، لا يأمر بالصدقة على الفقراء والمحتاجين، وإذا كان لا يأمر بذلك فهو لا يعطيهم من باب أولى، فيا أيها المسلم حض على طعام المسكين، وابذل في أوجه الخير تلقاه عند الله عَزَّوَجَلَّ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ**»(٢).

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ في معنى هذه الآية ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧﴾ [الفجر:١٧]، حقًا إنكم لا تكرمون اليتيم يا معاشر الكفار ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾ [الفجر:١٨] ولا تأمرون بالإنفاق على المسكين.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ إخبار بعذاب أليم لصنف من المصلين، الذي يصلون ولا يأتون بالصلاة على وجهها؛ إما بعدم إحسان ركوعها وخشوعها ووضوئها، وإما بعدم الصلاة في وقتها، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ [النساء:١٠٣] وإما بالمراءة فيها. فالناس في باب الصلاة أصناف:

الأول: أهل الإيمان الذين وصفهم الله جَلَّجَلَالُهُ بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون:١-٥] الآيات ، ويصلون كما صلى رسول الله ﷺ، ويأتون بها على الوجه الذي يرضي الله جَلَّجَلَالُهُ وحالهم كما قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

الثاني: من قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا

(١) أخرجه البخاري (٥٣٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٠).

﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢] وهؤلاء هم المنافقون الخلص، قال عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»(١).

الثالث: من يصلي ولكن لا يحسن، كما رَأَى حُذَيْفَةُ رَجُلًا لَا يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، قَالَ: «مَا صَلَّيْتَ وَلَوْ مُتَّ مُتَّ عَلَى غَيْرِ الفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَيْهَا»(٢).

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ، فَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ**»(٣).

الرابع: لا يصلي بالكلية، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ [مريم:٥٩]، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»(٤)، وقال رسول الله ﷺ: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**»(٥).

ومن قبيح الاستدلال قول بعضهم حين تقول له: صل!، يقول لك: قال الله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾ وهذا وقف قبيح، وإنما: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ﴾ أَيْ: من صفاتهم أنهم ﴿عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾. قال بعض السلف: الحمد لله أنه لم يقل في صلاتهم ساهون. فإن السهو في الصلاة يقع، وقد وقع من النبي ﷺ، ويقع من غير النبي ﷺ، ويجبره سجدتا السهو، ولكن السهو عن الصلاة هو المذموم؛ لأن الساهي عنها هو المفرط والمضيع لها.

وإذا تأملتم حال الأمة تجدون أن أغلب الناس في هذا الحال، يصلي متى أراد ويترك متى أراد، ويصلي بالهيئة التي أراد، بينما العبد مأمور أن يصلي في أوقات معلومة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣].

ومأمور بالمداومة عليها، وعدم الانقطاع عنها: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج:٢٣] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المعارج:٣٤]، ومأمور أن يصلي كما صلى

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٤).
(٢) أخرجه البخاري (٧٩١).
(٣) أخرجه أحمد (٢٢٧٠٤).
(٤) أخرجه أحمد (٢٢٩٣٧)، والترمذي (٢٦٢١)، عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٥) أخرجه مسلم (٨٢)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

النبي ﷺ «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»(١).

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ أَيْ: في صلاتهم وفي جميع أعمالهم، والرياء ذنبه عظيم؛ لأنه شرك بالله عَزَّوَجَلَّ، والناس فيه منقسمون إلى قسمين:

منهم من يكون شركه شركًا أكبر مخرج من الملة، ومنهم من يكون شركه شركًا أصغر يحبط العمل الذي دخله. والفرق بينهما: أن صاحب الرياء الأكبر أصلًا لا يصلي ولا يصوم ولا يحج ولا يعتمر، وإن وقع منه هذا إلا من أجل الناس لا يريد الله، ولو كان وحده ما صلى ولا صام ولا حج ولا اعتمر، لكن لمصالح دنيوية ربما صلى وحج واعتمر وصام، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٥-١٦].

وأما النوع الثاني: وهو الشرك الأصغر، فيدخل الرجل في الصلاة لله عَزَّوَجَلَّ، ويتصدق ويحج لله، لكن إذا رأى الناس ينظرون إليه أظهر لهم ذلك وأحبه، فتدخل المشاركة في العبادة، فإن كانت العبادة متصلة ولم يحارب الرياء بطلت العبادة، وإن دافع الرياء فعبادته صحيحة، وإن كانت العبادة منفصلة بحيث صلى ركعتين لله عَزَّوَجَلَّ وراءى في ركعتين تبطل التي راءى فيها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢)، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ**»(٣). والرياء شأنه خطير، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١)، عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٣) متفق عليه، البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٦).

فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»(١).

وليس من الرياء أن المسلم يعمل العمل الصالح ثم يُشكر عليه، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»(٢)، وإنما يحبب الله المؤمن إلى المؤمنين، فيثنون عليه بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم:٩٦].

﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ أَيْ: ومع مراءتهم بالأعمال يمنعون الماعون وقد جاء أنه الزكاة الواجبة، وجاء في معناه أنه القدر، والمسحة، والملعقة، ومثل هذه العاريات التي تقع بين الناس، وذهب عكرمة إلى تفسير الماعون بالزكاة والقدر وما في بابه، وهو تفسير جمع بين الواجب والمستحب، فلا بأس به، وهو اختيار ابن كثير.

فتضمنت هذه الآية الإخبار عن أمرين، أَيْ: أن المكذبين الذين ضيعوا حق الله وحق الناس، **فقد أوجب الله عليك حقين:**

١- حق له، وهو إفراده بالعبادة.

٢- وحق لغيره، وهو الحقوق التي بين العباد: من حق الوالدين، والأرحام، والجيران، والفقراء، والمساكين، فينبغي لك أن تؤدي الحق الذي عليك لله عَزَّوَجَلَّ، والحق الذي عليك لغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ حتى يستقيم حالك الديني والدنيوي، والله المستعان.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٤٢).

مكية الجزء الثلاثون سورة الكوثر آياتها ٣

سُورَةُ الْكَوْثَرِ ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ وقد امتن الله عَزَّوَجَلَّ على نبيه الكريم وصفيه الأمين أنه أعطاه الكوثر، وهو الخير الكثير، ويدخل فيه الحوض العظيم الذي أخبر عنه النَّبِيُّ ﷺ في وصفه، فقَالَ: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلاَ يَظْمَأُ أَبَدًا**»(١)، يأتيه الناس بعد أن يخرجوا من قبورهم عطاشًا، فيُمنع منه الكافرون والمبتدعون، ويشرب منه المؤمنون فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ**»(٢)، وقال النَّبِيُّ ﷺ: «**وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ؟ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا**»(٣)، وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ، فَقَرَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾** [الكوثر:١-٣]». ثُمَّ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟**» فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي** عَزَّوَجَلَّ، **عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٤).

فالكوثر نهر في الجنة يمد منه الحوض الذي هو في عرصات القيامة، والحوض خاص بالنبي ﷺ مع أن العلماء قد اختلفوا في هذه المسألة إلى قولين، والصحيح الذي عليه التحقيق أن الحوض خاص بمحمد ﷺ؛ ولذلك تجد أن العلماء يقولون: صاحب الحوض والشفاعة، فيذكرونها له على سبيل الخصوصية.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) متفق عليه، البخاري (٦٥٧٥)، ومسلم (٢٢٩٧).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) أخرجه مسلم (٤٠٠).

وأما ما أخرجه الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً**»(١)، فهو حديث مرسل لا تقوم بمثله حجة، والله أعلم.

وقد أنكر الحوض بعض المبتدعة: كالخوارج، والرافضة، ومن إليهم، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ زِيَادٍ ، وَهُمْ يَتَذَاكَرُونَ الْحَوْضَ ، فَلَمَّا رَأَوْنِي طَلَعْتُ عَلَيْهِمْ ، قَالُوا: قَدْ جَاءَكُمْ أَنَسٌ فَقَالُوا: يَا أَنَسُ مَا تَقُولُ فِي الْحَوْضِ؟ فَقُلْتُ: «وَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ أَنِّي أَعِيشُ حَتَّى أَرَى أَمْثَالَكُمْ تَشُكُّونَ فِي الْحَوْضِ ، لَقَدْ تَرَكْتُ عَجَائِزَ بِالْمَدِينَةِ ، مَا تُصَلِّي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ صَلَاةً إِلَّا سَأَلَتْ رَبَّهَا عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُورِدَهَا حَوْضَ مُحَمَّدٍ ﷺ» قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَتَعَجَّبُ مِمَّنْ يَشُكُّ فِي الْحَوْضِ إِذْ كَانَ عِنْدَهُ أَنَّ الْحَوْضَ مِمَّا يُؤْمِنُ بِهِ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ حَتَّى إِنَّ الْعَجَائِزَ يَسْأَلْنَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَسْقِيَهُنَّ مِنْ حَوْضِهِ ﷺ فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْحَوْضِ، وَيُكَذِّبُ بِهِ، وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ التَّصْدِيقِ بِالْحَوْضِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ كِفَايَةٌ عَنِ الْإِكْثَارِ(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ هُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ، كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا، مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ**»(٣)، والمراد بهم: أهل التوحيد، والمتابعة للنبي ﷺ.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الحوض موجود الآن، قال النبي ﷺ: «**وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ**»(٤)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي**»(٥).

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أَيْ: شكرًا لله جَلَّجَلَالُهُ على هذه العطية، وهذه المنحة الرفيعة.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ والصلاة هي المعروفة بشروطها وأركانها، وقيل صلاة العيد، وقال: ﴿لِرَبِّكَ ﴾ ولم يقل: لله؛ ليبين أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أحاط به ورعاه، وحفظه من كل ما يؤذيه،

---

(١) برقم (٢٤٤٣).
(٢) «الشريعة للآجري» (٨٣٨).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٧).
(٤) متفق عليه، البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦)، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٥) متفق عليه، البخاري (١١٩٦)، ومسلم (١٣٩١).

فالرب هو الحافظ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو المستحق للعبادة.

﴿وَٱنْحَرْ﴾ أَيْ: تقرب إليه بأنواع النحر: كالهدي، والأضحية، والعقيقة، والوفاء بالنذور وغير ذلك، ويكون من بهيمة الأنعام، فلا يتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالنحر إلا بما كان من بهيمة الأنعام: البقر، والغنم، والإبل، وما سوى ذلك لا يصح لا في عقيقة، ولا هدي، ولا أضحية، حتى لو كان غزالًا أو أيلًا، أو غير ذلك مما أباح الله وأحل، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧].

ومن أعظم العبادات النحر؛ ولذلك قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ»(١)، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، فالذين ينحرون على عتبات القبور متقربين إلى أرباب تلك القبور مخالفين لهذه الآية؛ لأنهم ذبحوا ونحروا لغير الله، وكذلك السحرة الذين يذبحون ولا يسمون الله على ذبائحهم متقربين بها إلى الجن والشياطين، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة يُخلد صاحبه في نار جهنم إن مات عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة:٧٢]. ويدخل في ذلك الهجر، الذبيحة المشهورة في البلاد اليمنية التي يذبحونها للإصلاح بين الناس؛ ويسمونها بالهجر أو القصد فإن هذا دائر بين البدعة والشرك، فينبغي للناس أن يتقوا الله عَزَّوَجَلَّ، في اجتناب ما يسخط الله جَلَّجَلَالُهُ عليهم، وقيل النحر هو ضم اليدين إلى الصدر، والأول أولى.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أَيْ: إن مبغضك يا محمد ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، المقطوع، وقد جاء في سبب نزول هذه الآية حديث لا يثبت، أنهم قالوا فيه: محمد الأبتر، أَيْ: المقطوع، لا وارث له، ولا معين، فأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن الأبتر هو شانئ النبي ﷺ(٢).

وفي هذه السورة وعد ووعيد، فالمتمسك بالسنة غير مقطوع وإن قل ناصروه وكثر معادوه، والمخالف لسنة النبي ﷺ هو المقطوع كائنًا من كان، وإن كثر ماله وتابعوه، وعظم شأنه، فانظروا! من الذي عادى النبي ﷺ في أول البعثة؟ إنهم سادات قريش، وسادات العرب، ومحمد ﷺ كان يسمى عندهم: بالمذمم، وباليتيم، وغير ذلك من التسميات التي يتنقصونه بها، فقُطعوا جميعًا بالقتل، والهلكة، والعذاب المهين في الدنيا والآخرة، وسلم

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨)، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٠٤).

محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم حتى أتم الله لهم الدين، وأقام لهم الملة.

وهكذا في كل وقت وحين تجد أن متابعوا النبي ﷺ هم الواصلون إلى المراد، ومخالفوا النبي ﷺ هم المقطوعون المبتورون، فإياك واحتقار أهل الصلاح مهما كان الحال، وإنما الاحتقار يكون للمبتعد عن طريق الصلاح، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(١)، فكم من إنسان قبيح المنظر جميل المخبر، وكم من إنسان جميل المنظر قبيح المخبر، ولو كانت النظرة إلى الجمال لربما كان كثير من الكفار هم أصحاب العلو والرفعة، لكن النظرة إلى الإيمان.

وتأمل إلى ما وقع به ذلك المخذول عبد الله القصيمي، لما وقع في الردة قال: أيدخل الله عَزَّوَجَلَّ جميلات لبنان النار ويدخل عجائز نجد الجنة؟!!

لأنه نظر إلى الظاهر وترك ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به من شرط صلاح الظاهر والباطن.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

الجزء الثلاثون سورة الكافرون

مكية — آياتها ٦

سورة الكافرون ، سُورَةٌ مَكيَّةٌ، هذه السورة العظيمة تسمى بسورة الإخلاص لما فيها من الدعوة إلى إخلاص العبادة لله تعالى، والعبادة هي رحى الدين وأسه وأساسه، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْعِبَادَة: هِيَ اسْم جَامع لكل مَا يُحِبهُ الله ويرضاه من الْأَقْوَال والأعمال الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة. فَالصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام وَالْحج وَصدق الحَدِيث وَأَدَاء الْأَمَانَة وبرّ الْوَالِدين وصلَة الْأَرْحَام وَالْوَفَاء بالعهود وَالْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر وَالْجِهَاد للْكفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَان للْجَار واليتيم والمسكين وَابْن السَّبِيل والمملوك من الْآدَمِيّين والبهائم وَالدُّعَاء وَالذكر وَالْقِرَاءَة وأمثال ذَلِك من الْعِبَادَة.

وَكَذَلِكَ حب الله وَرَسُوله وخشية الله والإنابة إِلَيْهِ وإخلاص الدَّين لَهُ وَالصَّبْر لحكمه وَالشُّكْر لنعمه وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ والتوكل عَلَيْهِ والرجاء لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْف من عَذَابه وأمثال ذَلِك هِيَ من الْعِبَادَة لله. وَذَلِكَ أَن الْعِبَادَة لله هِيَ الْغَايَة المحبوبة لَهُ والمرضية لَهُ الَّتِي خَلق الْخلق لَهَا كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وَبهَا أرسل جَمِيع الرُّسُل، كَمَا قَالَ نوح لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]. وَكَذَلِكَ قَالَ هود، وَصَالح، وَشُعَيْب، وَغَيرهم لقومهم.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النَّحْل:٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء:٩٢]، كَمَا قَالَ فِي الْآيَة الْأُخْرَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون:٥٢]، وَجعل ذَلِك لَازِما لرَسُوله إِلَى الْمَوْت كَمَا قَالَ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر:٩٩][(١)]. اهـ.

---

(١) «العبودية» (٤٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يقول الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه ﷺ: قل يا محمد ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، دعاهم بحرف النداء للبعيد لأنهم بعيدون عن الإسلام وعن الاستقامة وعن الخير، وذكر العلماء في سبب ذلك أحاديث وأثار منها ما أخرجه الطبري، قال: حدثني مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الْحَرَشِيُّ، قَالَ: ثنا أَبُو خَلَفٍ، قَالَ: ثنا دَاوُدُ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «إِنَّ قُرَيْشًا وَعَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعْطُوهُ مَالًا، فَيَكُونَ أَغْنَى رَجُلٍ بِمَكَّةَ، وَيُزَوِّجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ، وَيَطَئُوا عَقِبَهُ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا لَكَ عِنْدَنَا يَا مُحَمَّدُ، وَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا، فَلَا تَذْكُرْهَا بِسُوءٍ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً، فَهِيَ لَكَ وَلَنَا فِيهَا صَلَاحٌ. قَالَ: «**مَا هِيَ؟**» قَالُوا: تَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً: اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً، قَالَ: «**حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَأْتِي مِنْ عِنْدِ رَبِّي**» فَجَاءَ الْوَحْيُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون:١] السُّورَةُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر:٦٤] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر:٦٦]»[1]. وهذا حديث ضعيف لا يثبت في سنده مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الْحَرَشِيُّ وأَبُو خَلَفٍ وكلاهما ضعيف.

قوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فيه البراءة من الشرك وأهله قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿الْمُنَٰفِقُونَ وَالْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ هُمُ

(١) «جامع البيان» (٢٤/٧٠٣).

﴿ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة:٦٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة:١].

فالنبي ﷺ يقول للكافرين: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي الذي تعبدونه من الأصنام والأوثان؛ لأنكم تعبدون الباطل تعبدون الأحجار والأشجار وتفعلون الظلم العظيم الذي لا يغفره الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَقَوْلُهُ: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ [الكافرون:٣]، يَقْتَضِي تَنْزِيهَهُ عَنْ كُلِّ مَوْصُوفٍ بِأَنَّهُ مَعْبُودُهُمْ. لِأَنَّ كُلَّ مَا عَبَدَهُ الْكَافِرُ وَجَبَتْ الْبَرَاءَةُ مِنْهُ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ كَافِرًا لَا يَكُونُ مَعْبُودُهُ الْإِلَهَ الَّذِي يَعْبُدُهُ الْمُؤْمِنُ. إذْ لَوْ كَانَ هُوَ مَعْبُودَهُ لَكَانَ مُؤْمِنًا لَا كَافِرًا. وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ أُمُورًا:

أَحَدُهَا: أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ بَرَاءَتَهُ مِنْ أَعْيَانِ مَنْ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

الثَّانِي: أَنَّهُمْ إذَا عَبَدُوا اللَّهَ وَغَيْرَهُ فَمَعْبُودُهُمْ الْمَجْمُوعُ وَهُوَ لَا يَعْبُدُ الْمَجْمُوعَ لَا يَعْبُدُ إلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ. فَيَعْبُدُهُ عَلَى وَجْهِ إخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ لَا عَلَى وَجْهِ الشِّرْكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ.

وَبِهَذَا يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِ الْخَلِيلِ: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف:٢٧]، وَقَوْلُهُ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء:٧٥-٧٧]، بِأَنْ يُقَالَ: هُنَا نَفْيُ عِبَادَةِ الْمَجْمُوعِ وَذَلِكَ لَا يَنْفِي عِبَادَةَ الْوَاحِدِ الَّذِي هُوَ اللَّهُ. وَالْخَلِيلُ تَبَرَّأَ مِنْ الْمَجْمُوعِ وَذَلِكَ يَقْتَضِي الْبَرَاءَةَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ فَاسْتَثْنَى. أَوْ يُقَالُ: الْخَلِيلُ تَبَرَّأَ مِنْ جَمِيعِ الْمَعْبُودِينَ مِنْ الْجَمِيعِ فَوَجَبَ أَنْ يُسْتَثْنَى رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَلِهَذَا لَمَّا وَقَعَ مُسْتَثْنًى فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤]، لَمْ يَحْتَجْ إلَى اسْتِثْنَاءٍ آخَرَ. وَأَمَّا هَذِهِ السُّورَةُ فَإِنَّ فِيهَا التَّبَرِّي مِنْ عِبَادَةِ مَا يَعْبُدُونَ لَا مِنْ نَفْسِ مَا يَعْبُدُونَ. وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ وَمِمَّا يَعْبُدُونَ. فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ بَاطِلٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ اللَّهُ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ كُلُّهُ لِلَّذِي أَشْرَكَ**». فَعِبَادَةُ الْمُشْرِكِ كُلُّهَا بَاطِلَةٌ لَا يُقَالُ: نَصِيبُ اللَّهِ

مِنْهَا حَقٌّ وَالْبَاقِي بَاطِلٌ بِخِلَافِ مَعْبُودِهِمْ. فَإِنَّ اللَّهَ إِلَهٌ حَقٌّ وَمَا سِوَاهُ آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ. فَلَمَّا تَبَرَّأَ الْخَلِيلُ مِنْ الْمَعْبُودِينَ احْتَاجَ إلَى اسْتِثْنَاءِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَمَّا كَانَ فِي هَذِهِ تَبَرُّؤُهُ مِنْ أَنْ يَعْبُدَ مَا يَعْبُدُونَ فَكَانَ الْمَنْفِيُّ هُوَ الْعِبَادَةَ تَبَرَّأَ مِنْ عِبَادَةِ الْمَجْمُوعِ الَّذِينَ يَعْبُدُهُمْ الْكَافِرُونَ.

الثَّالِثُ: إنْ كَانَ النَّفْيُ عَنْ الْمَوْصُوفِ بِأَنَّهُ مَعْبُودُهُمْ لَا عَنْ عَيْنِهِ فَهُوَ لَا يَعْبُدُ شَيْئًا مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُمْ. لِأَنَّهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُمْ هُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ فَوَجَبَتْ الْبَرَاءَةُ مِنْ عِبَادَتِهِ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ. وَلَوْ قَالَ: «مَنْ تَعْبُدُونَ» لَكَانَ يُقَالُ: «إلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ» لِأَنَّ النَّفْيَ وَاقِعٌ عَلَى عَيْنِ الْمَعْبُودِ. وَلَيْسَ إذَا لَمْ يَعْبُدْ مَا يَعْبُدُونَ مُتَبَرِّئًا مِنْهُ وَمُعَادِيًا لَهُ حَتَّى يَحْتَاجَ إلَى الِاسْتِثْنَاءِ. بَلْ هُوَ تَارِكٌ لِعِبَادَةِ مَا يَعْبُدُونَ. وَهَذَا يَتَبَيَّنُ.

بِالْوَجْهِ الرَّابِعِ: وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون:٣]، نَفَى عَنْهُمْ عِبَادَةَ مَعْبُودِهِ. فَهُمْ إذَا عَبَدُوا اللَّهَ مُشْرِكِينَ بِهِ لَمْ يَكُونُوا عَابِدِينَ مَعْبُودَهُ. وَكَذَلِكَ هُوَ إذَا عَبَدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا مَعْبُودَهُمْ.

الْوَجْهُ الْخَامِسُ: أَنَّهُمْ لَوْ عَيَّنُوا اللَّهَ بِمَا لَيْسَ هُوَ اللَّهُ وَقَصَدُوا عِبَادَةَ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ أَنَّ هَذَا هُوَ اللَّهُ كَالَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ وَالَّذِينَ عَبَدُوا الْمَسِيحَ وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ الدَّجَّالَ وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَهَوَاهُمْ وَمَنْ عَبَدَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَهُمْ عِنْدَ نُفُوسِهِمْ إنَّمَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ لَكِنَّ هَذَا الْمَعْبُودَ الَّذِي لَهُمْ لَيْسَ هُوَ اللَّهَ. فَإِذَا قَالَ ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون:٢] كَانَ مُتَبَرِّئًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَعْبُودِينَ وَإِنْ كَانَ مَقْصُودُ الْعَابِدِينَ هُوَ اللَّهُ.

الْوَجْهُ السَّادِسُ: أَنَّهُمْ إذَا وَصَفُوا اللَّهَ بِمَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ كَالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ وَأَنَّهُ فَقِيرٌ أَوْ بَخِيلٌ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ وَعَبَدُوهُ كَذَلِكَ. فَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ الْمَعْبُودِ الَّذِي لِهَؤُلَاءِ. فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ اللَّهَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**أَلَّا تَرَوْنَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي سَبَّ قُرَيْشٍ؟ يَسُبُّونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ**». فَهُمْ وَإِنْ قَصَدُوا عَيْنَهُ لَكِنْ لَمَّا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ مُذَمَّمٌ كَانَ سَبُّهُمْ وَاقِعًا عَلَى مَنْ هُوَ مُذَمَّمٌ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ. وَذَاكَ لَيْسَ هُوَ اللَّهَ. فَالْمُؤْمِنُونَ بُرَآءُ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ.

الْوَجْهُ السَّابِعُ: أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا وَصَفَ بِهِ الرَّسُولُ رَبَّهُ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَعْبُدْ مَا عَبَدَهُ الرَّسُولُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ. وَقِسْ عَلَى هَذَا فَلْتَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْمَعَانِيَ وَتُلَخِّصْ وَتُهَذِّبْ وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ[1]. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ثم أخبر عنهم بقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ لإلهي الذي أعبد، ما دمتم على شرككم فأنا أعبد الله الواحد القهار وأنتم تعبدون

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٩٨).

المخلوقات المربوبات. وقد قال العلماء: كيف هذا؟ وبعضهم قد أسلم بعد ذلك فيقال: لعله أراد ذلك الحين، وقال بعضهم أيضًا: لعله أراد من لم يسلم منهم، المهم أن هذه الآية فيها وجوب إخلاص العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمعناه ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ أنا ومن معي من الموحدين ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: الذي أنتم تعبدونه من باطلكم وألهتكم التي تضاهئون بها الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي: وفي هذا الحال الذي أنتم عليه ومن كان منكم سيموت على الكفر لم يقع منه إفراد العبادة لله تعالى وإنما وقع منهم نقيض ذلك وهو الشرك الذي لا يغفره الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة:٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف:٤٠-٤١]، وقال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ فيه توكيد أنه ﷺ هو ومن معه على الإخلاص والتوحيد وافراد الله عَزَّوَجَلَّ بما يجب له في هذا الباب من دعاء ونذر وخوف ورجاء وتوكل وإنابة على ما تقدم بيانه، وفيه بيان لما عليه أهل الحق من سلوك سبل الثبات على دين الله تعالى، وعدم التأثر بالمغريات والتزحزح عن الكتاب والسنة مهما عظمت الخطوب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ على ما تقدم وأنه لا يمكن الجمع بين الحق والباطل والهدى والضلال.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ أي لكم باطلكم الذي أنتم فيه ولي الحق الذي أدعو إليه وأنصره والذي ابتليت من أجله ولكم دينكم الباطل الذي ارتضيتموه.

وهذه الآية العظيمة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾، فيها البراءة من دين الكفار من اليهود والنصارى والمشركين؛ لكن العجب أن دعاة حوار الأديان ووحدته قد اتخذوها شبهة لهم فأصبحوا يمجدون الباطل ويرضون بالباطل وإذا ما أنكرت عليهم قالوا: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾، على أن هذا إقرار من النبي ﷺ لهم، وهذا غير صحيح وقد أجيب عنه بوجهين:

الوجه الأول: أن هذه الآية منسوخة بآية السيف وهي قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة:٢٩].

والوجه الثاني: أن الآية ليس فيها تقرير وإنما هي مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف:٢٩].

فقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف:٢٩]، ليس فيه إباحة الكفر؟ ولكن فيه أن الله عَزَّوَجَلَّ بين طريق الحق والهدى وبين طريق الباطل والردى فمن استجاب فله الجنة ومن أعرض فله النار كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان:٤].

فقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾، ليس فيها شبهة لا للقرضاوي ومن إليه من دعاة الحوار والتقارب مع اليهود والنصارى وإنما فيها البراءة والتهديد من الله عَزَّوَجَلَّ كقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ﴾ [فصلت:٤٠]، فليس فيه إباحة الزور والفجور والكفر والعصيان، فينبغي للمسلم إذا أراد أن يتعلم دينه أن يرجع إلى تفسير السلف وطريقتهم وفهمهم للقرآن والسنة.

ثم إن أحسن الطرق لتفسير القرآن:

١- تفسير القرآن بالقرآن.

٢- تفسير القرآن بالسنة.

٣- تفسير القرآن بآثار الصحابة والسلف رضوان الله عليهم.

٤- تفسير القرآن باللغة العربية التي لم تحرف وتولد.

أما أن يفسر القرآن بما يسمون بـ(التفسير العصري) فهذا والعياذ بالله من الباطل الذي يؤدي إلى زحزحة الأقوال والمعاني الشرعية التي نزل بها القرآن وإلى الأخذ بالفجور والباطل الذي يستخدمه المشركون ومن إليهم من العقلانيين والمبطلين. نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ونسأله السداد في القول والعمل.

والحمد لله رب العالمين.

مدنية الجزء الثلاثون سورة النصر آياتها ٣

سُورَةُ النَّصْرِ ، سُورَةٌ مَدَنِيَّةٌ، وقيل بأنها آخر ما أنزل من القرآن، وهي أجلُ النبي ﷺ، أعلمه الله إياه كما في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر:١-٢]؟ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ، وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَتْحُ مَكَّةَ فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:٣]، قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ(١).

فأمره الله عَزَّوَجَلَّ بكثرة الاستغفار والتوبة قبل موته، وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون مستغفرًا تائبًا آيبًا لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لا يدري متى يوافيه الأجل.

وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ بعد أن أنزلت عليه هذه السورة يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ(٢)، وغير ذلك من الأدعية تأولًا لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ﴾ [النصر:٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ أَيْ: فتح مكة، وفتح اليمن كما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] إِلَى

(١) أخرجه البخاري (٤٢٩٤).
(٢) متفق عليه، البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

آخِرِ السُّورَةِ، قَالَ: نُعِيَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ نَفْسُهُ حِينَ أُنْزِلَتْ، فَأَخَذَ فِي أَشَدِّ مَا كَانَ اجْتِهَادًا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ: «**جَاءَ الْفَتْحُ، وَجَاءَ نَصْرُ اللهِ، وَجَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ**»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا أَهْلُ الْيَمَنِ؟، قَالَ: «**قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ، لَيِّنَةٌ قُلُوبُهُمُ، الْإِيمَانُ يَمَانٌ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، وَالْفِقْهُ يَمَانٌ**»(١)، ففتح الله عَزَّوَجَلَّ على المسلمين حين دخل اليمنيون في دين الله أفواجًا بغير قتال، وإنما كانت دعوة النبي ﷺ بإرسال الرسل والبعوث، فأرسل أبا عبيدة بن الجراح إلى نجران، وأرسل معاذ بن جبل إلى الجند، وأرسل أبا موسى الأشعري إلى زبيد وما إليها، ثم أرسل علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وولاه جهة نجران وما إليها، وقد جاء إلى النبي ﷺ في حجة الوداع بشيء من النعم والهدي، وأرسل إلى النبي ﷺ بتربة مذهبة.

والفتح فتحان:

❖ **الأول: هو صلح الحديبية**، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح:١]؛ لأن قريشًا اعترفوا بالنبي ﷺ وصالحوه، وإن كانت شروطهم مجحفة، إلا أنها في الأصل دليل على ضعفهم وهزيمتهم، ورضوخهم للأمر الواقع، وهو وجود القوة المسلمة والاعتراف بهم، وكان هذا الفتح في السنة السادسة من الهجرة.

❖ **الفتح الثاني: فتح مكة**، وكان في السنة الثامنة من الهجرة.

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أَيْ: يكثر دخولهم، فكان في أول الإسلام يسلم الواحد، وربما جاء الاثنان وفي وضع سري، ثم بعد ذلك بدأوا يظهرون، ثم بعد ذلك كانت تدخل القبائل في دين الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا نصر عظيم للإسلام، وهكذا كل ما لم يرد به الله إلى نقص وزوال، وقد قال أبو البقاء الرندي:

لِكُلِّ شَيءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ ❁❁❁ فَلَا يُغَرَّ بِطِيْبِ العَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُوَلٌ ❁❁❁ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ ❁❁❁ وَلا يَدُومُ عَلى حالٍ لَهَا شَانُ

﴿فَسَبِّحْ﴾ أَيْ: أكثر من التسبيح، وهو تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن كل نقيصة وعيب ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أَيْ: بذكر المحامد التي يتصف الله عَزَّوَجَلَّ بها، والله موصوف بكل كمال، فعند أن تقول: سُبْحَانَ اللَّهِ، أنت تنزه الله عن كل نقيصة، وتثبت له كل كمال، وعند أن تقول:

---

(١) أخرجه النسائي (١١٦٤٨).

الحَمْدُ لِلَّهِ، أنت تثبت لله عَزَّوَجَلَّ كل كمال، وتنفي عنه كل نقيصة.

﴿رَبِّكَ﴾ أَيْ: الذي يرزقك ويحفظك ويكلؤك ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾ من ذنوبك وسيئاتك. وإذا كان النبي ﷺ قد أمر بالاستغفار مع أن الله عَزَّوَجَلَّ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فمن باب أولى غيره الذين تكاثرت ذنوبهم وخطاياهم، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ**» مِائَةَ وعَنِ الْأَغَرِّ بْنِ يَسَارٍ الْمُزَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ، فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ، مَرَّةٍ**»(٢)، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا**»(٣)، **والاستغفار يكون من ثلاثة أشياء:**

الأول: من التقصير في المأمور، فإن كثيرًا من الناس يأتي بالمأمور لا على الوجه المطلوب، ولذلك يحتاج أن يستغفر، وقد أمر الله وشرع الاستغفار بعد الصلاة، وبعد الحج، وفي المجلس، إلى غير ذلك مما هو ثابت عن النبي ﷺ، فعن ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وَقَالَ: «**اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**»(٤).

الثاني: الاستغفار من ارتكاب المحظور الذي نهى الله عنه بالتوبة والإنابة، لحديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(٥).

الثالث: الاستغفار من عدم الصبر على المقدور، فنحن مأمورون بالاستغفار، والصبر، وقد بعث الله أنبيائه بالاستغفار، قال نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وقال تعالى عن هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٤٧٢٦)، وأبو داود (١٥١٦)، وابن ماجه (٣٨١٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٨١٨).
(٤) أخرجه مسلم (٥٩١).
(٥) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ أَيْ: استغفروا الله فهو يقبل توبة التائبين ويجازيهم بمغفرة سيئاتهم، بل وبتبديلها حسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان:٧٠-٧١]، فمن أسماء الله التواب، الذي يتوب على عباده، ويقبل التوبة منهم، كما قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٣].

والتوبة واجبة من جميع الذنوب بشروطها المعروفة:

أولا: توبة العبد فيما بينه وبين الله: وشروطها خمسة:

- الأول: الإخلاص.
- الثاني: أن تكون في زمن يقبل فيه التوبة، فتكون قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها.
- الثالث: الإقلاع عن الذنب.
- الرابع: الندم على فعل الذنب.
- الخامس: العزم على عدم العود إلى الذنب.

ثانيا: توبة العبد في حقوق الآدميين: ويزاد إلى الشروط الخمسة التحلل من الذنب على تفصيل يذكره أهل العلم.

ثالثا: توبة الكافر: تكون بالدخول في الإسلام، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال:٣٨].

رابعا: توبة المنافق: وتكون بالشروط الخمسة مع ما تضمنه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء:١٤٦].

خامسا: توبة المبتدع: وتكون بالشروط الخمسة مع ما تضمنه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة:١٦٠].

والتوب: هو الرجوع إلى الله، والله أعلم.

وقد تكلمت على شروط التوبة في رسالة خاصة.

والحمد لله رب العالمين.

مكية الجزء الثلاثون سورة المسد آياتها ٥

سورة المسد، سورةٌ مكيّةٌ، نزلت في شأن أبي لهبٍ لعنه الله، على ما يأتي بيانه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أَيْ: هلكت ولحقتها الخسارة، وفي قراءة الأعمش: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وقد وَتَبَّ﴾ أَيْ: تحقق له هذا الهلاك في الدنيا والآخرة، وأبو لهب هو عبد العزى بن عبدالمطلب، عم النبي ﷺ، وسمي بأبي لهب؛ لجمال وجهه وصباحته، وكان يؤذي النبي ﷺ، فعَنْ طَارِقِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُحَارِبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ، وَأَنَا فِي بِيَاعَةٍ لِي هَكَذَا، قَالَ: أَبِيعُهَا، فَمَرَّ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا**» وَرَجُلٌ يَتْبَعُهُ بِالْحِجَارَةِ قَدْ أَدْمَى كَعْبَيْهِ وَعُرْقُوبَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا غُلَامُ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ؟ قَالُوا: هَذَا عَمُّهُ عَبْدُ الْعُزَّى، وَهُوَ أَبُو لَهَبٍ[(١)]. ولشدة عداوته للنبي ﷺ لم تنفع قرابته ولم يدخل في دين، بل كان مناصرًا للكفار من غير عشيرته على النبي ﷺ، فأخبر الله أنه هالك وخاسر.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ ما دفع عنه ماله شيئًا مما يلحقه من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿وَمَا كَسَبَ﴾ من الجاه ونحوه أو من التجارة، كلها لم تغن عنه شيئًا، فإذا كان الإنسان على غير الإسلام، ولم ينتفع بشيء من عمله، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ليست بجاه ولا بمال، إلا إذا كان الجاه والمال في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وهذا يوم القيامة، وفي القبر حيث يشمله هذا الحكم.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ أَيْ: تحيط به نار ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ يخرج منها اللهب، وقد تقدم شيء من أوصاف النار.

(١) أخرجه الدارقطني (٢٩٧٦)، والحديث في «الصحيح المسند» (١/ ٢٧٩) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وسبحان الله كأن الله جازاه بوصفه الذي في الدنيا، لما كان وجهه وضيئًا وسمي بأبي لهب؛ لجمال وجهه، وأبى أن يستخدم هذا الجمال في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ عذبه الله بنار تلهب.

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ وهي أم جميل أَرْوَى بنتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ، ﴿ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾ قيل: بأنها كانت تحمل الحطب فتضعه على باب النبي ﷺ، فكان عذابها في النار أنها تحمل الحطب وتوقد به على أبي لهب، فكلهم يعذب في النار، أسأل الله السلامة.

﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ أَيْ: في عنقها، قال الثَّوْرِيِّ: هُوَ قِلَادَةٌ مِنْ نَارٍ، طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا[١].

﴿ حَبۡلٌ ﴾ معروف ﴿ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ من ليف، وهو محروق، فتُعذب بهذا الحبل وتُعذب بالنار.

واحتج العلماء بهذه السورة على جواز جرح أهل البدع والريب، واحتجوا بها على أن النسب لا يفيد صاحبه شيئًا إن لم يكن موحدًا مؤمنًا، والنبي ﷺ يقول: «**لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**»[٢]، ويقول ﷺ: «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[٣].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: وفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، وَإِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُو الْمُؤْمِنِينَ**» يُشِيرُ إِلَى أَنَّ وِلَايَتَهُ لَا تُنَالُ بِالنَّسَبِ وَإِنْ قَرُبَ، وَإِنَّمَا تُنَالُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَمَنْ كَانَ أَكْمَلَ إِيمَانًا وَعَمَلًا، فَهُوَ أَعْظَمُ وِلَايَةً لَهُ، سَوَاءٌ كَانَ لَهُ مِنْهُ نَسَبٌ قَرِيبٌ، أَوْ لَمْ يَكُنْ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ بَعْضُهُمْ:

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا بِدِينِهِ ❁❁❁ فَلَا تَتْرُكِ التَّقْوَى اتِّكَالًا عَلَى النَّسَبِ

لَقَدْ رَفَعَ الْإِسْلَامُ سَلْمَانَ فَارِسٍ ❁❁❁ وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ الشَّقِيَّ أَبَا لَهَبِ. اهـ.

وقد مات أبو لهب على الكفر، وهذا من دلائل نبوة النبي ﷺ إذ أخبر الناس بهذه السورة، ثم كان مآل أبي لهب إلى ما فيها، والله المستعان. وكان بعض أبنائه زوجًا لابنة النبي ﷺ، فطلقها حين بُعث النبي ﷺ بالرسالة، وبعضهم أسلم وحسن إسلامه.

وكان سبب نزول هذه السورة ما جاء في «الصحيحين»، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ

---

(١) «تفسير بن كثير» (٨/٥١٦).

(٢) متفق عليه، البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ومسلم (٢٦٩٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) «جامع العلوم والحكم» (٢/٣١٠).

يُنَادِي: «**يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ**» - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ، وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد: ١-٢][1].

والحمد لله رب العالمين.

(١) متفق عليه، البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

مكية الجزء الثلاثون سورة الإخلاص آياتها ٤

سُورَةُ الإِخْلَاصِ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ.

وهي السورة التي أخبر النبي ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»(١).

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟**» قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١] **تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»(٢). وفي لفظ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ جَزَّأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، فَجَعَلَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾** [الإخلاص:١] **جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ**».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»، فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أُرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»(٣).

وهي صفة الرحمن، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١]، فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**» فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا **صِفَةُ الرَّحْمَنِ**، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**»(٤)، وفيه غير ذلك من الفضائل على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

وقد شُرعت قراءتها في ركعتي الطواف، ففي حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل في الحج قال: ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَرَأَ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٣).
(٢) أخرجه مسلم (٨١١).
(٣) أخرجه مسلم (٨١٢).
(٤) متفق عليه، البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

[البقرة:١٢٥] فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَكَانَ أَبِي يَقُولُ - وَلَا أَعْلَمُهُ ذَكَرَهُ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ -: كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١] وَ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١](١).

وفي الوتر، فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُوتِرُ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ، يَقْرَأُ فِي الْأُولَى بِ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]، وَفِي الثَّانِيَةِ بِ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]، وَفِي الثَّالِثَةِ بِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١]، وَيَقْنُتُ قَبْلَ الرُّكُوعِ، فَإِذَا فَرَغَ قَالَ عِنْدَ فَرَاغِهِ: «**سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ**»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يُطِيلُ فِي آخِرِهِنَّ(٢).

وفي ركعتي الفجر مع سورة الإخلاص الأخرى، وهي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١](٣).

وعند الترمذي عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: رَمَقْتُ النَّبِيَّ ﷺ شَهْرًا، فَكَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ بِ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١](٤). وَفِي الْبَابِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَنَسٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَحَفْصَةَ، وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وجاء أنها تُقرأ في صلاة المغرب، كما عند ابن ماجه: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١](٥)؛ لكن الحديث أعله بعض أهل العلم، والمحفوظ أنها في ركعتي المغرب، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: رَمَقْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ، أَوْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً، «يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ، وَالرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١]»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٢) أخرجه النسائي (١٤٣٦) واللفظ له، وأبو داود (١٤٣٠)، وغيرهما.
(٣) أخرجه مسلم (٧٢٦).
(٤) برقم (٤١٧).
(٥) برقم (٨٣٣).
(٦) أخرجه أحمد (٥٧٤٢).

وجاء عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: مَا أُحْصِي مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ وَفِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلاةِ الفَجْرِ بِـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾ [الكافرون:١]، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص:١][1]؛ لكن في سنده عبد الملك بن الوليد بن معدان الضبعي البصري، وقد ينسب إلى جده، قال البخاري: فيه نظر.

وفي «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان»[2]: من طريق سَعِيدُ بْنُ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: وَلا أَعْلَمُ إلا عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْمَغرب لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾ [الكافرون:١]، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص:١]، وَيَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ الآخِرَةِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، الْجُمُعَةَ وَالْمُنَافِقِينَ. وسَعِيدُ بْنُ سِمَاكِ متروك.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص:١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ١﴾ [الفلق:١] وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾ [الناس:١]، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ٤﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ٤﴾ [الإخلاص:١-٤]، والمتبادر كأن هذا إجابة سؤال كما رُوي في بعض المراسيل كما ذكر ذلك الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره في تفسير هذه السورة، وقيل: بأن السؤال كان من اليهود ولم أرَ ما يثبت سندًا في القولين، والله تعالى أعلم.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ هذا أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء السائلين، أو مخبرًا عن صفة الرحمن ما يأتي إن شاء الله تعالى، ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ أي: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَهُ عِبَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ،

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٣١).
(٢) برقم (٥٥٢).
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٧١).

لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، وَلَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ سِوَاهُ(١).

والله لفظ الجلالة علم على الذات العلية، وهو أعرف المعارف وهو الاسم الأعظم على الصحيح من أقوال أهل العلم إذ عليه جميع مدار الأسماء الحسنى فهي تابعة له ووصف له تعالى وتعاظم وتقدس، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

قوله تعالى: ﴿أَحَدٌ﴾ أي بمعنى واحد وقد تكرر اقترانه بالقهار في ست مواطن من القرآن قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد:١٦]، واسم (الأَحَد) فيه إثبات توحيد الربوبية لله عَزَّوَجَلَّ ويتضمن هذا الاسم وصفه تعالى بالأحدية التي تدل على تفرده تعالى بالخلق، والملك، والتدبير، ويلزم من ذلك إفراد الله تعالى بالعباد. وأما اسم الفرد لم أره ثابتًا لله تعالى بسندٍ صحيح ويغني عنه هذا الاسم، ولفظ الجلالة (اللَّهُ) يتضمن اثبات الألوهية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فدلت هذه الآية بهذين الاسمين على اثبات ما يدعوا إليه أهل السنة والجماعة ويطرقونه ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهارًا، وفي خطبهم وفي مؤلفاتهم وهو: أن توحيد الله عَزَّوَجَلَّ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- **توحيد الربوبية:** وهو افراد الله عَزَّوَجَلَّ بالخلق والملك والتدبير، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾ [الزمر:٦٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك:١].

٢- **وتوحيد الألوهية:** وهو افراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة وافراده بأفعال المكلفين، وهو صرف كل ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ ويرضاه له ويتقرب به إليه، وبه أرسلت الرسل وأنزلت الكتب قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة:٥]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء:٦٤] وقال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [النساء:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ

(١) «تفسير الطبري» (٢٤/٧٢٩).

ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]، إلى غير ذلك من الأدلة.

٣- توحيد الأسماء والصفات: وهو افراد الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته، وأن الله عَزَّوَجَلَّ له الأسماء الحسنى التي من حسنها أنها أسماء مدح لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أنها تتضمن صفات مدح وكمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أنها أسماء ثبتت في القرآن والسنة، ومن حسنها أن الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا أن ندعوه بها قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠].

وضابط هذا الباب أن الله تعالى موصوف بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكيف ولا تمثيل.

أنواع الصفات: ثم إن الصفات من حيث هي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وهذه ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ مثل السمع والبصر والقوة والقدرة فهو المتصف بالكمال المطلق، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ [لقمان:٢٦]، وهو ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٢- صفات نقصٍ لا كمال فيها بوجه من الوجوه، وهذه يجب أن ينزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنها كالصمم والبكم والظلم ونحوه.

٣- وصفات كمال من وجه ونقص من وجه، وهذه تثبت لله عَزَّوَجَلَّ في حال كمالها ومن أمثلتها صفات المقابلة؛ مثل الكيد والمكر فالله عَزَّوَجَلَّ يكيد بالكائدين ويمكر بالماكرين ويستهزأ بالمستهزئين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق:١٥-١٦]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠]، وهكذا.

فالله عَزَّوَجَلَّ واحدٌ أحدٌ، كما قال عن نفسه، ولا معين له ولا ظهير، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ:٢٢]، فيجب أن يفرد بالدعاء والرجاء والتوكل والخشية ويفرد بالإنابة والخوف وغير ذلك من العبادات سواء العبادات القلبية أو القولية أو البدنية أو المالية، فالعبادة حقه تعالى لا يجوز أن تصرف لغيره مهما علت منزلته وعظمت مرتبته فلا إله إلا هو الواحد القهار، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة:٤٠]. وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة:٢٣]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ [غافر:٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨]، إلى غير ذلك من الأدلة المتكاثرة في هذا الباب فقد قطع الله عَزَّوَجَلَّ عن المشركين كل شبهة ومتعلق في الأصنام والأوثان وغيرها من الطواغيت.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: هو الذي تصمد إليه الخلائق وقيل: هو المصمت الذي لا جوف له فلا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾ [الأنعام:١٤]، وهو السيد الذي كمل في سؤدده وكلها دالة على الكمال وكلها ثابتة لله تعالى، فهو الذي تصمد وتلجأ إليه الخلائق، وهو الذي لا جوف له، ومستغني عن عباده، وهو الكامل في سؤدده، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر:١٥-١٧].

وغناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذاتي لا ينفك عنه أزلًا وأبدًا ففي حديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»(١). وهذا لكمال غناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو على العرش، والعرش محتاج إليه، واستوى على العرش، والعرش تحمله ملائكة عظام، والملائكة يحتاجون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الغني الحميد،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٨].

وقيل الصمد: هو الذي لم يلد ولم يولد فيكون ذلك من تفسير القرآن بالقرآن. وقيل الباقي: الدائم بعد خلقه، وكل هذه الأقوال ذكرها ابن جرير في «تفسيره» وكثيرها لا يصح سندًا لكنها ثابتة المعنى في لغة العرب وبعضها تفسير للآية ببعض المعنى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: هُوَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. كَأَنَّهُ جَعَلَ مَا بَعْدَهُ تَفْسِيرًا لَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ [الإخلاص:٣]، وَهُوَ تَفْسِيرٌ جَيِّدٌ[١]. اهـ.

فالله عَزَّوَجَلَّ هو الصمد الذي تصمد إليه الخلائق لحوائجها فيقضيها ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحيي هذا، ويعطي هذا، ويشفي هذا، ويميت هذا، لا إله إلا هو الواحد القهار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ لَهُ، بَعْدَ إِيرَادِهِ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ فِي تَفْسِيرِ ﴿ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص:٢]: وَكُلُّ هَذِهِ صَحِيحَةٌ، وَهِيَ صِفَاتُ رَبِّنَا عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ الَّذِي يُصمَد إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ، وَهُوَ الَّذِي قَدِ انْتَهَى سُؤْدُدُهُ، وَهُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ، وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَهُوَ الْبَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ. وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ نَحْوَ ذَلِكَ أَيْضًا[٢]. اهـ.

وقال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: الصَّمَدُ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كمل في سُؤْدُدُهُ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ، وَالْغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي غِنَاهُ، وَالْجَبَّارُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي جَبَرُوتِهِ، وَالْعَالِمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفُوٌ، وليس كمثله شيء[٣]. اهـ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ لَفْظَ الْأَحَدِ لَمْ يُوصَفْ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَعْيَانِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ. وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ اللَّهِ فِي النَّفْيِ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ يَقُولُ: لَا أَحَدَ فِي الدَّارِ وَلَا تَقُلْ فِيهَا أَحَدٌ. وَلِهَذَا لَمْ يَجِئْ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي غَيْرِ الْمُوجَبِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة:٤٧]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب:٣٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة:٦]، وَفِي الْإِضَافَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَٱبْعَثُوٓا

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨/٥٢٨).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٨/٥٢٩).
(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/٣٤٧٤).

﴿أَحَدَكُم﴾ [الكهف:١٩]، ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف:٣٢].

وَأَمَّا اسْمُ ﴿الصَّمَدُ﴾ فَقَدْ اسْتَعْمَلَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِينَ. كَمَا تَقَدَّمَ. فَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ صَمَدٌ بَلْ قَالَ: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ؛ لِأَنْ يَكُونَ هُوَ الصَّمَدَ دُونَ مَا سِوَاهُ فَإِنَّهُ الْمُسْتَوْجِبُ لِغَايَتِهِ عَلَى الْكَمَالِ وَالْمَخْلُوقُ وَإِنْ كَانَ صَمَدًا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ؛ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الصَّمَدِيَّةِ مُنْتَفِيَةٌ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ التَّفَرُّقَ وَالتَّجْزِئَةَ وَهُوَ أَيْضًا مُحْتَاجٌ إلَى غَيْرِهِ فَإِنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ مُحْتَاجٌ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَلَيْسَ أَحَدٌ. يَصْمُدُ إلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا يَصْمُدُ هُوَ إلَى شَيْءٍ إلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ إلَّا مَا يَقْبَلُ أَنْ يَتَجَزَّأَ وَيَتَفَرَّقَ وَيَتَقَسَّمَ وَيَنْفَصِلَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بَلْ حَقِيقَةُ الصَّمَدِيَّةِ وَكَمَالِهَا لَهُ وَحْدَهُ وَاجِبَةٌ لَازِمَةٌ لَا يُمْكِنُ عَدَمُ صَمَدِيَّتِهِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ؛ كَمَا لَا يُمْكِنُ تَثْنِيَةُ أَحَدِيَّتِهِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ فَهُوَ أَحَدٌ لَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ كَمَا قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:٤][(١)]. اهـ.

فبعد أن مدح نفسه ووصف نفسه بصفات الجلال والعظمة والكبرياء، وبصفة الأحدية، والصمدية، وبصفة الألوهية، وهذه الثلاثة الأسماء العظيمة قد جمعها حديث مِحْجَن بْن الْأَدْرَعِ، قَالَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ قَضَى صَلَاتَهُ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الصَّمَدِ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «**قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ**» ثَلَاثَ مِرَارٍ[(٢)]، وكذا حديث بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**». فَقَالَ: «**قَدْ سَأَلَ اللَّهَ، بِاسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**»[(٣)].

ومدار بقية الأسماء على هذه الأسماء الثلاثة؛ لا سيما اسم الجلالة (الله) عَزَّوَجَلَّ، الذي لم يأتِ تابعًا وإنما يأتي متبوعًا، وما كان في قول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة إبراهيم: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١-٢]، فالعطف هنا عطف بيان لا أنه تابع ثم إنه قد قُرأ برفع لفظ الجلالة.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/٢٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٩٧٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩٦٥).

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ قد تقدم أنه تفسير للصمد في قول بعض أهل العلم.

وفي هذا رد على النصارى ومن إليهم ممن يزعم أن الله عَزَّوَجَلَّ له ولد، ثم بين الله عَزَّوَجَلَّ في هذه السورة أنه لم يلد لكمال حياته ولكمال قيوميته، ولم يولد لأنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، ونفي الصاحبة والولد عن الله تعالى في القرآن كثير وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، وَقَالَ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]، وَقَالَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان:١-٢]، وَقَالَ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦﴾ [الأنبياء:٢٦]، وهذا القول مسبة لله تعالى، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كَمَا بَدَأْتُهُ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص:٤]، كُفُوًا وَكَفِيئًا وَكِفَاءً وَاحِدٌ»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي لا مثيل له، ولا شبيه لا في أسماءه ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهذا لعموم كماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى:١١]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم:٦٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة:٢٢].

وفي هذه السورة من الفوائد العظيمة أن الأصل عند أهل السنة أنهم يصفون الله عَزَّوَجَلَّ بالإثبات المفصل فتقول: الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، العليم، السميع، البصير، وهكذا القول في صفاته.

بينما الأصل عند أهل السنة أنهم يُجملون في النفي يقولون ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤]، إلا أنه قد يأتي بالنفي المفصل لرد ما قاله المبطلون في حق الله تعالى مثل هذه الآية ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣]،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٧٥).

فهذا النفي المفصل لدفع ما ادعاه في حقه المبطلون من النصارى واليهود والمشركين الذين زعموا أن الملائكة أبناء وبنات الله، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

ويؤتى به لدفع توهم نقصٍ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨]، فإنه قد يظن من لم يقدر الله عَزَّوَجَلَّ حق قدره أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام وارتاح في يوم السبت كما يقوله اليهود عليهم لعائن الله، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨]، ويأتي بالنفي لبيان عموم الكمال كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات:١٨٠].

فكلمة «سُبْحَانَ اللَّهِ» فيها النفي المجمل وتتضمن نفي جميع النقائص عن الله عَزَّوَجَلَّ وتستلزم اثبات جميع المحامد لله عَزَّوَجَلَّ كما أن كلمة «الْحَمْدُ لِلَّهِ» تتضمن اثبات جميع الكمال لله عَزَّوَجَلَّ وتستلزم نفي جميع النقائص عن الله عَزَّوَجَلَّ ولهذا مدح نفسه عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢٠].

فهذه السورة عظيمة النفع عظيمة البركة فينبغي للإنسان أن يتعلم معانيها ويتلوها ويتقرب بها إلى ربه ويُعلم معانيها لغيره لما فيها من النفع العظيم.

والحمد لله رب العالمين.

مدنية الجزء الثلاثون سورة الفلق آياتها ٥

سُورَةُ الفَلَقِ ، قِيلَ: مَكِّيَّةٌ، والذي يظهر أنها مدنية وقد ذكره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

أنزل الله عَزَّوَجَلَّ على محمد ﷺ هاتين السورتين حين سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، وحديث السحر ثابت في «الصحيحين»، ولا مطعن في سنده، ولا في دلالته؛ وقد رده بعض العقلانين، ومن أشهر من رده محمد رشيد رضا المصري صاحب مجلة المنار، ورد عليه الشيخ مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكتاب في «ثبوت حديث السحر وبيان بعد محمد رشيد رضا عن السلفية»، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: «**أَشَعَرْتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا فِيهِ شِفَائِي؟، أَتَانِي رَجُلاَنِ: فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، قَالَ: فِيمَا ذَا، قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ، وَجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ، قَالَ فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ**» فَخَرَجَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ لِعَائِشَةَ حِينَ رَجَعَ: «**نَخْلُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**» فَقُلْتُ اسْتَخْرَجْتَهُ؟ فَقَالَ: «**لاَ، أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللَّهُ، وَخَشِيتُ أَنْ يُثِيرَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا**» ثُمَّ دُفِنَتِ البِئْرُ(٢).

وقد جاء من حديث عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اتَّبَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ رَاكِبٌ فَوَضَعْتُ، يَدِي عَلَى قَدَمِهِ، فَقُلْتُ: أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ سُورَةَ هُودٍ، وَسُورَةَ يُوسُفَ. فَقَالَ: «**لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَبْلَغَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾** [الفلق:١]، **وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾** [الناس:١]»(٣).

فهما سورتان عظيمتان صلى بهما النبي ﷺ في فجر وهو في سفر، كما جاء عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَقُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَاحِلَتَهُ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ: «**يَا عُقْبَةُ أَلَا أُعَلِّمُكَ خَيْرَ سُورَتَيْنِ قُرِئَتَا؟**» قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾** [الفلق:١]، **وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾** [الناس:١] فَلَمَّا نَزَلَ صَلَّى بِهِمَا صَلَاةَ الْغَدَاةِ، قَالَ: «**كَيْفَ تَرَى يَا عُقْبَةُ؟**»(٤).

وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لا يثبتهما من المصحف، ويقول: إنما هما تعاويذ ورقى أنزلها الله على محمد ﷺ، فعَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأُبَيٍّ: إِنَّ أَخَاكَ يَحُكُّهُمَا مِنَ الْمُصْحَفِ، - قِيلَ

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨/٤٩٩).

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩).

(٣) أخرجه النسائي (٩٥٣)، والحديث في «الصحيح المسند» (١/٤٥٢) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٣٩٢).

لِسُفْيَانَ: ابْنِ مَسْعُودٍ؟ فَلَمْ يُنْكِرْ - قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «قِيلَ لِي، فَقُلْتُ» فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ سُفْيَانُ: يَحْكُّهُمَا: الْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَلَيْسَا فِي مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ «كَانَ يَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُعَوِّذُ بِهِمَا الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَلَمْ يَسْمَعْهُ يَقْرَؤُهُمَا فِي شَيْءٍ مِنْ صَلَاتِهِ»، فَظَنَّ أَنَّهُمَا عُوذَتَانِ، وَأَصَرَّ عَلَى ظَنِّهِ، وَتَحَقَّقَ الْبَاقُونَ كَوْنَهُمَا مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَوْدَعُوهُمَا إِيَّاهُ(١).

وقد سُحِّرَ النبي ﷺ وعقد له إحدى عشر عقدة، فأنزل الله إحدى عشر آية، كلما قرأ آية انحلت عقدة، وهي من أعظم ما يتعوذ به، فعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرِ بْنَ عَابِسٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا ابْنَ عَابِسٍ، أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعَوَّذَ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟» قَالَ: قُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق:١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس:١]، هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ»(٢).

وقد كان النبي ﷺ يُعوذ الحسن والحسين، فلما نزلت «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق:١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس:١] كان يعوذهما بهما»(٣).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَيْنِ الْجَانِّ، ثُمَّ أَعْيُنِ الْإِنْسِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، أَخَذَهُمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ»(٤).

وكان النبي ﷺ يقرأ بهما عند نومه، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق:١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس:١]، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»(٥).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد في دعائك واستعاذتك ولوذك إلى الله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَعُوذُ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١١٨٩).
(٢) أخرجه أحمد (١٧٢٩٧).
(٣) أخرجه أحمد (٢١١٨٩)، عَنْ أُبَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد تقدم.
(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٥١١).
(٥) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

والعوذ يكون من المرهوب، وكما قيل:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ❁❁❁ ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ❁❁❁ ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

﴿بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ صاحب الفلق، سواءً فالق الحب والنوى أو فالق الإصباح، فقد يراد بالفلق هنا أنه يفلق الإصباح من الليل، فيقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ هذا الشيء الذي لا يستطيعه أحد من الناس، وهو إخراج الصباح من الليل، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام:٩٦].

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أَيْ: جميع الشرور، شر النفس، والشيطان، والجار، والابن، والزوجة، والثعابين، والحيات، والشياطين، فهذا إجمال عظيم في هذا الدعاء، يستعيذ المسلم من جميع الشرور والآثام.

ثم جاء التفصيل بعد الإجمال فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قيل: الليل، وقيل: القمر، ففي حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ، هَذَا غَاسِقٌ إِذَا وَقَبَ**»(١)، وسمي الليل شرًا؛ لظلامه وحصول كثير من الهامات فيه، فتفش فيه الهوام، وينتشر فيه الشياطين، وربما يحصل على الإنسان شر عظيم فيه؛ فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ، أَوْ قَالَ: جُنْحُ اللَّيْلِ، فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ شَيْئًا**»(٢).

﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أَيْ: إذا حصل وحل.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ ويستعيذ من شر السواحر، وسُمين بالنفاثات؛ لأنهن يعقدن خيوطًا، إما شعرًا، وإما خيطًا، وإما أوتارًا ونحو ذلك، ثم تنفث فيه مع قراءة بعض الرقى والتمائم، وهذا من أشد أنواع السحر، فقد يقوم الساحر بمثل هذه العقد وهذا النفث، ثم يدفن هذا السحر إما في البحر وإما في مقبره، أو غير ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٧١١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٨٠)، ومسلم (٢٠١٢).

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ويستعاذ من شر حاسد إذا حسد؛ لأن الحاسد يؤذي، وربما أصاب بالعين، إلى غير ذلك، فاستعذ بالله من شر كل حاسد إذا حسدك وتمنى زوال النعمة عنك. فتدرجت هذه السورة في بيان ما يستعاذ منه:

- **أولًا**: الاستعاذة من جميع الشرور.
- **ثانيًا**: من الليل وما فيه من الهوام والشرور.
- **ثالثًا**: الاستعاذة من السحرة والمشعوذين والكهنة والعرافين.
- **رابعًا**: الاستعاذة من شر الحسدة.

وقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأن أغلب الناس في قلوبهم حسد، حتى قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَا خَلَا جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ؛ لَكِنَّ اللَّئِيمَ يُبْدِيهِ، وَالْكَرِيمَ يُخْفِيهِ[1]، فالإنسان إذا شعر أنه يحسد أخاه على ما أتاه الله ينبغي أن يستغفر، وأن يدعو لأخيه بالخير، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء:٥٤]. فهذه صفة اليهود، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ**»[2].

وكما قيل في الحاسد:

لله در الحسد ما أعدله ❁❁❁ بدأ بصاحبه فقتله

وأسوء الحسد، الحسد في العلم، أو العبادة فتحب أنه يُصرف عن هذا، وهذا دليل على ضعف الإيمان، وقلة المراقبة، وقلة الإحسان، بل تفرح إذا رأيت أخاك مقبلًا على العلم والعمل، قريبًا من الله بعيدًا عن الشرور والآثام.

والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه ابن ماجه (٨٥٦)، والحديث في «الصحيح المسند» (١٥٨٦) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٢٥).

مدنية الجزء الثلاثون سورة الناس آياتها ٦

سُورَةُ النَّاسِ ، مَدَنِيَّةٌ، على الصحيح من أقوال أهل العلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ أَيْ: قل يا محمد في دعائك واستعاذتك ولوذتك ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ أَيْ: ألجأ في دفع المضار وجلب المنافع إلى رب الناس، والناس قيل: هم البشر، وقيل: الجن والإنس، وسموا ناس من الحركة فالنوس هو الحركة.

﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ أَيْ: واستعيذ بملك الناس، المالك لهم، والمتصرف فيهم خلقًا وإيجادًا، ومنعًا ودفعًا، ورفعًا ووضعًا، فهو الملك حقًا، وإن وجد ملك من الناس فهو مُلك قاصر، لا يستطيع أن يتصرف إلا بما قد قدره الله كونًا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ له الملك المطلق.

﴿ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾ أَيْ: معبود الناس الذي ينبغي ألا يتخذ غيره إلهًا، وإن اتُخذ غيره إلهًا، فهو كفر وشرك، كما قال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون:٩١].

﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ في سورة الفلق استعاذ من الشرور الخارجية الواقعة على الإنسان، وفي هذه السورة استعاذ من الشرور الداخلية ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ وهو ما يقع في قلب الإنسان وعقله، وكم من إنسان إذا دخل فيه الوسواس أفسده، وأدى بها إلى الجنون، لا سيما ما يسمى في الطب: بالوسواس القهري، والناس يتفاوتون فيه، إذ أن الوسواس القهري يأتي كل إنسان على ما هو فيه، إن كان من أهل الصلاة جاءه الوسواس في الصلاة، وأنه لم يحسن، وأنه لم يقرأ، وأنها لن تقبل، وأنها لن ترفع، فيبقى حائرًا شاكًا موسوسًا تتلاعب به الشياطين، وإذا كان من أهل الرئاسة ونحوها جاءه الوسواس في ذلك الأمر: لماذا فلان ما يقوم؟، لماذا فلان لا يفعل؟، إذن لابد أن أفعل، وربما يصل به الحال إلى القتل.

وذكر لنا الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ قصة، قال: كان رجل يصلي وآخر خلفه، فبينما هو على ذلك الحال إذ ترك الصلاة وقتل صاحبه، فقيل له: لماذا تفعل هذا؟ قال: كنت أصلي فشعرت أنه

يريد أن يقتلني، وكان الشيخ مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: احذر من رجلين: من الموسوس والجاسوس.

فلا أحسن للوسواس من العلاج الإلهي وهو اللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فصلت:٣٦].

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ**»(١).

قال: ﴿ٱلۡخَنَّاسِ﴾ سمي الخناس؛ لأنه يأتي بشدة، ثم إذا ذُكر الله خنس، فإذا غفل الإنسان عاد إليه بشدة، وأحسن علاج للوسواس ترك الوسواس، وترك الوحدة، والتمادي في الوسوسة، بل قطع الوسواس بالصلاة ونحو ذلك، وعدم المبالاة بها، كما قال بعضهم:

وَالشَّكُّ بَعْدَ الْفِعْلِ لَا يُؤَثِّرُ ❁❁❁ وَهَكَذَا إِذَا الشُّكُوكُ تَكْثُرُ

﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: يستعيذ بالله من شر الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس ويلعب بهم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينُ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ، أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ لَهُ: اذْكُرْ كَذَا وَاذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ مِنْ قَبْلُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ مَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى**»(٢).

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ﴾ من الجن والشياطين ومن في بابهم ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: البشر فمنهم موسوسون، يجلس معك ويأتيك بالكلام الذي يؤدي بك إلى هذا المرض، فاستعذ بالله من شرورهم جميعًا، فإن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أعاذك فأنت محفوظ ومحاط ومنصور بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، والله أعلم.

آخِرُ التَّفْسِيرِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٢٢٢)، ومسلم (٣٨٩).

خاتمة

هذه تعليقة مختصرة على هذه السور، وإلا فقد توسع أهل التفسير فيما يتعلق بها، ونحن إنما أردنا أن نقرب الأمر إلى أنفسنا ثم إلى غيرنا؛ لأنها سور تتكرر قراءتها في كل صباح ومساء، وربما في أغلب الصلوات، فينبغي للإنسان أن يكون عالمًا بما يقرأ عارفًا لما يتلو؛ فإن ذلك أدعى لاستفادته، وأدعى لقربه من الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤]، ويقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

فينبغي للمسلم أن يتعلم مثل تفسير جزء عم وما في بابه من تفسير الفاتحة، وكذلك تفسير الآيات التي تكثر قراءتها، أما من استطاع أن يكون عالمًا بتفسير القرآن أجمع فهذا خير عظيم، يوفق الله عَزَّوَجَلَّ له من أراد من عباده.

سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

والحمد لله رب العالمين.

انتهيت من مراجعته بعد تفريغه: ١٦/ ذو الحجة الحرام / ١٤٤٠هـ.

بمسجد الصحابة بالفيضة.

والله الموفق إلى سواء سبيل

المحتويات

مُقَدِّمَة ٣
سُورَةُ الفَاتِحَة ٦
من نعم الله عَزَّوَجَلَّ إنزال القرآن ٦
سورة الفاتحة أعظم سورة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ٧
هل البسملة آية ٩
الجزء الثلاثون سُورَةُ النَّبَإِ ٣٢
الجزء الثلاثون سُورَةُ النَّازِعَاتِ ٤٥
الجزء الثلاثون سُورَةُ عَبَسَ ٥٩
الجزء الثلاثون سُورَةُ التَّكْوِيرِ ٦٩
الجزء الثلاثون سُورَةُ الانفِطَارِ ٧٨
الجزء الثلاثون سُورَةُ المُطَفِّفِينَ ٨٢
الجزء الثلاثون سُورَةُ الانشِقَاقِ ٩٣
الجزء الثلاثون سُورَةُ البُرُوجِ ٩٩
الجزء الثلاثون سُورَةُ الطَّارِقِ ١٠٧
الجزء الثلاثون سُورَةُ الأَعْلَى ١١٢
الجزء الثلاثون سُورَةُ الغَاشِيَةِ ١٢١
الجزء الثلاثون سُورَةُ الفَجْرِ ١٢٩
الجزء الثلاثون سُورَةُ البَلَدِ ١٣٨
الجزء الثلاثون سُورَةُ الشَّمْسِ ١٤٦
الجزء الثلاثون سُورَةُ اللَّيْلِ ١٥٣
الجزء الثلاثون سُورَةُ الضُّحَى ١٦١
الجزء الثلاثون سُورَةُ الشَّرْحِ ١٦٥
الجزء الثلاثون سُورَةُ التِّينِ ١٦٩
الجزء الثلاثون سُورَةُ العَلَقِ ١٧٣
الجزء الثلاثون سُورَةُ القَدْرِ ١٨١

الجزء الثلاثون سورة البينة ١٨٥
الجزء الثلاثون سورة الزلزلة ١٩٥
الجزء الثلاثون سورة العاديات ١٩٨
الجزء الثلاثون سورة القارعة ٢٠١
الجزء الثلاثون سورة التكاثر ٢٠٥
الجزء الثلاثون سورة العصر ٢١١
الجزء الثلاثون سورة الهمزة ٢٢٤
الجزء الثلاثون سورة الفيل ٢٢٦
الجزء الثلاثون سورة قريش ٢٣٢
الجزء الثلاثون سورة الماعون ٢٣٥
الجزء الثلاثون سورة الكوثر ٢٤٠
الجزء الثلاثون سورة الكافرون ٢٤٤
الجزء الثلاثون سورة النصر ٢٥٠
الجزء الثلاثون سورة المسد ٢٥٤
الجزء الثلاثون سورة الإخلاص ٢٥٧
الجزء الثلاثون سورة الفلق ٢٦٧
الجزء الثلاثون سورة الناس ٢٧١
خاتمة ٢٧٣
المحتويات ٢٧٤